٢٠ صفحات من تاريخ مصر

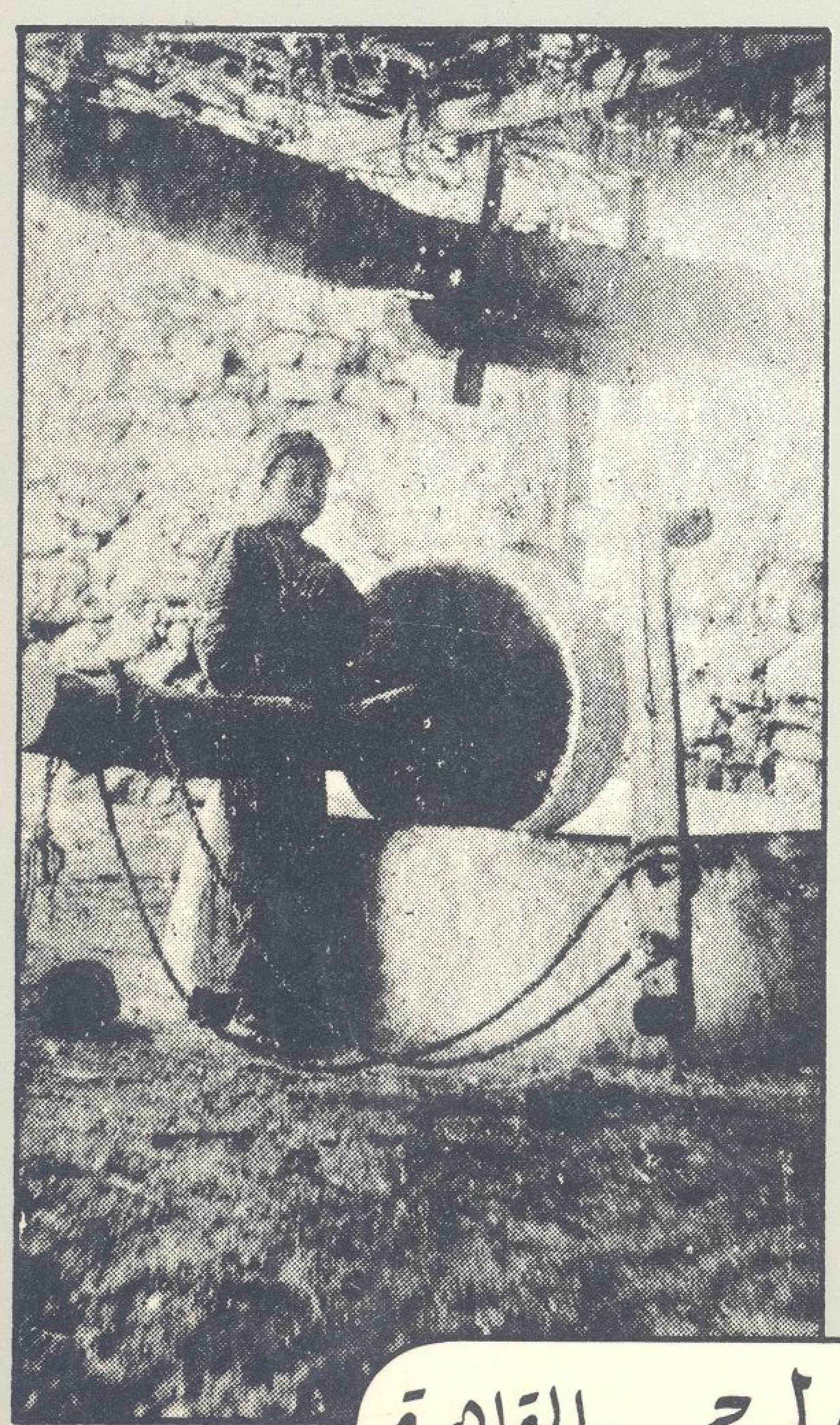
الجمعية الأثرية المصرية

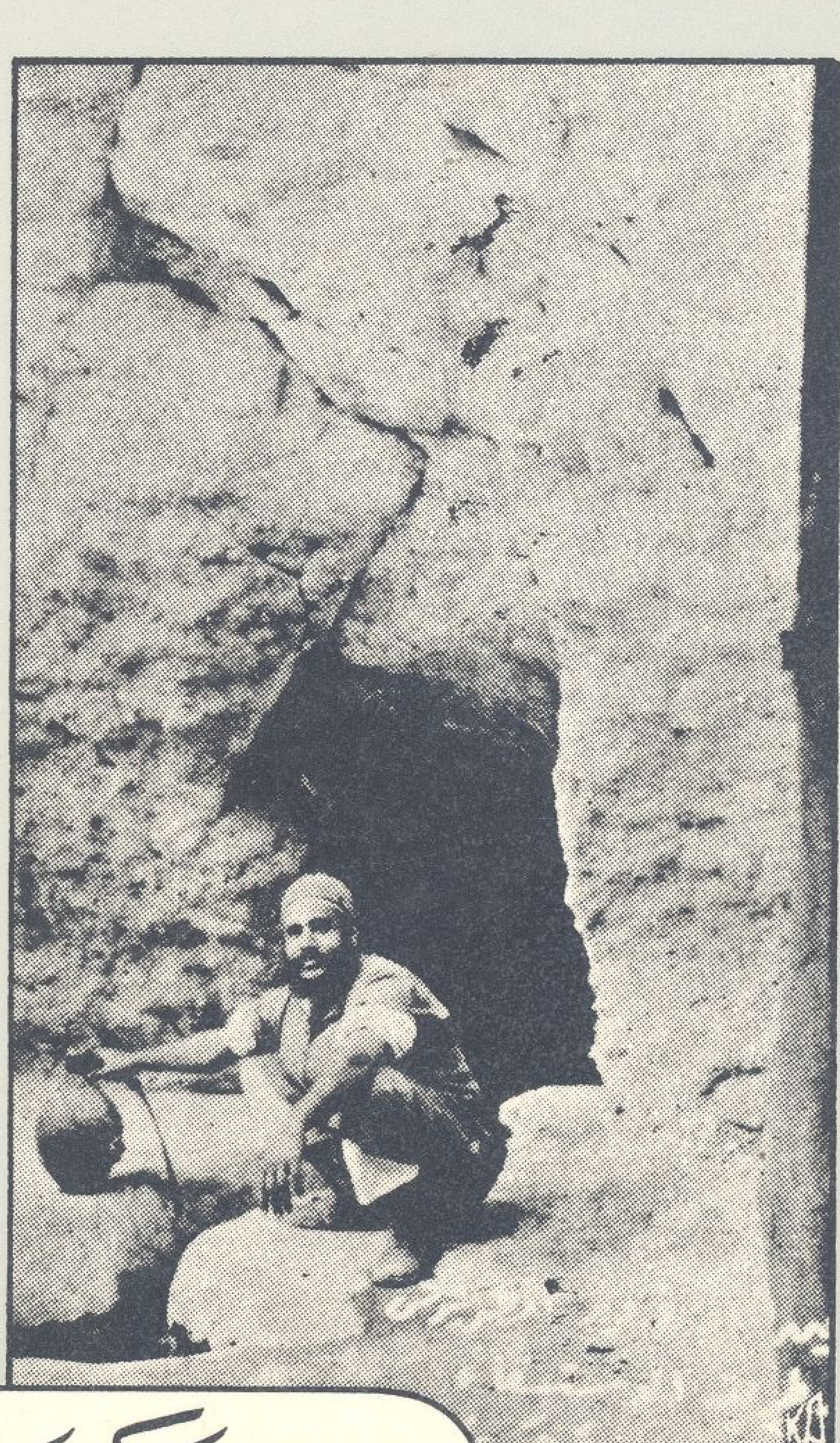
في صحراء العرب والأديرة الشرقية

تأليف

زكي تاوضروس
ليسانسيه في الحقوق

لبيب حبشي
ليسانسيه في الآداب والآثار المصرية





الناشر: مكتبة مدبولي - القاهرة

الجمعية الأثرية المصرية

في صحراء العرب والأديرة الشرقية

الطبعة الأولى

١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

الناشر

مكتبة مدبولي

ميدان طلعت حرب بالقاهرة - ج م ع

تليفون ٧٥٦٤٢١

صفحات من تاريخ مصر

(٢٠)

الجمعية الأثرية المصرية

في صحراء العرب والأديرة الشرقية

تأليف

لبيب حبشي
ليسانسيه في الآداب والآثار المصرية

زكي تاوضروس
ليسانسيه في الحقوق

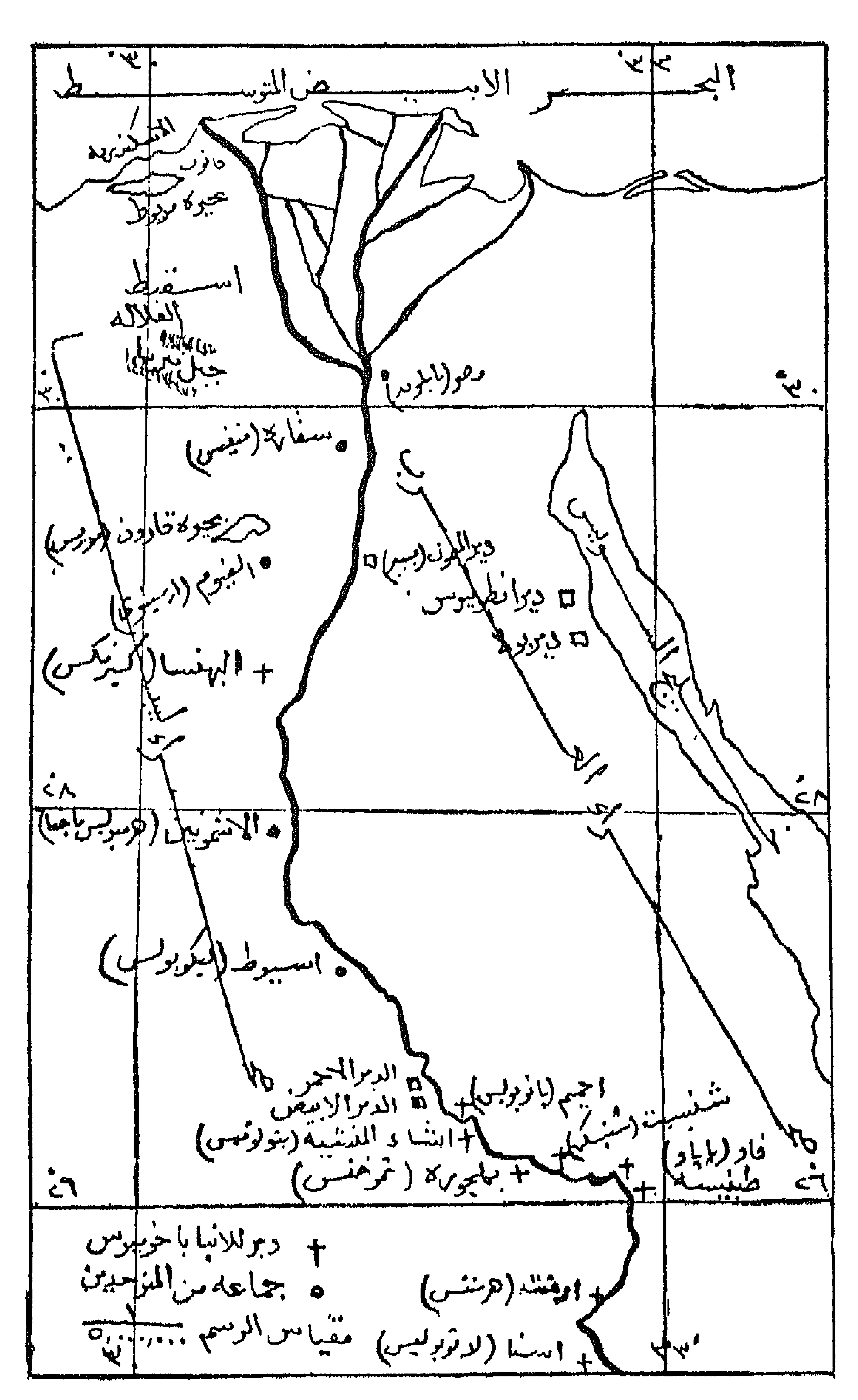
مكتبة مدبولي
القاهرة

صور الكتاب وخرطه

ص

ABBREVIATIONS بعض المراجع ومدلولاتها

Amelineau : His. de Monastères	Amelineau : Histoire de Monastères de la Basse Egypte Paris 1894
Butcher : Church of Egypt	Butcher : The Story of the Church of Egypt 2 vols London 1897
Butler : Coptic Churches	Butler : The Ancient Coptic Churches of Egypt 2 vols Oxford 1884
Chester : Coptic Deyrs	Chester : Notes on the Coptic Deyrs of the Wady Natrun & on Deyr Antonious in the Eastern Desert
Coppin : Guerre Ste.	Coppin : Le Bouclier de l'Europe ou la Guerre Sainte Lyon 1686
Couvent de St. Antoine	Cogordan:Relation du Voyage fait au Couvent de Saint Antoine..... Paris 1903
Granger : Voyage en Egypte	Granger : Relation du Voyage fait en Egypte en l'année 1730 et suivant. Paris 1745
Hartmann : Geschichte von Afrika	Hartmann : Erbeschreibung und Geschichte von Afrika Hamburg 1799
Jullien : Souvenirs Chretiens	R. P. M. Jullien:Souvenirs Chretiens de l'Egypte. Excursions et Recits Beyrouth 1886
Lausiac His.	C. Butler : Lausiac History 2 vols Cambridge 1898
Mem. His & Geog.	Quatramère : Memoirs Historiques et Geographiques Paris 1811
Miss. dans le Levant V.	Sicard : Nouveaux Memoirs des Missions dans le Levant Tome V Paris 1729
Paradise of the Fathers of Palladius.	W. Budge : The Book of Paradise of Palladius 2 vols London 1904
Savary : Egypt	Savary : Letters on Egypt vol. I London 1786
Schweinfurth	G. Schweinfurth. Auf Umbetretenen Wegen in Aegypten
Vansleb : Egypt	Vansleb ; The present State of Egypt London 1673
Voyage de Duc de Raguse	Duc de Raguse : Voyage de Duc de Raguse vol. IV Paris 1837
الخريدة النفيسة	الانبا ايسوذوروس : الخريدة النفيسة جزءان
المقريزى	المقريزى: خطط المقريزى
خلاصة تاريخ المسيحية	لجنة التاريخ القبطى : خلاصة تاريخ المسيحية



خريطة تبين مواقع الاديرة وجماعات المتوحدين
بالقطر المصرى في القرن الرابع

مقدمة

الرهبنة

الرهبنة فى المسيحية نذر اختيارى يقطعه المرء على نفسه باعتزال العالم ، وما فيه من مال وأقارب ومتعٍ زائلة ، متجنباً الحياة الزوجية ، مخصصاً حياته للعبادة وخدمة الدين

ونظام الرهبنة والتنسك أصبح اليوم فى المسيحية وطيد الأركان ، ثابت الدعائم ، على انه لم ينشأ معها ولم يظهر بظهورها ، كما يعتقد البعض ، فان الفكرة النسكية ترجع ، كما نظن ، من بدء الخليقة الى ذلك الميل البشرى الذى يخالج النفس عندما ترى ان الحياة الدنيا تافهة لا تستحق التقدير بجانب الحياة الأخرى التى وعدت بها فى الكتب المقدسة — فيدفعها هذا الميل الى أن تزهد كل متاع الحياة ، وتتفرغ للعبادة وعمل الصالحات حتى تضمن بذلك النعيم الخالد

التنسك خارج المسيحية : لهذا السبب كانت أكثر الأمم التى تؤمن بالبعث وخلود النفس أسبق من المسيحيين فى هذا النظام — إذ قام من بين الهنود واليونان والمصريين واليهود وغيرهم كثيرون اتخذوا لأنفسهم عيشة التنسك خطة فى الحياة فعاشوا فى الكهوف والمغاور عيشة جافة بعيدة عن أسباب الماديات

ولا عجب فى ذلك فلقد جاءت الكتب المقدسة الخاصة بالوثنيين

واليهود متفقة مع المبادئ المسيحية فى كثير من الوجوه ، ومشتركة معها فى معظم الأوامر والنواهى ، فهى تحض على فعل الخير واتباع الفضيلة ، وتنهى عن عمل الشر وانتهاج الرذيلة ، متوعدة كل من تمسك بملذات العالم بالويل والثبور ، واعدة الراغبين عن الدنيا بالنعيم الأبدى والسعادة الحقة

واذا كان زعماء هذه الأديان قد اختطوا لأنفسهم حياة الوحدة والتنسك ، زاهدين العالم ، مبتعدين عن الاهل والاقارب ، فلا غرو ان اقتفى أثرهم الكثيرون من متبعى دياناتهم

فهوذا جوانما بوذا قد ترك أهله وبلدته حيث العز والراحة ، وذهب الى البرارى والقفار حيث الضنك والشدة « وهناك صرف ست سنوات كاملة كان يقوم فيها بأنواع كثيرة من التقشفات حتى اصطبغ جسمه من جرائها باللون الاسود وفقد وجهه نضارته وبهاءه »[١] وقد ترك البرارى بعد ذلك ليعيش على الصدقات

وتتلخص فلسفته « فى ان الحياة ملأى بالمتاعب التى تسببها الرغبة خصوصاً ما يتعلق منها بطول البقاء ، وانه ليس ثمة من خلاص من متاعب الحياة الا بواسطة قتل الرغبة فى النفس »[٢]

وأما بلوتينس مبتدع الفلسفة اليونانية المسماة الافلاطونية الجديدة فانه « كان يعيش عيشة منفردة ولا يأكل اللحم بتاتاً ولا ينام الا نادراً ... وكان يقضي الليالى الطويلة فى تلاوة الصلوات »[٣] وكان يرى « ان المادة

(1) Encyclopedia of Religion & Ethics II p 882
(2) « « « « « II p 882
(3) « « « « « V p 496

هى أصل كل شر ، وتتلخص تعاليمه فى تطهير الحواس من الدنس واعتزال العالم وخلاص الروح من عبودية الجسد » [١]

كذلك كان الحال مع المصريين ،فقد كان كهنة الآلهسيرابيس يزيلون الشعر عن رؤوسهم ، ويعيشون عيشة طاهرة ، متجنبين تناول اللحوم وشرب الخمور

أما فى اليهودية فكان ايليا النبى وتلميذه اليشع وأيضاً يوحنا المعمدان فى فجر المسيحية من الذين انتهجوا لأنفسهم العيشة النسكية ولقد أورد الكتاب المقدس عن الأخير منهم إن « لباسه كان من وبر الأبل وعلى حقوية منطقة من جلد وكان طعامه جراداً وعسلا بريّاً » [٢]

أما وقد اتضح لنا ان أكثر الكتب المقدسة تحض على زهد العالم والرغبة عنه ، وبالأحرى سلوك الحياة النسكية ، فليس من المستغرب ان نشأ التنسك من أقدم العصور المعروفة ، وأصبح سنة الكثيرين باعتباره أفضل وسيلة لنوال النعيم الذى وُعدوا به فى الحياة الأخرى

وقد أشبه هؤلاء المتنسكون رهبان المسيحية فى كثير من أحوالهم ، واتفقوا معهم فى كثير من المبادىء اتفاقا انخدع به بعض الكتاب الذين قالوا بأن الرهبنة المسيحية ان هى الا تحوير طفيف للنظم التى سبقتها أو عاصرتها ، ولكن هذه الآراء ينقصها الدليل ، وتعوزها الحجة والبرهان .

---

(1) Encyclopedia of Religion & Ethics IX p 309

(٢) متى ٣ : ٤

فاذا نظرنا الى الهنود ، سواء البوذيين منهم أو البراهمة ، الذين كانوا أسبق الأمم المعروفة لهذا النظام من المعيشة ، نجدهم لا زالوا يعتقدون ان التنسك هو الطريق الوحيد للخلاص من شرور العالم ، ولو ان البراهمة يقدسون نظام العزلة التامة بعكس البوذيين الذين يتبعون نظام الشركة حيث يعيش النساك مجتمعين فى دير واحد ، ولقد كان فى وقت من الأوقات فى مدينة لاسا وحدها ألفان وخمسمائة ديراً تجمع نحو المائة ألف ناسك يقضون معظم أوقاتهم فى تلاوة الصلوات أمام تمثال بوذا واضعين أنفسهم تحت أحكام صارمة وتقشفات شديدة كالسكون المطلق ، أو السكوت التام ، أو الاستلقاء على فراش من المسامير ، أو رفع الذراع طول الحياة ، وما نسمعه اليوم عن أعمال فقراء الهند الغريبة يقرب الى الذهن كيف كان يقضى هؤلاء حياتهم

ولقد شابه هؤلاء بعض الشبه رهبان المسيحيين فى نظمهم النسكية وكان من أثر ذلك ان اختلط الأمر على الأستاذ الالمانى هاجنفلد فقام يثبت ان الرهبنة المسيحية مشتقة رأساً من نظم البوذيين [١] ، ولكن هذه النظرية منقوضة من أساسها ، ذلك لما بين المبدأين من التباين ، فان العمل اليدوى واكتساب الرزق بواسطته الذى هو من مبادئ الرهبنة المسيحية محظور على البوذيين الذين يعيشون على الصدقات فقط ، فضلا عن ان البوذية تحرم تناول اللحوم على نساكها مع ان المسيحية أباحت المأكولات بأنواعها ، وأخيراً اذا تذكرنا ان نظام الشركة عند

---

(1) Hilgenfeld : Zeitsch. f. Wissenschaft Theol. pp. 148 ff

البوذيين بعد تطوره من نظام الانفراد المطلق ظهر قبل بزوغ شمس المسيحية بمئات السنين ، استنتجنا أن المسيحية لو كانت قد نقلت نظام الرهبنة عن البوذية، لما كان هناك معنى لظهورها بالشكل الانفرادى، ثم تطورها بشكل الشركة كما حصل للبوذية تماما

واذا انتقلنا من الهنود الى الاغريق رأينا انه قد ظهرت من بينهم طائفة اتبعت فلسفة امونيوس ساكاس وتلميذه پلوتينس وكان من أهم مبادئها الابتعاد عن الناس ، اذ اعتقد افرادها ان الروح لا تستطيع ان تتأمل الخالق الا اذا تخلصت من الافكار الارضية بطريق البعد عن الناس

وقد رأى البعض فى هذه الفلسفة أصل الرهبنة المسيحية لتشابه بينهما، ولكن هذه الفلسفة بقيت مدة قصيرة يتبعها أفراد قليلون من اليونان لا يجمعهم نظام ثابت ، ولم تتعدّ فى تأثيرها الطبقات الراقية من المصريين الذين درسوا الآداب اليونانية ، ولم تؤثر بأى حال على الطبقة المتوسطة وطبقة العامة اللتين من بينهما ظهر مؤسسو الرهبنة المسيحية

أما المصريون فكان من بينهم الكثيرون الذين زهدوا العالم، وتعلقوا بأهداب التوحد ، وهؤلاء هم عباد سيرابيس آله اليونان والمصريين الذين كانوا يقضون حياتهم فى معابد الاله ليقوموا بالمراسيم الدينية ، وكان النذر اليسير منهم يسكن المقابر زاهداً العالم وملذاته (1) .

وقد ذهب الدكتور وينجارتن إلى أن الرهبنة المسيحية اشتقت

---

(1) Preuschen : Monchtum u. Serapiskult p 5

مباشرة من الوثنية المصرية، معتمداً على أن الأنبا باخوميوس مبتدع نظام الشركة، كان قبل اعتناقه المسيحية متوحداً وثنياً بدليل سكناه مع غيره من النساك معبد سيرابيس ، وانه نقل كثيراً من المبادىء التى اختطها فيما بعد لأديرته عن عباده الاله سيرابيس [(١)] ولكن هذا خطأ محض لأن سكنى القديس لمعبد سيرابيس لا يدل على أنه كان متوحداً وثنياً ، فان الرهبان المسيحيين فى العصور الأولى كثيراً ما أبدلوا المعابد الوثنية واستخدموها لسكناهم كما حدث فى معبد حاتشبسوت بمدينة طيبه المعروف الآن بالدير البحرى وكذلك فى معبد الأقصر وغيرهما ، فضلا عن أنه لو كان به نساك وثنيون ، كما يقول وينجارتن ، لكان من المستحيل رجوعه اليه بعد اعتناقه المسيحية ، لكراهية المسيحيين للوثنية فى ذلك العهد

أما اليهود فلقد قامت من بينهم طوائف كثيرة تقدس عيشة التوحد والنسك ، وأهمها طائفتان الأولى كانت فى فلسطين ، والأخرى فى مصر

وأفراد الطائفة الأولى كانوا يدعون الأسينيين [(٢)] وكانوا يسكنون شواطىء البحر الميت ويعيشون عيشة خشنة شبيهة بعيشة رهبان المسيحيين، وانما يختلفون عنهم فى أن بعضهم كان يبيح الزواج حفظاً للجنس البشرى ، هذا فضلا عن أنهم تشتتوا وقت خراب أورشليم سنة ٧٠ م أى قبل ظهور الرهبنة بنحو مائتى سنة

---

(1) Weingarten : Upsprung des Monchtums

(٢) بعض العلماء يرى انها تعنى «المتواضعين» Jewish Encyclo. V p 224

والطائفة الثانية وتدعى بالثرابيوته[١] تأثرت بفلسفة اليونان ، وكان من أتباعها الكثيرون أمثال فيلون وغيره من الفلاسفة ، وكانوا منتشرين فى كثير من نواحى مصر وعلى الأخص بجوار بحيرة مريوط

وكان نظامهم يقضى بأن يترك المرء الاهل والمال ، ويذهب إلى مكان منفرد فى الصحراء أو فى الحقل ، حاملا معه التوراة فقط ، وهناك فى تلك العزلة يسهر ويصلى ، آخذاً على نفسه عهداً بالصمت ، واضعاً نصب عينيه دراسة التوراة والتفقه فى أحكامها ، وكان هؤلاء يبقون طول أسبوعهم منفردين ، حتى إذا ما وافى يوم السبت اجتمعوا رجالا ونساء فى مكان واحد ، يفصله حاجز بسيط حيث يصرفون يومهم يتسمعون إلى وعظ رئيسهم الاكبر

وتختلف هذه الطائفة الاخيرة عن الاسينيين فى مبلغ علمها ، أذ بينا نجد أن طائفة الثرابيوته قد تأثرت بفلسفة اليونان ، وأصبح أفرادها يدرسون الناموس ويطالعون التوراة على ضوء العلم الصحيح والنظريات الفلسفية ، نجد أن الاسينيين كانوا يوجهون جلّ عنايتهم إلى القيام بأعمال التقشف ومزاولة كل مجهود جسدىّ شاق

وإذا نظرنا نظرة سطحية إلى نظم الثرابيوته نراها تشبه فى كثير من المواضع نظام الرهبنة المسيحية ، فترك الاهل والمال أمور تتطلبها هذه كما كان يتطلبها التوحد فى طائفة الثرابيوته ، والسكنى فى الجبال والصحارى أو على ضفاف الانهر والبحار أمور مشتركة بينهما أيضاً

---

(١) كلمة يونانية معناها « شافو المرضى » انظر Jewish Encyclo. VII. p 138

وقد كان هذا التشابه سبباً حدا ببعض العلماء أن ينسبوا كتاب « الحياة التأملية »(1) الذى كتبه الفيلسوف فيلون اليهودى ، وصفاً لحياة الثرابيوته ، إلى أحد الرهبان (2)، ولكن الحقيقة غير ذلك كما اتضح من الدلائل التى أوردها كونيبير(3) وغيره من العلماء

وإلى جانب هذا التشابه الموجود بين الثرابيوته والرهبان ، فان هناك فروقاً كثيرة لا تدع مجالا للشك فى أن النظامين مختلفان من أساسهما ، فالاعمال اليدوية كانت محظورة على الثرابيوته بعكس الحال فى المسيحية ، واجتماع الرجال والنساء فى مكان واحد أمر مباح فى الطائفة الأولى ومحظور بتاتاً فى الثانية

الرهبنة المسيحية : اتضح لنا مما ذكرناه آنفاً ان الرهبنة المسيحية لا ترجع بأى حال الى النظم النسكية التى سار وراءها بعض الأقوام فى الأزمنة الغابرة لما بين هذه وتلك من فروق كثيرة جوهرية

واذا كانت الرهبنة المسيحية لم ترتكز فى نشأتها على تلك النظم العتيقة التى سبقتها فعلى أى شىء قامت ؟ وما الذى غذاها حتى نمت وانتشرت فى العالم بأجمعه ؟

الذى لا نشك فيه ان التعاليم المسيحية نفسها هى التى أشعلت فى قلوب المسيحيين حب الزهد والتقشف ، وحببت اليهم حياة النسك والتوحد ، فمن ذا الذي لا يملك مشاعره ذلك المثل الذى ضربه السيد المسيح

(1) De Vita Contemplativa

(2) Lucius : Die Thérapeuten und ihre Stellung in des Geschichte der Askese.

(3) Conybeare : Philo about the Contemplative life

عن اليعازر والغنى، اذ جعل نصيب الفقير المعدم حياة النعيم والفردوس، ونصيب الغنى الشقاء الأبدى فى جهنم النار [١]

أليس فى ذلك إغراءً للمسيحيين أن يعيشوا عيشة ذليلة خالية من المال والجاه حتى يفوزوا بالنعيم الأبدى ؟

ثم أليست تعاليم المسيحية تتلخص فى تلك الآية التى قالها السيد المسيح للشاب الغنى « ان أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك واعط للفقراء فيكون لك كنز فى السماء وتعال اتبعنى » [٢] ؟ تلك الآية التى لما سمعها القديس انطونيوس منشئ الرهبنة فى المسيحية فعلت كالسحر فى قلبه، وجعلته يبيع أملاكه ويترك الأهل والأقارب والعالم أجمع، ويزهد الحياة ساكناً فى قلب الصحراء

ثم أليس تعليم بولس الرسول فيلسوف المسيحية الذى يقول « من زوّج فحسناً يفعل ومن لا يزوّج يفعل أحسن » [٣] اغراءً للكثيرين على انتهاج خطته فى عدم الزواج ؟

وأخيراً أليست حياة التقشف التى استنها المسيح لنفسه، وتبعها من بعده كثير من تلاميذه، مشجعةً الكثيرين أن ينسجوا على منوالها ؟

الحق ان الرهبنة المسيحية قد اشتقت من مبادئ الدين نفسه، وقد أنماها ذلك المثل الأعلى الذى ضربه المسيح فى حياته على الارض، وتبعه فيه بعض رسله من بعده

---

(١) لوقا ١٦ : ١٩—٣١

(٢) متى ١٩ : ٢١

(٣) ١ كورنثوس ٧ : ٣٧

ورب معترض يقول لماذا نشأت الرهبنة فى مصر، ولم تنشأ فى غيرها من البلاد المسيحية لو كان الدين المسيحى هو منشؤها

والرد على ذلك هو ان المصريين الذين كانوا من فجر التاريخ يؤمنون بالبعث، ويدينون بخلود النفس، ويقضون أعمارهم فى الاستعداد للحياة الأخرى بتحنيط أجسادهم، وبحفظ المأكولات فى مقابرهم وبغيرها من الطرق، هم أنفسهم الذين اعتنقوا المسيحية ودخلوا فيها أفواجاً حينما بزغت شمسها فى قطرهم، فكان منهم أن اهتموا بالآله الاعظم اهتمامهم فيما قبل بآلهتهم التى نبذوها، فاعتمعوا أن أعدّوا العدّة للحياة الصالحة بالتعبد لله، وتقديس النفس والجسم له

أضف الى ذلك أن الموقع الطبيعى لبلادنا فى وادٍ ضيق، يكتنفه جبلان عاليان وتحيط به القفار، لا يبعث فى النفس رغبة فى التكالب على المعيشة، بل على النقيض من ذلك يدفع المرء الى زهد الحياة وما فيها

فهذا الاستعداد الطبيعى من جانب المصريين تأثر بمبادئ المسيحية، ثم أذكاه فى نفوسهم ظلم الولاة وتعسفهم واضطهادهم، فدفعتهم كل هذه العوامل الى هجر المدن، وسكنى البرارى والقفار، بعيداً عن أعين الرقباء، حيث يتسع أمامهم مجال التعبد والتقشف، والقيام بما يتطلبه منهم دينهم على الوجه الأكمل

على ان فكرة التقشف قد وجدت أسباباً أخرى ساعدت على انمائها فى عقول المصريين، فلقد كانت حالتهم تحت حكم الرومان من البؤس والشقاء بدرجة عظيمة، اذ كان يستخدمهم الحكام كاجراء لا أكثر،

وكانوا يثقلونهم بأنواع شتى من الضرائب ، فضلا عن انهم كانوا مهددين باخطار متنوعة من جانب الولاة ، ومحاطين بأنواع كثيرة من الفجور والتبرج الذى اشتهر به الرومان

تلك الحالة السيئة التى لم تشاهد مصر مثلها منذ العصور الأولى ، وتلك الغيرة الدينية التى تتقد دائما فى بدء ظهور الأديان ، وذلك الاهتمام الفائق بأمور الدين الذى اشتهر به المصريون من أقدم العصور ، كل هذه تضافرت على أن تدفع الكثيرين منهم أن يزهدوا العالم ويعيشوا عيشة خالصة لخدمة الدين

وكان من أثر هذه العوامل مجتمعة ان بدأت الرهبنة بنظام العزلة المطلقة ، ثم تطورت بعد زمن معين الى نظام الجماعات فى قلايات متقاربة ، ثم انتهت بالاشتراك فى مسكن واحد يجمع المتوحدين ويحجبهم عن العالم ، وحيث يشتركون فى تدبير أمور حياتهم .

ولم يتبع المصريون فى تنسكهم نظاماً معيناً ، ولم يقتبسوا أحكاماً من طائفة أخرى ، كما انهم لم يتأثروا بسنة من السنن ولا قاعدة من القواعد ، بل اتبعوا ما أوحته اليهم الغريزة الكامنة فى نفوسهم ، والتي أنمتها الظواهر الاجتماعية المحيطة بهم ، فظهرت من بينهم الرهبنة لاول مرة فى المسيحية

على ان المصريين لم يتعمقوا فى الصحراء دفعةً واحدة ، ولم يكن هنالك أديرة ليسكنوها فى مبدأ الأمر ، فقد كان من يرغب منهم عن العالم ، يذهب بعيداً عن المدن حيث يعيش على انفراد فى عزلة تامة ، وحيث يستعين

بزراعة قطعة أرض صغيرة للحصول على كفايته من القوت

وحدث ان القديس انطونيوس انضم الى المتوحدين ، وعاش فيما بينهم فى المكان الذى به دير الميمون الآن ، ثم تركهم الى الصحراء وتعمق فيها وعاش فى مجاهلها بقية عمره ، فأخذ الكثيرون ينسجون على منواله ، وهجروا المعيشة بجوار القرى وتوغلوا فى البيداء ، مكان الهدوء ومستقر السكينة، ليقضوا عمرهم بعيدين عن صخب العالم، ظافرين على تجارب الجسد بالصلوات المتتابعة والصوم الطويل

ومع ان القديس بولا قد سبق القديس انطونيوس فى هذا الطريق ، الا ان حياته لم يعرف عنها معاصروه شيئاً ، وكانت ستظل سراً غامضاً حتما ، لو لم تقيض العناية الآلهية القديس انطونيوس لزيارته قبل وفاته

فالانبا انطونيوس هو أول من أغرى الكثيرين بالابتعاد عن القرى والمزارع والذهاب داخل الصحراء للتعبد فيها

أضف الى ذلك انه قام بأعظم دور فى نشر الرهبنة ، حتى عدوه بحق أباً لجميع الرهبان، وذلك انه لما رأى ان المتوحدين بوجودهم فى انفراد تام لا يجدون من يعظهم ويرشدهم، ويوضح أمامهم السبيل السوى، ورأى انهم مهددون بالاخطار التى تنتابهم من كل جانب ، انتهز فرصة التفاف بعض المتوحدين حوله فى الميمون، وفكر فى جمع شملهم لما يعود عليهم بذلك من المنفعه

وباجتماع المتوحدين فى قلايات متقاربة حول ذلك القديس ، وباتخاذهم اياه رئيساً لهم تكونت أول جامعة حقيقية للرهبان ، ليس

فى مصر فقط بل فى العالم أجمع ، وسرعان ما تتابع انشاء مثل هذه الجامعات فقام فى قرية شنسيت (قصر الصياد) ، جماعة تحت رئاسة القديس پلامون الذى كان القديس باخوميوس من تلاميذه

ثم قام فى وادى النطرون ثلاث جامعات إحداها فى جبال نتريا، وثانيتها فى وادى اسقيط ، وثالثتها فى جهة القلاله

وقد عيّن كتاب الأفرنج تلك الجهات بناء على ما ورد فى كتب رحالاتهم الذين زاروها فى العصور الأولى فقالوا بأن القلاله تقع إلى شمال جبال نتريا بنحو ستة أميال أما اسقيط فتقع فى منتصف الوادى فى الشمال أو الشمال الغربى لجبال نتريا(١)

وقد بدأ الرهبنة فى جبال نتريا القديس آمون الذى كان متشبعاً بفكره الرهبنة من نشأته، فمع أن أهله أرغموه على الزواج إلا أنه اتفق مع زوجته أن يعيشا كأخ وشقيقته ، ولما بلغ سن الأربعين تركها إلى جبال نتريا حيث بقى هناك اثنين وعشرين سنة إلى أن مات(٢)

وقد تبع ذلك القديس أناس كثيرون تزايد عددهم شيئاً فشيئاً حتى بلغ فى أواخر القرن الرابع للميلاد نحو خمسة آلاف شخص ، وقد بلغوا فى ذلك العهد درجة كبيرة من الرقى والنظام ، كما يدلنا على ذلك ما ورد فى كتاب پالاديوس ، فلقد كان الراهب يعمل ويصلى بمفرده حتى إذا ما وافت الساعة التاسعة من كل ليلة تصاعدت الألحان الشجية من كل فج وصوب ، حتى ليحسب السامع نفسه وقد انتقل إلى فردوس النعيم

(1) Lausiac His vol II p 189
(2) Paradise of the Fathers vol I p 146—49

بعيداً عن ضوضاء هذه الحياة(١)

وكان هؤلاء الرهبان يجتمعون للصلاة أيام الآحاد وغيرها فى الكنيسة ، حيث يقوم بالشعائر الدينية رئيس الثمانية قسس المكلفين بذلك(٢) وكانوا يصرفون أوقاتهم فى القيام بكثير من الاعمال اليدوية كصناعة الكتان وعمل السلال وغيرها لكى يكتسبوا ما يقوم بمعيشتهم ، ولا يتركوا مجالا للسآمة أو الملل من أن يتطرق إلى نفوسهم ، وحتى يشغلوا طوال وقتهم فلا تستطيع التجارب أن تجد اليهم منفذا

ومن مظهر نظامهم أنه كان بجوار كنيستهم ثلاث أشجار من النخيل ، وكان بكل منها سوط يستعمل أولها لجلد اللصوص ، وثانيها لمعاقبة الغرباء الذين يتعدون القانون ، وثالثها لتأديب الرهبان الذين يخرجون عن الأحكام الموضوعة لهم(٣)

أما فى جهة القلالة فكان يعيش نحو السمائة راهب فى قلالى ضيقة متباعدة تباعداً لا يسمح لهم بالتزاور ، وكان نظامهم فى المعيشة من أصعب النظم وأقساها ، أذ كانوا يقومون بأنواع كثيرة من التقشفات الجسدية ، وكان من بينهم القديس مقار الاسكندرى الذى ذهب مره إلى دير باخوميوس بطبنيسة فادهش رهبانه بما كان يأتيه من الأعمال(٤)

أما وادى اسقيط فقد نقل الرهبنة اليه القديس مقار المصرى الذى عاش مع القديس انطونيوس حتى بلغ الثلاثين من عمره سنة ٣٣٠ م ثم

---

(1) Paradise of the Fathers vol I p 145
(2) « « « « vol I p 145
(3) « « « « vol I p 145
(4) « « « « vol I p 177

تركه إلى ذلك الوادى حيث عاش عيشة قاسية جذبت اليه أناساً كثيرين، ومما يروى عنه أنه كان يتحاشى جهد الطاقة مقابلة الغرباء الذين كثيراً ما كانوا يقصدونه للتبرك منه ، وقد أوصل قلايته بمغارة بعيدة بواسطة نفق يبلغ النصف ميل، فكان إذا رأى أحد الغرباء مقبلا عليه ، أنسل من قلايته إلى النفق ثم إلى المغارة ، حيث ينعم بعزلته ، وحيث لا يستطيع أحد العثور عليه [(1)] وإلى هذا القديس ينسب كثير من الحكم والرسائل المملوءة بالمواعظ الدينية

وقد امتلأ هذا الوادى بالرهبان بعد سكنى القديس مقارله، وعاشوا على نمط من الحياة قريب الشبه بذلك الذى كان يعيش عليه رهبان نتريا ، فكانوا يقضون أوقاتاً كثيرة فى الصلوات، ودراسة الكتب اللاهوتية ، وما بقى من الوقت كانوا يصرفونه فى الاعمال اليدوية المختلفة

وكان من أفراد هذه البرية أبو موسى الاسود الذى كان من أكبر اللصوص فاهتدى وصار أشد الرهبان تمسكا بالفضيلة ثم دوماديوس ومكسيموس ابنا ملك الروم واللذان بنى على اسمهما دير البرموس الذى لا يزال قائماً للآن

وإلى جانب هذه قامت جماعات كثيرة انتشرت فى كل نواحى مصر وكان أهمها تلك التى وجدت بجوار سقارة وبابلون والفيوم وأسيوط وأخميم

وإذا تذكرنا أن كل دير كان فى أول نشأته بعض القلايات المتقاربة، لاستنتجنا من ذلك أنه كان فى مكانه جماعة من الجماعات انتهى أمرها أخيراً

(1) Paradise of the Fathers vol I p 170

بأن تبنى سوراً يجمع شتات قلايات أفرادها ومبانيهم ، ولاستنتجنا أيضاً أنه كان بمصر مئات من أمثال هذه الجماعات

غير أن نظام هذه الجماعات لم يكن وطيد الاركان يستطيع أن يجذب الناس اليه، نظراً لصعوبة الحياة فى ظله، ولعدم تعاون الرهبان فيما بينهم لتخفيف شؤون الحياة ، ولولا غيرة المصريين وتفانيهم فى سبيل الدين فى بدء اعتناقهم المسيحية لما أقبل عليه أحد ما ، وكان مصير الرهبنة إلى الزوال بلا نزاع، لولا ان قيض الله لها الانبا باخوميوس الذى ابتدع لها نظاما ثابتاً أدّى الى نموها وانتشارها فى العالم أجمع ، وهو نظام الشركة

وُلد هذا القديس فى سنة ٢٩٠ م من أبوين وثنيين ، فلما ترعرع انخرط فى سلك الجندية حيث استطاع فى جولانه ان يرى من كرم المسيحيين ، وحسن وفادتهم للجنود وغيرهم ما جعله يصمم على اعتناق المسيحية ، فما ترك الجيش حتى ذهب الى شنسيت حيث تعلم مبادئها على يد القديس بلامون ونقل عنه كثيرا من أعمال التقوى ، وفى أحد الايام سار فى الصحراء حتى وصل الى قرية طبنّيسه [١] بجوار دندره ، واذ هو يصلى سمع صوتاً يقول ، ابقَ هنا وابنِ ديرا لانه مزمع أن يأتى إليك أناس كثيرون ويصيروا رهباناً فبعد أن ودّع القديس بلامون بنى قلاية فى المكان الذى ناداه فيه الصوت وكان ذلك حوالى سنة ٣٢٠ م ، واذ ذاك ذاع صيته فأخذت وفود الرهبان تترى عليه من كل فج وصوب حتى

(١) بعض العلماء يقول بأن الكلمة يونانية معناها « جزيرة طبنا » والبعض الآخر يقول بأنها مصرية بمعنى « مدينة بلح ايزيس » والرأى الثانى هو الاصوب انظر Lausiac His vol II p 205

جاوز عددهم المائة فبنى لهم ديراً ثانياً ، ومن ثم أخذ فى انشاء الأديرة التى بلغت تسعة قبل موته كانت كلها مزدحمة بالرهبان الذين بلغ عددهم ثلاثة آلاف سنة ٣٥٠ م ، وسبعة آلاف سنة ٤١٠ م [1] ، ولقد وضع لهذه الأديرة أحكاماً خاصة لتسير عليها ، كان يصدرها من وقت الى آخر كلما دعت الحاجة اليها ، ثم يذيعها على رؤساء الأديرة للعمل بمقتضاها

ولم ينقل قواعده تلك عن نظم أجنبية ، ولكنه ابتدعها من عندياته ، فجاءت فريدة فى بابها ، متينة فى مجموعها ، حتى ان الرهبان قديماً كانوا يعتقدون أن باخوميوس لم يكتبها بنفسه ، وانما سلمها له ملاك من السماء مكتوبة على احدى الالواح

وقد جعل لكل دير رئيساً ، وجعل لكل الأديرة رئيساً أعلى يخضع له كل الرؤساء ، ويدعى الارشمندريت ، أو رئيس المتوحدين ، الذى كان له أن يعين رؤساء للأديرة ، وأن ينقلهم من دير الى آخر ، وأن يصدر القوانين أو يغيِّر فى نصوصها كلما دعت الحاجة ، وأن يقوم بنفسه من وقت لآخر للتفتيش على الأديرة

وكان كل دير مقسما الى فرق كثيرة ، كل فرقة منها تجمع أصحاب الحرفة الواحدة ولها رئيس ومساعد ، ولكل من أفرادها مركز يتفاوت بحسب أقدميته ، وكان يتكون من كل فرقتين أو ثلاث فصيلة ، ينتخب رئيسها من بين رؤساء الفرق المكونة لها

(1) Lausiac His vol. II. p. 210

وكان يجتمع رهبان الأديرة جميعها فى الدير الرئيسى الذى كان أولاً فى طبنيسة ، ثم صار فى بابا و (فاو)[1] ، مرتين فى السنة ، الاولى فى عيد القيامة للاحتفال بما يليق بجلال ذلك العيد ، والثانية فى الثالث عشر من شهر أغسطس (٧ مسرى) ، حيث يقدم رئيس كل دير حسابه عن أعماله طول السنة

أما الرهبان فكانوا يقضون أوقاتهم بين الصلاة ودراسة الكتب والعمل اليدوى ، وكان لهم عدا الصلوات الانفرادية ، صلوات اجتماعية أخرى يقومون بها فى الكنيسة أو فى غيرها من الأمكنة ، وذلك فى ساعة الفجر وعند الظهر وفى المساء وقبل النوم وفى منتصف الليل

وكانوا يجتمعون للتعليم فى أيام الأربعاء والجمعة من كل أسبوع ليتسمعوا الى عظات وتفاسير رؤساء الفرق أو رئيس الدير نفسه ، وكانوا يقومون بعمل مباحثات دينية طويلة فى الصباح والمساء من أيام الصوم ، وكانوا يوجهون همّهم الى حفظ نصوص الكتاب المقدس

أما الفراغ من وقتهم ، فكانوا يصرفونه فى العمل اليدوى ، اذ يعتقدون ان الراهب الذى يشتغل يهاجمه شيطان واحد ، أما الذى لا يعمل فتهاجمه أرواح لا تحصى ، فكانوا يزاولون الحرف المختلفة عدا ما كان يؤديه بعضهم من خدمة عامة للدير ، كطهى الطعام أو اعداد المائدة أو العناية بالمرضى أو تعليم من كان حديث العهد بدخول الدير

وكان من يتعدى النظام الموضوع أو يقوم بما يخالف آداب الرهبنة ، معرضاً لأنواعٍ شتى من العقاب ، تتزايد شدةً كلما تمادى فى خطئه ، وتنتهى بطرده ان لم يكن هناك أمل فى اصلاحه

---

(1) Lausiac His vol II p. 208-9

واستمرت الأديرة سائرة على هذا النظام الى أن جاء الانبا شنوده ، فأنشأ بنفسه بعض الأديرة وأبدل قليلا من نظمها

وُلد هذا القديس حوالى سنة ٣٤٠ م فلما بلغ التاسعة من عمره ذهب الى الدير الابيض بجبل ادريبه بجوار مدينة سوهاج ، وهناك عاش مع عمه بجول رئيس الدير ، حيث استطاع بذكائه النادر أن يكوّن لنفسه مركزاً بين الرهبان ، حتى انه لما مات عمه انتُخِب لرئاسة الدير

ولقد طار ذكره حتى وفدت اليه جموع كثيرة من الرهبان اضطر لاجلها أن يغيّر كثيراً فى أبنية الدير ويزيد فيها ، وقد بنى أيضاً ديراً للراهبات كان تحت رئاسته

ولقد كان قاسياً فى معاملة الرهبان ، الا انه كان محبوباً منهم نظراً لحسن ادارته ولعنايته بأمورهم الدينية والدنيوية ، ومن مبتدعاته انه وضع صورةً لعهدٍ يكتبه الراهب عند دخوله الدير باطاعته لقوانينه ولاوامر رئيسه

ولو أن الرهبان قد أخذوا يفضلون سكنى الأديرة منذ ذلك الوقت ، إلا أن هذا لم يمنع البعض من أن يهجروا الأديرة فى بعض الأوقات ، ويذهبوا إلى قلايات منعزلة وسط الصحراء ليعيشوا فيها مدة ما ، كما كان يفعل كثير من رهبان الدير الأبيض فى عهد الأنبا شنوده ، ولم يمنع البعض أيضاً من أن يعيشوا عيشة العزلة طول عمرهم فى أيام باخوميوس وشنوده بل وفى أيامنا أيضاً ، فلقد حدثنا كوجردان عن راهب كان يعيش منفرداً من مدة وجيزة بجوار دير البرموس [1] ، ولقد سمعنا

(1) Couvent de St, Antoine p. 128

نحن أيضاً أن راهباً من دير أنطونيوس لا يزال يسكن قلاية منفردة بالقرب من الفيوم

ولكن هذا قليل نادر فلقد فضل الرهبان ، منذ بنى باخوميوس أديرته ، عيشة الشركة فأقبلوا عليها ، فما زالت الاديرة تبنى فى مصر حتى بلغ عددها ٣٦٥ ديراً ، ولكنها أخذت تقل شيئاً فشيئاً نظراً لتعسف بعض الولاة مع الرهبان ، ولانخماد الغيرة الدينية التى كانت تتأجج فى بادئ الأمر فى مسيحيي مصر ، ولقد بلغت الاديرة فى عهد المقريزى ، من خمسة قرون تقريباً ، سبعة وثمانين ديراً فقط ، أما اليوم فقد تهدم أكثرها وزالت آثاره ، وهُجِر بعضها إلا أن بقاياه لا زالت قائمة ، وبقى البعض يسكنه بعض القسوس العالمانيين ، ولم يبقَ فى الوقت الحاضر إلا ثمانية أديرة يسكنها الرهبان ، اثنان فى الصحراء الشرقية هما ديرا أنطونيوس وبولا ، وأربعة فى وادى النطرون هى أديرة أبى مقار وأنبا بشوى والسريان والبرموس ، ودير صمويل بجوار المنيا ، ثم دير المحرق بقرب أسيوط

الرهبنة عند النساء : انتشرت الرهبنة بين النساء من أول ظهورها فى مصر ، بل وهناك بعض الدلائل على أن رهبنة النساء قد سبقت تنسك الرجال ، بدليل ما ورد فى ترجمة حياة أنطونيوس ، من أنه عند ما ترك مدينته ، أودع أخته عند جماعة من الفتيات المتبتلات [1] ، إلا أن هؤلاء لم يتعمقن أبدا فى الصحراء ، بل كنَّ يعشن فى بادىء الامر فى بيوتهن ، منفردات أو مجتمعات ، ثلاثاً أو اربعاً ، وبقى الحال كذلك إلى أن جاء باخوميوس فبنى لاخته

---

(١) الخريدة النفيسة جزء ١ وجه ٢٣٣

قلاية تلتها أخرى ثم ثالثة حتى اكتمل الدير ، وقد وضع باخوميوس لهـذا الدير قانوناً شبيهاً بالقانون الذى وضعه لرهبانه ، مراعياً فيـه بدقة عدم اتصال الرهبان بالراهبات ، فكان إذا أراد راهب له أخت متبتلة أن يراها ، لا يسمح له بذلك إلا فى حضرة رئيسة الدير ، أو أحد الرهبان المتقدمين فى السن

ولقد أنشأ باخوميوس ديراً آخر بقرب اخميم ، وأنشأ تيودور تلميذه ديراً ثالثاً بجوار فاو[1] ، ثم أنشأ الانبا شنوده ديراً تحت رئاسته ، ومن ثمّ تعاقبت الاديرة حتى انتشرت فى أنحاء القطر كله

واليوم لم يبق من هذه الاديرة سوى أربعة جميعها فى القاهرة — أحدها فى حارة زويله ، والباقى فى مصر القديمة

الرهبنة فى العالم : ظهرت الرهبنة أولا فى مصر وانتشرت منها فى ممالك العالم ، فامتدت أولا إلى بلاد الشرق اذ نقلها إلى سوريا سنة ٣١٠ م القديس هلاريون تلميذ أنطونيوس ، ونقلها إلى بلاد العراق فى أوائل القرن الرابع القديس أوچن الذى عاش مدة طويلة فى أحد أديرة باخوميوس

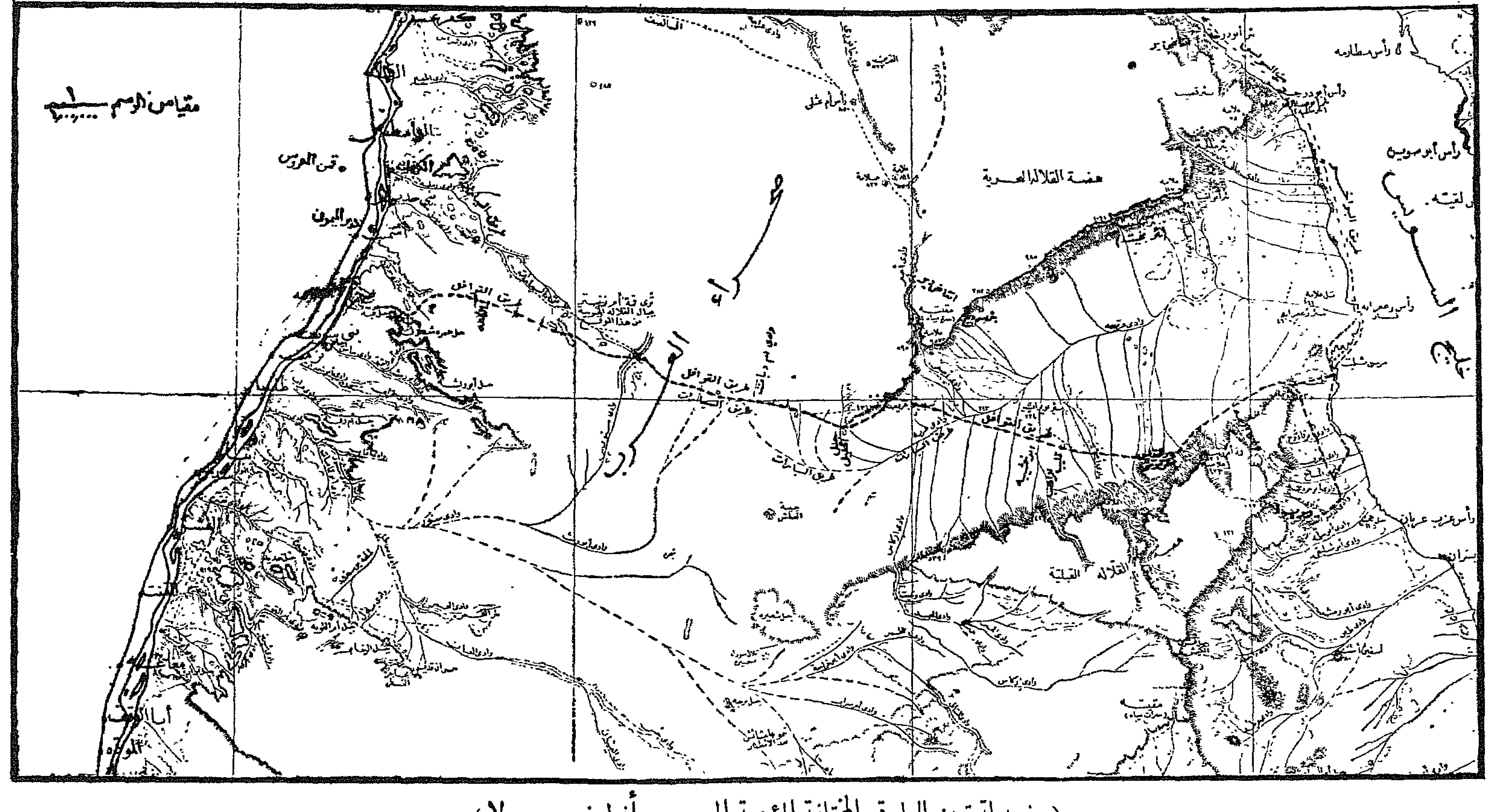
أما فى الغرب فلقد تسربت بواسطة تأثير الانبا أثناسيوس وايزودور وغيرهما إلى إيطاليا حوالى سنة ٣٤٠ م ، ومنها انتقلت إلى ممالك أوربا جميعها

والعالم كله يدين لمصر بالرهبنة ، التى تخرج منها المدرسون والادباء والفنيون والمبشرون والعلماء الذين قاموا للانسانية بخدمات لم تقم بها هيئة اجتماعية أخرى حتى وقتنا الحاضر[2]

---

(1) Lausiac His. vol. II p. 211

(2) Encyclopedia of Religion & Ethics VIII p 797.



(خريطة تبين الطرق المختلفة المؤدية إلى ديرى أنطونيوس وبولا)

الرحلة

تمهيد : فى شهر يونيه من عام ١٩٢٧ ، كنا بوادى النطرون نشاهد للمرة الأولى تلك الأبنية العالية التى شيدها الرهبان حصوناً ضخمة ، تحجب عنهم الانسان واعتداءاته والعالم وشهواته ، ونرى لأول مرة رهبان البرية بين غادٍ ورائح ، تكسو وجوههم السمرة ، ويعلوها الاصفرار ، ونسمع التسابيح والأناشيد تتصاعد من حناجرهم ، فتنتشر فى أجواز الفضاء ، ثم ترتفع الى الملأ الأعلى بخوراً طيباً ذكياً

ستة أيام قضيناها فى تلك الجهات النائية ، حيث تسيطر السكينة ، وتتملك الطبيعة الهادئة مشاعر الانسان ، وحيث تبدو الحياة على حقيقتها خالية من تكاليف المدن ، وتظهر سليمة من شوائب الحضارة

أيام ستة أمضيناها هناك ، قصيرة فى مداها ، طويلة فى مبناها ، تمتعنا فيها بجو الصحراء الجاف ، وبلياليها القمرية الحلوة ، ورأينا فيها أشياء كثيرة ما كنا لنرى مثلها مهما تجولنا فى المدن ، أو أمعنَّا السير فى الحقول

تلك الأيام الجميلة ستبقى ذكراها عالقة فى أذهاننا ما حيينا ، فلئن تولت فان أثرها راسخ فى قلوبنا ، ثابت فى نفوسنا ، لأنها غرست فى أفئدتنا الميل الى الصحراء ، وحب التجول فى أنحائها — ذلك الحب الذى حدا بنا فيما بعد ان ننتهز كل فرصة تعرض لنا للذهاب الى الصحراء والتوغل فى احشائها

عدنا للقاهرة ونحن نذوب لهفاً للقيام برحلة أخرى نستطيع فيها

ان نركن الى الطبيعة الساكنة فى الصحراء ، على انه ما كان يدور بخلدنا ، أو يخطر ببالنا ، ان رحلتنا التالية ستكون الى الأديرة الشرقية النائية — أديرة البحر الأحمر وجبال القلالة

ولقد خطرت تلك الرحلة لكل منا على حدة ، وأخذنا الميل لرؤية الأديرة الشرقية كما رأينا شقيقاتها الغربية ، الا أن بُعد المزار وشبح الصحراء المخيف ، وما طبعته اللوحة البيضاء (السينما) فى أفئدتنا من اعتقادٍ بفتك العرب واغتيالهم ، جعل كلا منا يحجم عن ان يحدث الآخر بما يجول بخاطره

ولم يكن بين المصريين من قام بتلك الرحلة لغرض علمىّ ، فترك لنا وصفاً للطريق نستطيع ان نطالعه ، فيرفع عن قلوبنا الوجل ، ويبعد عن نفوسنا الخوف ، بل ليس ثمة من قام منهم بتلك الرحلة لأى غرض خلا الرهبان والبدو ، فلقد حدثنا فيما بعد رهبان تلك الأديرة — ومنهم من قضى فى الدير نصف قرن — انهم لم تكتحل أعينهم بأى مصرىٍّ كان

وحتى رحالة الافرنج فقليل من ذهب منهم الى تلك الأديرة فهو ذا بتلر أعظم الثقاة فى الفن القبطى وتاريخه يقول فى كتابه الذى سطّره عن الكنائس والاديرة القبطية ، بعد أن أطنب فى وصف أديرة وادى النطرون التى زارها عام ١٨٨٣ ، ان أديرة البحر الاحمر بعيدة المزار ، وانه لم تعرض له الفرصة لزيارتها[1] ثم يضيف الى ذلك ان قليلين من الأوروبيين هم الذين استطاعوا رؤية تلك الأديرة[2]

(1) Butler, Coptic Churches vol II p 342
(2) « « « vol II p. 344

فان كان الافرنج ، مع ما لديهم من الوسائل المادية ، ومع مايقدم لهم من تسهيلات ، وما يلاقون من تشجيع ، قد أحجموا عن زيارة تلك الاماكن النائية ، فليس بغريب اذن أن يخشى كلانا أن يفاتح زميله بتلك الأمنية البعيدة

وأخيراً حان الوقت الذى فيه استطاع أحدنا أن يتحدث عن أمنيته فى القيام بتلك الرحلة ، ولكن فى صوت خافت مضطرب ، وما كان أشد اندهاشه عندما لقى تشجيعا غريباً من الآخر ، ووعداً ببذل مافى الوسع لتحقيق هذه الأمنية

ومر شهر يتلوه آخر دون أن نأتى عملا ما ، الى ان قرب وقت العطلة ، فتذكرنا حينذاك تلك الفكرة التى جالت فى مخيلاتنا من زمن ، وقلنا والأمل ضعيف ، فلنسع ولنحاول ، فلقد يكون نصيبنا التوفيق

كان أول ما قمنا به ان أوفدنا صديقاً لنا الى وقف دير انطونيوس بالقاهرة ، حيث قابل أحد الآباء المطارنة ، فما تحدث له بفكرتنا حتى أخذ نيافة المطران يصف له الطريق ومصاعبه ، والسفر ومتاعبه ، ثم استرسل فى تعديد مخاطر الصحراء ، فرجع صديقنا يسدى لنا النصيحة بأن نعدل عن هذه الرحلة ، وأن نقضى أيام العطلة بعيداً عن مخاطر الطريق ، ومشاق السفر ، وأن نمتع أنفسنا براحة الجسم وراحة الفكر

ولكننا ما كنا لنطمع بالراحة الجسدية فى عطلتنا هذه ، بل كان جل همنا ان نحظى بزيارة تلك الأماكن النائية ، لنمتع أعيننا بما فيها من

مناظر وآثار ، ولنستطيع ان نصفها فى كتاب خاص ، فنكون قد قمنا بواجب نحو أمتنا المحبوبة

وفى ذات ليلة قصدنا الدار البطريركية ، وهناك وجدنا عدداً ليس بقليل من حضرات الآباء المطارنة ، وهم يتجاذبون أطراف الحديث

جلسنا بجوارهم ، وقد كان أحدهم على علمٍ بما نريد الاقدام عليه ، فأخذ يشرح لهم أمنيتنا ، فاذ ذاك بدأ كل منهم بدوره يصف الطريق ومصاعبه ، والاخطار المنتشرة فى ارجائه ، والموت المتطلع فى كل جنب من جوانبه

فأخذ أحدهم يحدثنا عن الوحوش الضارية التى كثيراً ما أودت بحياة القوافل السارية ، وحدثنا آخر عن العقارب والثعابين التى طالما فتكت بحياة الكثيرين ، وشرح لنا ثالث شيئاً عن السيول الجارفة ، كيف أهلكت قوافل كاملة ، ثم أبى أحدهم الا أن يصف لنا شديد الحر أثناء النهار ، وقارس البرد طول الليل ، وكأنما أرادوا أن يدخلوا فى روعنا ان كل مقبل على الصحراء هو ولا شك مقبل على الموت ، وانه ان نجا فباعجوبة من أعاجيب القدر

وربما يندهش القارىء اذا علم انه كان من نتيجة هذا الحديث المزعج ، ان صممنا فى تلك الليلة تصميما لاتردد فيه ان نقوم بتلك الرحلة ، مهما اعترضنا من مصاعب ، ومهما أقيم فى وجوهنا من عقبات ، واعتقدنا ان هناك بعض المبالغة والغلو فيما ذهب اليه حضرات الآباء المطارنة من

تقول ، وانهم قد أطلقوا العنان ، لخيالهم ثم أطلقوا ألسنتهم بعد ذلك كى تعبر عن هذا الخيال

ومن تلك اللحظة أخذنا فى الاستعداد للسفر ، واستحضرنا كلما ظننا فيه مايخفف عنا عناء هذه الرحلة ، أوما تكون الحاجة ماسَّة الى وجوده ، فابتعنا أفلام التصوير ، والألواح الحساسة ، وأدوات التحميض والاظهار للحصول على صور الاديرة والمناظر الهامة ، ثم ابتعنا أيضاً بعض الملابس الصوفية وغيرها اتقاء برد الليل ، وبعض الاسعافات الأولية ، كصبغة اليود والزمبوك والكينا ، ولم ننسَ أن نأخذ معنا ترياق الزواحف والعقرب

كان غريباً ان نحضر كل هذا قبل أن نتأكد من الظروف التى ستعرض لنا ، ولكنا كنا قد وطدنا العزم على أمر نريد اتمامه ، واثقين ثقة لا حد لها ، بأننا ما دمنا لا نبغى من تلك الرحلة الا نفع أمتنا ، فاننا لابد واصلون الى غرضنا

ولقد حدث أن قابلنا بعد ذلك المثلث الرحمة الانبا مرقس أسقف دير انطونيوس اذ ذاك ، حال وجوده بالقاهرة ، ولما أعلمناه برغبتنا فى زيارة تلك الأديرة ، سهل لنا مهمتنا وزودنا بنصائحه الغالية ، ووعدنا ببذل مافى وسعه فى سبيل راحتنا

وقبيل سفرنا قدَّر لنا الحظ أن نجتمع بوكيل الدير بالقاهرة فى ذلك الوقت ، المرحوم القمص عبد الملاك المنفلوطى ، الذى أخذ يصف لنا

طريق القوافل بعبارة جذابة طمأنت نفوسنا الوجلة ، فكان بعمله هذا أول مشجع لنا على القيام بتلك الرحلة

☆ ☆ ☆

من القاهرة الى بوش : كان يوم الخميس العاشر من شهر نوفمبر عام ١٩٢٧ هو اليوم الذى اعتزمنا فيه السفر ، فبعد أن أعددنا كل ما كنا أحضرناه لرحلتنا ، خرجنا الى محطة القاهرة قاصدين مدينـة بوش ، فوجدنا بانتظارنا صديقاً لنا بقى معنا الى أن تحرك القطار ، فودعنا وهو على أشد ما يكون من التأثر

أثَّر فينا شعور ذلك الصديق ، وأخذنا نفكر فيما دار بخلده ساعة الوداع ، وهل هو يأمل لقيانا السريع ، أم هو يودعنا الوداع الأخير

وأذ نحن فى هذا التفكير ، رأينا الهواء وقد كان نسيما عليلا ، انقلب الى عاصفة شديدة ، والسماء بعد أن كانت صافية ، امتلأت بشتات السحب القاتمة ، ثم رأينا ونحن بالقطار شرارات البرق تلمع فى الجبل الشرقى بشكل لم نعهد له مثيلاً ، وسمعنا الرعد وصوته يصم الآذان ، ثم ما لبث أن نزل المطر رذاذاً ، فمدراراً ، ثم تحول وصار سيلاً جارفاً ، اكتسح كما عامنا ورأينا بعد ذلك القمم العالية ، واختطَّ لنفسه طرقاً متعددة ، وسال فى الأودية ، وكون بحيرات بلغت مساحتها فى بعض البقاع المائة فدان (١)

استأنا جداً لهذه الصدفة الغريبـة ، لأننا كنا نرجو أن يكون الجو صحواً مدة سفرنا ، وتشاءمنا من هذه الأمطار ، ولو انهـا كانت لفائدتنا كما سنبين ذلك فيما بعد ، فأن الأمطار ، ولو انها تعود ببعض الضرر

---

(١) أنظر تقرير مصلحة الطبيعيات عن شهر نوفمبر سنة ١٩٢٧

فى المدن ، إلا انهـا لازمة للعربان لزوم المأ كل والملبس لأى إنسان

وقد ذكر لنا أحد رفقائنا البدو عن احدى نسائهم ، وقد كانت واقفة على رابية عالية ، ان السيل قد اكتسحها عند نزوله ، وألقاها الى الأرض ، فاما سقطت بدأت تزغرد بدلا من أن تظهر تألمها من سقوطها

أخذنا نرمق هذا المشهد واجمين مذهولين ، أذ لم نتعود أن نرى فى بلادنا ذات الطبيعة الجميلة الهادئة جواً عبوساً كهذا

ولم نُفِق إلا والقطار قد وصل مدينة بوش ، فنزلنا متثاقلين والسماء لا زالت ملأى بالسحب ، والمطر لا زال ينهمر ، فأخذنا نسير قاصدين عزبة انطونيوس ، فوصلناها بعد نصف ساعة نالنا فيها الـكثير من برد الليلة وهوائها الشديد

فلما لقينا الأسقف رئيس الدير حيانا أحسن تحية ، وجلسنا بجواره ننضح عن ثيابنا الماء ، حتى وافت الساعة التاسعة فاستأذنا فى النوم مبكرا لشدة ماقاسيناه من التعب

وفى صبيحة اليوم التالى استيقظنا لنرى العزبة ، فأخذنا نمر فى القصر المعدّ لسكنى الأسقف فوجدناه قصراً محكم البناء به كثير من الغرف الواسعة المعدة لاستقبال الضيوف ، ثم تركناه لنرى الكنيسة الجديدة التى بناها الانبا كيرلس الرابع وأصلحها الانبا باسيليوس الـكبير مطران القدس الأسبق ، فوجدناها جديرة بعظمة بانيها وعظمة مصابحها

خرجنا لرؤية مساكن الرهبـان الذين يعيشون فى بوش بجوار رئيس الدير ، فصعدنا سلما قادنا الى تلك الأبنية ، فألفيناها حجرات ضيقة

تنفتح على ممر طويل ، ويختص كل راهب بحجرة منها

كان الترتيب قد عُمل لسفرنا فى ذلك اليوم فخضر العرب ، وأخذوا المؤونة اللازمة ، ثم اشترينا كثيراً من الاشياء التى كانت تنقصنا ، والتى عرفنا بها الرهبان هناك ، وأصبحنا بذلك على أهبة الاستعداد لرحلتنا

☆ ☆ ☆

وصف عام : وقد صرفنا فى هذه الرحلة ثمانية عشر يوماً كاملة ، قضينا منها اثنى عشر يوماً وسط الصحراء ، حيث قطعنا بين الوديان اليانعة ، والجبال المجدبة ، نحوا من الخمسمائة كيلو متراً ، وأمضينا الباقى فى الأديرة بين الأماكن الاثرية ، وفى وسط الآباء الرهبان

وأيام الصحراء كأيام الدير ، تتشابه فى مجموعها بنظامها وترتيبها ، وان اختلفت فى بعض دقائقها ، ولذا نرى أن نأتى هنا بوصف عام لأيام الصحراء وأيام الدير حتى يغنينا ذلك عن مشقة الوصف الدقيق لكل يوم من هذه الأيام

نستيقظ فى الصحراء والدنيا حالكة الظلام ، والنجوم لم تزل بعد فى صفحة السماء ، وذلك لان النسيم المتنقل فى الجو الخالى ، لا يمنعه سقف ، ولا يقف دونه جدار ، يحمل برودة قاسية لابد ان يصل للمرء شئ منها مهما زاد فى الاغطية وأحكم فى لفها — نستيقظ مبكرين فنجد البدو قد سبقونا فأزالوا ما تبقى من وقود المساء ، وجمعوا حطباً كثيراً أذكوه ناراً حامية ، فنسرع والاغطية حولنا الى اللهب لعل حرارته تخفف بعض البرودة التى نشعر بها

ويكون أول أعرابى نفض رداءه وأوقد النار ، قد حرص على وضع ابريق الشاى وسط النار ليتناوله الجميع عند يقظتهم ، فعندما يكتمل المجلس أو تلتحم حلقة النار كما يقولون ، يتقدم هذا المناول أول فنجال لأكبر الحاضرين سنا ، ثم يعطى الباقين بعد ذلك ، فيتناوله الجميع بلهفة شديدة كى ينشطهم ويطرد البرودة عنهم

وقد نأتهم مع الشاى قليلا من الخبز يدفع عنا من شدة الجوع وربما اكتفينا بذلك حتى طعام الظهر

وفى نحو الساعة السادسة تبتدىء سهام النور تطعن فلول الظلام منبئة بأوبة الشمس السريعة ، بعد أن جاهدت كثيراً فى ساعات الليل الطويلة — حتى اذا ماقُدِّر لها النصر على أعداء النور ، ظهرت وجلال الانتصار بادٍ عليها ، فتستيقظ اذ ذاك الكائنات ، وتنتعش المخلوقات ، وتنفض الدنيا بأجمعها عيشة الخنوع والكسل لتستقبل حياة الجد والعمل

ولئن كان الليل موتاً فالنهار حياة — ومافضل النهار على الليل الا بوجود الشمس فيه ، فهى لذلك رمز الحياة فى العالم ، بها نحيا وبغيرها نموت — وقديما أراد الفيلسوف العظيم اخناتون فرعون مصر توحيد الآلهة وعبادة الاله الأعظم ، فما وجد له مظهراً أعظم من قرص الشمس

وماتبزغ الشمس فى الصحراء ، حتى تبتدئ البرودة تهرب من وجه أشعتها ، فننشط وينشط معنا البدو ، ويأخذون فى تحميل الجمال ، وحزم الامتعة ، وما أسرعهم فى ذلك ، فلقد يستطيع اثنان أو ثلاثة منهم تحميل

جمال عديدة فى وقت لا يتجاوز العشر الدقائق

نمشى أمام الجمال وقد نجرى قليلا حتى نزيد من نشاطنا ، ونبقى على هذه الحال ، ساعة أو ساعتين ، ننعم بالجو المعتدل البديع

ولكن فى نحو الساعة التاسعة تبدأ الحرارة ترتفع والجو يسوء — وكم يبدو السير اذ ذاك متعباً شاقاً ، حتى ليضطر الانسان إلى تسنم ظهر الأبل رغم تألمه من حركتها الاضطرادية ، وكم تظهر الساعات طويلة شاقة ، حتى ليود الانسان أن ينتهى سريعاً إلى كهف فيستريح فيه رغم حاجته إلى الاسراع فى السير

وفى الواقع ليست هناك جهة كالصحراء يختلف فيها الطقس هذا الاختلاف البين ، فمن حرارة فى النهار قد تتعدى الخمسين درجة فى الأيام العادية ، إلى برودة فى الليل قد تنزل إلى ما تحت الصفر

على أن برودة الليل يمكن ملافاتها باذكاء النيران أو بتناول المشروبات الساخنة أو بالعدو البطىء ، أما الحرارة فمن الصعب تخفيف تأثيرها أذ لا شجر فى الصحراء يستظل به المسافر ، ولا حاجز يحجب عنه وهج الشمس

ولهذا السبب كان السير فى الشتاء أخف بكثير من السير فى الصيف — فلشدة الحرارة يضطر البدو إلى السريان مدة طويلة فى الليل ، حتى اذا ما اشتد الحر حول الساعة التاسعة حطوا رحالهم ، وناموا ملء جفونهم — وأذ تجنح الشمس نحو الغروب ، وتأخذ الحرارة فى الهبوط ، عاودوا سيرهم من جديد

أما نحن فقد كان حظنا جميلا للسفر فى الشتاء ، أذ لم نكن لنضطر إلى السير ليلا ، بل كنا نمشى طول الصباح إلى الظهر أو ما بعده ، ولا نشعر إلا بقليل من تأثير الحرارة ، حتى ننتهى إلى كهف صغير نحتمى به لنطهى طعامنا ، ونتناول غذاءنا ، وننام حتى تستريح أجسامنا

نستيقظ بعد ذلك فى نحو الساعة الثانية ، فتبتدىء عملية الحزم ، ثم نركب الجمال لشدة الحر ونسير ببطء ، وكلنا صامت شارد الفكر ، وإذ تنحدر الشمس إلى المغيب ويهب النسيم العليل ، تنتعش الأجسام ، ويأخذ الجميع يتمتعون بالجو المعتدل ، متناسين ما نالهم من وهج الشمس وشدة الحر

وتأتى ساعة الغروب ، فنرى حولنا السماء تغشاها سحب خفيفة ، يصطبغ بعضها بلون أحمر وردىّ وبعضها الآخر بلون بهيج بنفسجىّ ، ونشاهد أمامنا منظراً لجهاد الحياة ضد الموت ، والنور ضد الظلمة — منظر الشمس بعد أن تملكت على الأرض طول النهار ، تناضل ضد جيوش الظلمة التى تأبى إلا أن تتمتع أيضاً بقسطها من الحياة

تغيب الشمس مرسلةً من ورائها سليلها القمر كى ينوب عنها فى حراسة الكون ، فتستنير البسيطة بنور ضئيل ، وتحط القافلة رحالها ، وتُنزل الاحمال من فوق الجمال ، وتُمد الفراش ونمتد نحن فوقها ، فنشعر بآلام الجسم كلها ، ولا نستطيع أن نتناول شيئاً من الطعام رغم جوعنا إلا بعد أخذ قليل من الشاى يسكن هذه الآلام ، وبعد تناول الشاى والعشاء نستمر مستيقظين ، وقتاً طويلا أو قصيراً ، ننصت فيه إلى أزجال البدو وأغانيهم

وكم للبدو من أزجال حلوة وأغانى شيقة لها تأثيرها الخاص وسط السكون المتملك على الصحراء ، وفى تلك العزلة التى يشعر بها المرء هناك ، فمن أغنيات الحب ، إلى قصائد الشجاعة والكرم ، إلى أزجال الحنين للقاء الأحباء ، يتسمعها المرء والطبيعة سافرة الوجه أمامه ، والبدر يسطع على الكون فيملأه بهاء ورونقاً

والقمر فى المدن لا يهتم به أحد ، فهو فى أوجه أو فى محاقه سواء ، فلقد أغنتنا عنه مصابيح الكهرباء ، أما فى الصحراء فهو كل شىء ، إذا ما ظهر بعد الشمس امتلأت صفحة الكون به ، وأصبح الكل شادياً مترنماً تملأه الغبطة والسرور

هناك تكبر الروح ، ويتضاءل الجسم ، وتتلاشى القوة البدنية ، وأى مكان أنسب من الصحراء تسبح فيه الروح وتكبر ، وأين الجسم وسطوته فى وسط محاط بالأخطار من كل جانب ، وأين القوة البدنية واعتزاز النفس بها فى مكان لا تغنى فيه القوة فتيلا

فالصحراء ، كما يقول الرحالة أحمد حسنين بك ، كالغانيات شيمتها الغدر فلقد تريك بعد تمام الرضا غاية الغضب ونهاية القساوة ، فهى على ما فيها من مناظر خلابة تستهوى النفوس ، وسكون شامل يملك المشاعر محفوفة بالمخاطر التى يكفى أقل واحد منها ، ان انتاب المرء ، أن يقضى عليه لا محالة

فهناك الوحوش الضارية يتمثلها الانسان كامنة فى مغاور الجبال وكهوفه وسط النهار ، حتى إذا ما أقبل الليل التحفت بردائه ، وسرت باحثة فى البادية عن فريسة يومها

وهناك الثعابين والزواحف يتخبأها المرء مختبئة فى كل حفرة ، وفى كل جحر ، ترنو لايذاء كل من يعترض سبيلها ، أو يقف فى طريقها

وإلى هذا يتحفز خطر داهم قد يقضى على القافلة بأسرها ، ذاك هو وجود بعض قطاع الطرق أو بعض أفراد قبيلة معاديه ، كامنين لها فى بعض المغاور ، ليوقعوا بها حال مرورها

ولقد يكون بين البدو المرافقين المرء من له نفس دنيئة وأخلاق وضيعة تسول له الغدر والخيانة

وهناك خلا هذا أخطار الطبيعة الثائرة ، فمنها العواصف الشديدة التى قد تلقى بالمرء بعيداً ، والسيول الجارفة التى ربما اكتسحت القافلة بأكملها ، ودفعتها أمامها مسافات طويلة ، أضف إلى ذلك قلة المياه وندورتها ، وعدم تعيين الطرق وسهولة الضلال فيها

والانسان ضعيف ، إذا ما رأى نفسه محاطاً بأنواع كثيرة من الأخطار لا يستطيع لها دفعاً ، أودع حياته للقوة الالهية ، معتقداً أنها ، لابدَّ آتية به إلى برِّ السلام

ولن تجد جهة كالصحراء تضطرك أن تسلم نفسك للخالق ، فالأخطار منتشرة بين أرجائها ، والموت يتطلع اليك فى كل ناحية من نواحيها

هذه المخاطر وغيرها يتمثلها الانسان كامنة فى الصحراء ، منتشرة فى جوانبها ، ولكنها فى الحقيقة قليلة الوجود نادرة الحصول

أما عن الحياة فى الأديرة فانها تشبه فى كثير من الوجوه الحياة خارجها ، إذ أن وجود الأديرة وسط الصحراء جعل المعيشة فيها

لا تختلف كثيراً عن معيشة البدو ، فالرهبان يستيقظون مبكرين قبل شروق الشمس بوقت طويل ، ويجهزون طعامهم بأيديهم ، ويدبرون بقية أمورهم بأنفسهم غير مستعينين بأحد ، ثم ينامون مبكرين كما يفعل البدو تماماً

وقد قضينا بالديرين ستة أيام كنا نجتمع فيها بالرهبان فى معظم الأوقات، فنصلى عند ما يصلون ، ونرقبهم وهم يقومون بأعمال الدير المختلفة، ثم نجلس وإياهم بعد العشاء نتحادث ونتناقش

ففى كل يوم من تلك الأيام، كنا نستيقظ فى نحو الساعة الرابعة على صوت الجرس المؤذن بالصلاة ، فنقوم متساندين ، ونسير حيث الطريق العمومى ، فنرى أمامنا أشباحاً سوداء لا نكاد نتبينها لعدم كفاية الضوء ، ولشدة أحكام الأغطية حول الوجوه ، فنمر من بينها حتى ننتهى إلى الكنيسة ، فنجد الرهبان، وقد اصطفوا بجوار إحدحواجزها، يستند كل منهم على عصاه الغريبة الشكل

وهذه العصا أو العكاز كما يسمونها ، ما هى إلا جزء مقطوع من أغصان النخيل يبلغ طوله متراً ونصف ، تعلوه قطعة صغيرة من الأغصان أيضاً مثبتة من وسطها فى مستوى رأسى مع الجزء الأول — ويتكىء الراهب على هذه العصا فى صلواته الطويلة بأن يضع ذقنه على القطعة الافقية ممسكاً طرفيها بكلتا يديه

وربما كان هذا تشبهاً بالقديس أنطونيوس الذى كان يستعمل أمثال تلك العصى ، فأغلب صوره المرسومة فى مصر، والتى ترجع إلى عصور مختلفة ،

تمثله مستنداً على عكاز بهـذا الشكل — إلا أنه من الغريب أن صوره التى رسمت فى أوروبا لم يراعَ فيها الاستعمال الاصلى للعكاز ، فرسم بشكل صولجان ممسكاً به القديس ولـكنه لا يستند عليه ، وكان الأوْلَى المحافظة على الشكل الاصلى

يقف الرهبان مرتكزين على عصيهم فيتلون صلوات الساعة السادسة والتاسعة ، فاذا كان هناك قداس بعد ذلك ابتدأوا فيه نحو الساعة الخامسة والنصف وفرغوا منه قبل الساعة السابعة صباحاً ، أى عند ابتداء القداسات عادة فى المدن

وبعد الصلاة كنا نخرج جميعاً ، فنذهب بمفردنا لتناول طعام الافطار ، أما هم ، فلأنهم لا يأكلون مبكراً ، كانوا يذهبون لتدبير شؤونهم

ينقسمون بعدئذ إلى جماعات ، فمنهم من يذهب الى الحديقة لبذر البذور أو غرس الاشجار وتشذيبها أو رى الحديقة ، ومنهم من يذهب إلى الطاحون الحجرى لطحن الغلال ، ومنهم من يذهب لعمل الخبز ، وبالجملة فكل راهب يذهب للقيام بالعمل الموكول اليه ، وليس هناك بينهم من هو معفىً من العمل خلا الشيوخ الذين لا يستطيعون القيام بشىء سوى ما يختص بأنفسهم

أما بعد الظهر فلا يكون لديهم عمل فى أغلب الاحيان ، فكنا نستصحبهم لأخذ صور الدير وأبنيته ، ورؤية الأجزاء الهامة به

وقبيل الغروب كنا نجتمع بهم فى الكنيسة لتلاوة الصلاة المسائية ، حتى اذا ما أقبل المساء ، ذهبنا الى المكان المعد للضيوف حيث نستريح قليلا ،

ونتناول طعام العشاء ، وبعدها يتوافد علينا الرهبان فنبقى معهم الى ساعة متأخرة من الليل ، نتحادث ملياً فى شتى المواضيع الدينية والمدنية

ولقد أمكننا بفضل ماقضينا معهم من مدد طويلة فى الديرين وفى القاهرة أيضاً، أن نعرف شيئاً كثيراً عن آدابهم ومقدار تدينهم وعلمهم، مما سنذكره مفصلا فى الباب السادس

☆ ☆ ☆

ثمانية عشر يوماً قضيناها فى تلك الرحلة شاهدنا فى أثنائها كثيراً من المناظر الطبيعية الخلابة، والأماكن الاثرية الهامة، واستفدنا صحةً وقوةً لاجسامنا ، وتوسيعاً واستزادةً لمداركنا ،وكان علينا بعد ذلك أن نقدم للقراء وصفاً لرحلتنا ، لعل هذا الوصف يغرى الذين فى مقدورهم السفر، للذهاب والتمتع بمثل هذه الرحلة، ولعله أيضاً يستطيع أن يعطى الكثيرين ممن يتعذر السفر عليهم ، صورة مصغرة لتلك الجهات النائية، وأسلوب المعيشة فيها

واننا نتقدم بهذا الكتاب الى القراء ، واثقين تمام الثقة ان تقديرهم لجهودنا فى اخراج أول كتاب خاص بالأديرة القبطية، سيكون لديهم أكبر شفيع لنا فيما قد يجدونه فيه من هفوات ؟

القاهرة فى أول يناير سنة ١٩٢٩

حبيب حبشى — زكى تاوضروس

الفصل الأول

الى دير انطونيوس

الطرق المختلفة : كان أمامنا للوصول الى دير انطونيوس، عدا الطريق الذى سلكناه ، طرق كثيرة تختلف طولا وقصراً ، وسهولة وصعوبة ، بعضها قديم متروك ، والآخر حديث منتجع

فقديما كانت تسير القوافل مبتدئة ببلدة بياض — وهى قرية صغيرة لا تزال قائمة على الشاطئ الأيمن للنيل ، مواجهة لمدينة بنى سويف — ومن تلك البلدة يتفرع طريقان نصفهما نقلاعن ڤانسليب

« أولهما يسميه العرب الطريق القبلى ، والثانى الطريق البحرى وذلك بالنسبة لاتجاههما للبلدة التى يبدآن السير منها

فالطريق البحرى هو الأقصر والأكثر انتجاعا ، والذى تتخذه القوافل فى أغلب الأحيان ، فتسير فيه على شاطىء النهر وقتاً ما ، ثم تنعطف جهة اليمين فى الصحراء حتى تبلغ مكان الجِبّ ، حيث توجد أول بئر كوّنتها الطبيعة فى صخرة ثابتة تجتمع فيها مياه الامطار الصافية التى تفوق مياه النيل عذوبة ، وعلى مسيرة يوم من هذه البئر توجد بئر أخرى تقع شمال الطريق عند سفح جبل عالٍ يدعى الخُليل الا أن ماءها قذر آسن مختلط بالسمار ، وعلى مسافة قليلة من تلك البئر توجد عين ماء [1] يعرفها الرحالة

(١) يقصد بها عين العريضة التى سيأتى ذكرها فيما يلى

جيداً ، لأنها بجوار مسكن رجل مشهور يدعى عيد البدوى ، ولكن القوافل لا تذهب اليها الا اذا كانت فى حاجة الى الماء، وذلك لبعد موقعها عن الطريق الأصلى،فهى لذلك تأخذ كفايتها من ماءالبئر الثانية ، ثم تنحدر الى الشمال وتذهب مباشرة الى الدير

أما الطريق القبلى فيتجه من بياض الى الجنوب الشرقى ، وبعد مسيرة يوم ونصف ينعطف الى الشرق ، وهذا الطريق خال من الماءوالأشجار والمساكن والحشائش، ولذلك فمن الضرورى أخذ كمية كبيرة من الماء تكفى لاتمام الرحلة بأكملها»[1]

فالطريق الأول كما يقول ڤانسليب ، كان الأكثر انتجاعا ، الا أن بعضاً من رحاله الافرنج كان يفضل الطريق الثانى رغم طوله وصعوبته وعدم توفر المياه والأشجار به ، وليتحاشى مقابلة البدو ولينتقى شرهم

وهناك طريقان آخران حديثان ظهرا كأثر من آثار المدنية الحاضرة ، ونتيجة لماسببته الاختراعات الحديثة من اختصار الزمن ، أولهما طريق البواخر والثانى طريق السيارات

أما طريق البواخر فيمكن لراغب السفر به ان يستقل من السويس احدى بواخر مصلحة الحدود ، التى تسير مرة فى كل شهر لتزويد موانى البحر الأحمر بالمؤونة اللازمة ، وبعد ان يسير يوما واحداً يرسو فى مرسى ثامت — احدى نقط الشرطة التابعة لمصلحة الحدود — ومنها يركب الجمال

(1) Vansleb : Egypt p. 179 — 80

ويقطع المسافة الى دير انطونيوس فى يوم واحد ، والمسافة الى دير بولا فى نصف يوم فقط

أما طريق السيارات فهو أسهل الطرق وأفضلها ، اذ يستطيع المسافر أن يقوم من القاهرة فيصل الدير بعد عشر ساعات على الأكثر ، وذلك بأن يسير محاذياً للنيل الى بلده الكريمات ، ومنها ينحدر إلى الجنوب الشرقى فى وادى رُميله فيسير فيه مسافات طويلة حتى وادى سنور ، حيث يقابل طريق القوافل فيتجه معه ناحية الشرق لمسافة خمسة عشر كيلومتراً ، ثم يتركه حتى يتحاشى الطرق الوعرة ، ويتصل به مرة أخرى فى وادى عَرَبَة ، حيث يسير معه مسافة طويلة ، ولا ينفصل عنه الا قبل الدير بنحو ثلاثة كيلو مترات ، ليتجنب المنخفضات والمرتفعات الموجودة فى طريق القوافل .

ولقد حدثنا كثير من الرهبان عن شخص كان يخرج بسيارته من القاهرة فى ظهر يوم الخميس من بعض الاسابيع ، فيبلغ الدير فى مساء اليوم ذاته ، وهناك يقضى ليلته ويبقى الى منتصف يوم الجمعة ، ثم يقوم من الدير فيصل القاهرة بُعَيْد المساء — وهذا يبين الى أى حد استطاعت السيارات أن تُقَصِّر المسافة وتختصر الزمن

كان أمامنا كل هذه الطرق وكان من السهل علينا أن نتخذ أقصرها وأسهلها ، الا أننا فضلنا أن نسلك الطريق الذى يتخذه الرهبان عادة فى ذهابهم الى الدير ونزولهم منه ، حتى نستطيع أن نرى بأعيننا ، ونلمس بأيدينا ، تلك المصاعب التى يقاسونها من جرّاء السفر ، ولنمتع أنفسنا فى الوقت ذاته

بجمال الصحارى والوديان والجبال

بدء الرحلة : قمنا من بوش الساعة الثالثة بعد ظهر يوم الجمعة قاصدين اجتياز النيل ، فوصلنا الشاطىء الساعة الرابعة والنصف مجتازين فى طريقنا بلدة الشناوية ، وهناك على ضفاف النهر جلسنا بصحبة راهبين أتيا معنا لتوديعنا ، فأخذا يصفان لنا الطريق وجمال السير به فى ذلك الفصل من السنة

جلسنا قليلا معهما، فخطر لنا قبل ان نعبر النيل للشاطىء الآخر أن نبعث بخطابات لأقاربنا وأصدقائنا ،فكتبنا لهم عدة رسائل تطمئن كل من يطلع عليها، وقد وصفنا لهم الطريق بقربه وسهولته ، حتى نرفع عن نفوسهم ثقل الاهتمام والمشغولية من أجلنا

ودّعنا الراهبين حينما أقبلت مركب من الشاطىء الآخر شحنّا بها أمتعتنا، ثم صعدنا اليها بعد أن القينا نظرة وداع على الحقول الخضراء التى تلاصق النيل

أخذنا نجدّف ونحن بالمركب مدة طويلة لا تقل عن ساعة ونصف ، تمتعنا فيها بالنسيم العليل والهواء المنعش

اقتربنا من الشاطىء الشرقى، والليل قد أرخى سدوله، وإذ ذاك نظر كلانا إلى الآخر نظرة حوت معانى كثيرة ، ثم ضغطنا على أيدى بعضنا البعض لنطرد الخوف الذى علق بأذهاننا، فلقد وضعنا أيدينا على المحراث ولا بد أن نصل للنهاية

وفى الساعة السادسة والنصف وصلنا نجع العلما حيث يعيش

البدو الذين يرافقون القوافل إلى الديرين ، والذين كان من بينهم رفقاؤنا فى رحلتنا هذه ، واذ كان مقرراً أن نبيت أول ليلةٍ على ضفاف النهر ، ابتعدنا قليلا عن الشاطىء اتقاء البرودة ، وهناك فوق قطعة أرض مرتفعة أحاط بنا كثير من البدو، وأخذوا يتجاذبون معنا أطراف الحديث إلى ساعة متأخرة من الايل، وقد أمضينا ليلة من أحسن الليالى، لولا البرد القارس الذى عبث بنا قليلا

استيقظنا مبكرين فى الصباح — لأن النائم فى العراء لا يستطيع أن يتأخر فى نومه ، أذ أن أشعة الشمس تنفذ اليه من غطائه مهما أحكم لفَّه ، ولعل هذا هو سر نشاط أولئك البدو — ثم ملأنا قِرَب الماء لأنه كان مقرراً أن نسير أربعة أيام فى الصحراء قبل أن نبلغ دير أنطونيوس ، ولكن البدو لم يهتموا بملء القرب جيداً خلافا لعادتهم ، لأنهم عرفونا أن السيول قد ملأت الوديان ماء ، وأينما حللنا سنجد الماء اللازم لنا ، وقد كانوا فى ذلك صادقين

ولقد حدثنا العرب فيما بعد أن أبواب السماء كانت قد أُغلقت منذ خمس سنوات كاملة ، جفّت فيها المزروعات والحشائش، وانحدر لذلك عرب البادية مكرهين إلى شواطىء النهر ليجدوا بجوارها مرعى لأغنامهم

اليوم الأول : وفى الساعة العاشرة من صباح يوم السبت ١٢ نوفمبر ابتدأت القافلة سيرها مكونة منا ، ومن اثنين من عربان المعازة ، معهم ثلاثة جمال ، وُضع على أحدها المؤونة وبعض المهمات وأُعِدَّ الاثنان الآخران لركوبنا

سرنا فى بادىء الأمر جهة الجنوب الشرقى فى أرض رمليّة تبدو بها آثار أقدام هو طريق القوافل ، وما زلنا نسير على تلك الحالة حتى انتصف النهار أو كاد ، فعرجنا ناحية الشرق وأصبح طريقنا فى ذلك الوقت صخريًا ، فأخذت معالمه تضيع شيئًا فشيئًا كما أخذنا نسير والآكام على جانبى الطريق تحدد سيرنا ، ولم نرَ خلا أماكن موحشة وأراضى جرداء ليس بها نبات بالمرة

لم نتمكن من السير فى ذلك اليوم سوى ست ساعات لسببين أولهما ان الجمال تكون مستوحشة الصحراء فى بدء السير ، والثانى هو كوننا لم نتعود السير بالجمال مدداً طويلة

مررنا فى سيرنا بجبل شيبون ووادى اشيب حتى انتهينا ببقعة رمليّة واقعة بين تلين تدعى التلعة انزوينا فيها ، ووجدنا هناك فى منعطف قريب منا حفرة متسعة فى أواسط الصخور ملأتها الأمطار ماءً صافيًا فشربنا منه واغتسلنا ، ورغبنا بعدئذ أن نستريح ولكن الجوع كان قد نال منا منالا ، فأردنا أن نأكل شيئًا ، فطبخ لنا البدو عدسًا ما لبثنا أن التهمنا منه الشئ الكثير لشدة جوعنا وتعبنا

ولا تسل عن الانقباض الذى استولى علينا عند ما غربت الشمس ، فبعد ان كنا فى سرور وانشراح لهذه الرحلة الغريبة لكثرة ما رأينا من مناظر متعددة ، استشعرنا بالوحدة والعزلة ، فلم نجد وسيلة تخلصنا من تلك الحالة سوى أن نتوسد فراشنا ولمّا يمضِ جزء يسير من الليل

اليوم الثانى : وما تسلل فى الصباح الى داخل أغطيتنا أول شعاع من أشعة الغزالة الذهبية ، حتى نفضنا عنا غبار النوم ، ونفضنا معه الانقباض الذى تملك مشاعرنا تلك الليلة

وبعد ان حزمنا أمتعتنا بدأنا المسير فى الساعة السادسة والثلث تماماً ، وكان طريقنا فى اليوم الثانى مستوياً ولم نرَ أمامنا سوى بقاع منبسطة مغطاة بشظايا من حجر الجرانيت ترتفع قليلا عن سطح الأرض ، وقد استنتج أحدنا ان تلك الأماكن لابد وانها كانت مدافناً لقدماء المصريين فى العصر السابق للتاريخ ، وربما يأتى اليوم الذى يتحقق فيه هذا الاستنتاج

وقد تعبنا كثيراً لشدة الحر فى ذلك اليوم ، فالحر فى النهار كالظلام فى الليل يجعلك تحجم عن الكلام ، وتمسك عن الحديث ، لتتسمع الى درس الصحراء الحكيم — وما درس الصحراء سوى انعقاد اللسان واطلاق الفكر ، فلقد يصرف المجتاز بها أوقاتاً طويلة سارحاً فى عالم الخيال ، ولا يجد من نفسه ميلا لتعكير السكون المتسيطر على أفراد القافلة بأكملها

وكان سمرنا اذا تنكبت بنا المسالك واقضّ بنا الصمت ، محادثة العرب وسماع أشعارهم وأزجالهم التى طالما انشدونا منها الشئ الكثير ترويحاً للنفس

وما وافت الساعة الحادية عشرة ، حتى كنا بجوار أنقاض بناء ضخم تدل آثاره على انه كان احدى القلاع التى شيدها المصريون قديماً ليحرسوا بها القوافل التى كانت تأتى بالأحجار المتنوعة من الجبال المجاورة

وقد استكشف هذا البناء فى سنة ١٩٠٠ م الدكتور مورِتْزْ أمين دار الكتب المصرية سابقاً ، فى ذهابه الى دير انطونيوس

بعد أن شاهدنا هذا البناء انحدرنا تواً الى وادى سنور — أو وادى القط — ويُعدّ هذا الوادى من أكبر الأودية التي مررنا بها ، فهو يمتد من النيل الى مسافات بعيدة فى قلب الصحراء ، وينساب فيه كثير من الأودية الأخرى ، حتى ليبدو فى أيام الأمطار كأنه نهر عظيم لكثرة ما يجتمع فيه من الماء

وقد استرحنا فى هذا الوادى زهاء الساعتين ، أكلنا فيها ونمنا قليلا ثم استيقظنا لنستأنف السير فمررنا فى طريقنا بوديان كثيرة كان أهمها وادى يدعى النشاش أبو نفس وهو منبسط من الأرض تنمو به أشجار جبلية تفوق المتر فى ارتفاعها ، يستعملها البدو كمرعى لابلهم وللاستدفاء بحطبها ابان الشتاء

ترجلنا لرؤية ذلك المكان بناء على طلب البدو رفقائنا ، فرأينا فى وسطه جحراً عميقاً لم نتمكن من رؤية ما بداخله لكثرة ما تراكم عليه من الاحجار والاعشاب ، وقد وضعنا آذاننا على ذلك الجحر فسمعنا صوتاً أشبه بخرير المياه منه بأزيز الرياح ، وقد حاولنا ان نفوز من البدو بتعليل لذلك الصوت فلم نفلح

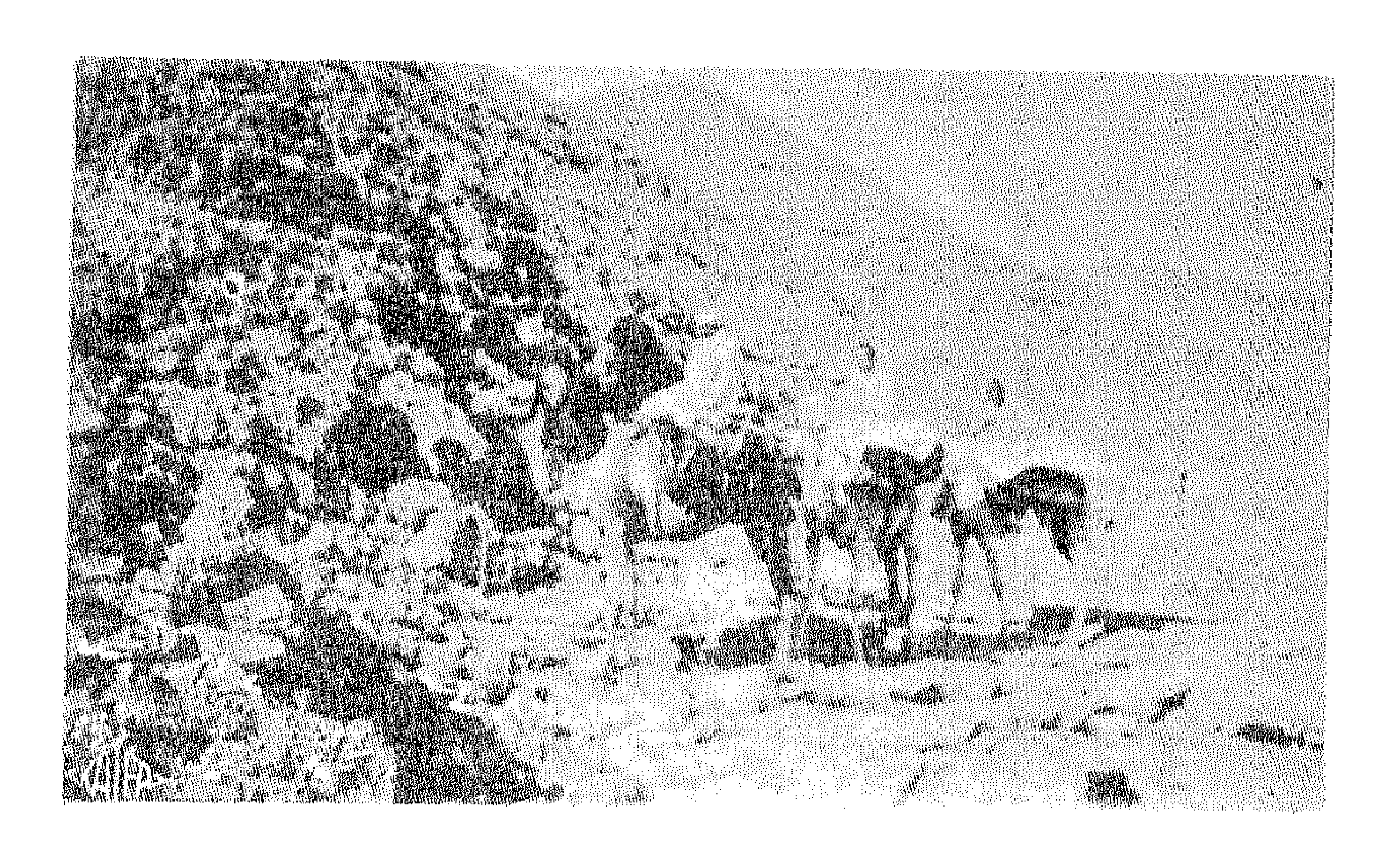
لم نتمكن من حط رحالنا تلك الليله الا الساعة السابعة والربع ، مع ان الشمس كانت قد غربت بعد الساعة الخامسة بقليل ، وذلك لأننا لم نجد مكاناً منزوياً يقينا برد الليل ، فكان علينا أن نسير فى الظلام الدامس نحو

الساعتين ، حيث لا قمر ولا نور يقودنا ، ولولا معرفة البدو الجيدة بتلك البقاع وغريزة الجمال فى تعرُّف تلك الأمكنة لضللنا الطريق

وصلنا بعد تلك المدة الى بقعة تدعى أم دابَّات ، وهناك القينا عصا الترحال حيث وجدنا مكاناً منبسطاً تقع فى شرقه أكمة مرتفعة وقتْنا برد الليل ، وقد وجدنا هناك أعشاباً نامية بكثرة زائدة من نوع الشيح الجبلى ، فاحتطبنا منها الشىء الكثير ، أوقدنا به ناراً واصطلينا

وكان تعبنا فى هذا اليوم عظيما فلقد سرنا نحو العشر ساعات ولم نسترح إلا دفعة واحدة ، لذلك فاننا ما أكلنا حتى توسدنا فراشنا ونمنا نوما عميقاً لم نُفِقْ منه الا فى الصباح حيث شعرنا بالبرد القارص والحمى الخفيفة ، فشربنا لأجلها قليلا من الكينا

اليوم الثالث : استيقظنا فى نحو الساعة الخامسة وبدأنا سيرنا فى



(صورة القافلة وهى تجتاز جبل الخليل)

الساعة السابعة ، وقد تميَّز هذا اليوم عن سابقيه بأن سرنا فيه فى أصعب

جزء من الطريق ، فبعد ان قطعنا سهلا منبسطاً أخذنا نجتاز ممراً ضيقاً يدعى جبل الخُليل ، وهو مسلك لا يزيد فى اتساعه عن الخمسين متراً ، ويقع بين جبلين عاليين ، ويمتد متعرجا الى مسافة طويلة ، وتوجد به الأحجار منتشرة مبعثرة ، وقد اضطررنا أن نترجل زهاء الثلاثة أرباع الساعة كنا فيها ننتقل من صخرة الى أخرى حتى انتهينا منه

وفى الواقع فان هذا الممر لضيقه ولوجود بعض المخابىء به ، يصلح أن يكون مكمناً للصوص وقطاع الطرق

بعد أن تركنا هذا الممر سرنا فى الاتجاه الشمالى الشرقى نحو الساعة والنصف إلى أن وصلنا قبل الظهر إلى عين ماء ، يعرفها كل من سار فى تلك الجهات ، وهى عين العُرَيِّضَة



(القافلة فى العريضة)

وليتصور القارىء كم كان سرورنا عند ما رأينا تلك العين، التى لم نكن

قد رأينا مثلها من قبل، خصوصاً وأن الماء الذى كان معنا كان قد أوشك النفاذ ، فما رأيناها حتى أسرعنا اليها بلهفة زائدة لنشرب ونغتسل

وقد بدت لنا تلك العين ، وهى حافلة بأشجار الابخ والبلح وغيرها ، كأنها واحة صغيرة أو بستان عامر ، فتفيأنا ظلالها ، ونمنا تحتها لنتقى هجير ذلك اليوم ، ولنستريح قليلا من وعثاء السفر

والماء معضله الصحراء وعقده العقد بها ، وربما كانت ضحاياه فى الصحراوات تفوق ضحايا بقية عاديات الطبيعة

وقد يكون فى متناول البعض الاستغناء عن الماء فى المدن يوما أو بعض يوم، أما فى الصحراء ، فاذا علم المسافر بها أن الماء قد نضب طاش عقله، وربما لاقى حتفه من تأثير الوهم وحده

وقد ذكر الاب سيكار أنه « ما بلغ دير أنطونيوس حتى أنزل له الرهبان ماءً من أعلى السور لعامهم العلم اليقين أن من يسير فى الصحراء ويصل اليهم، لا بد وأن يكون فى حاجة ماسّة إلى الماء »[1]

والعيون فى الصحراء نعمة من نعم الله وآية من عجائبه ، فهى تُدِّر الماء على مدار السنة — كذلك بدت لنا عين العُرَيِّضَة فى سفح الجبل المسمى باسمها شبيهة بعين اليشع فى سفح جبل كورنثون بمدينة أريحاء ماؤها عذب، لا يعرف له من مصدر

وفى الواقع فان منظر الأشجار الخضراء اليانعة وسط الصحراء الجدباء المحرقة ، يملأ نفس الانسان تفكيراً فى حياته فى هذا العالم ، وفيما سيقدر له بعد الموت

(1) Miss. dans le Levant V p. 140.

وقد علَّل كثير من العلماء سبب تدين المصريين ، وتمسكهم الشديد بعقيدتهم، فى وثنيتهم أولا ثم فى مسيحيتهم واسلامهم بعد ذلك، إلى مايحيط بهم من اختلاف فى طبيعة الأرض ، حيث توجد حقول تُعَدّ من أخصب راضى العالم بجوار صحراء لا تخرج نبتاً ولا عشباً

وعين العُرَيِّضَة رغم كونها لا تقع فى الطريق ، فان القوافل الذاهبة إلى الديرين أو العائدة منهما تمر فى أغلب الأحيان ، حيث يجلس أفرادها تحت ظل أشجارها مدة من الزمن يستعيدون فيها قواهم

كذلك فعلنا نحن ، فلقد بقينا تحت ظلالها نحو الساعتين ، نمنا فى أثنائهما فشعرنا براحة كادت تُقْعِد بنا عن السير لولا لهفتنا إلى الدير واشتياقنا لرؤيته

تركنا العين أخيراً واتجهنا إلى ناحية الشرق سائرين فى وديان منبسطة ، حتى وافت الساعة الثالثة أذ بلغنا وادى العَرَبَه ، وهذا الوادى عبارة عن منخفض من الأرض يبلغ عرضه نحو الكيلو متر، ولكنه طويل جداً لا يدرك البصر مداه ، وقد علمنا أن القوافل التى تسير بين قنا والسويس تمر بهذا الوادى

ويبدو هذا الوادى أخضراً يانعاً خصوصاً فى فصل الربيع ، حيث تزهر به نباتات وشجيرات كثيرة ، أهمها أشجار الحنظل ذات السيقان الممتدة على الأرض والأثمار الشبيهة بالبرتقال

وللأشجار الجبلية عند العرب أسماء غريبة لا يتسع المجال لذكرها ،

وهم يعرفون كيف يستخدمونها كأدوية للأمراض المختلفة

وقد أرجع كثير من رحالة الأفرنج أصل تسمية هذا الوادى إلى أصول غريبة نوردها هنا على سبيل التفكهة ، فلقد ذكر ڤانسليب « أن الوادى كان فى قديم الزمان مسكناً لكثير من المتوحدين الذين كانت تأتيهم المؤن على عربات »[1]

وذكر الأب سيكار أن « الفراعنة والفرس ، ومن بعدهم اليونان خلفاء الاسكندر ، ثم الرومان فى سيطرتهم على مصر كانوا يجابون من جبال القلالة القريبة من الوادى كميات كبيرة من الرخام يحملونها على عربات تمر فيه »[2]

وكلا التعليلين مبنى على مجرد خيال ، اذ أن المؤن التى يحدثنا عنها ڤانسليب ، والأحجار التى كان يجلبها الملوك كما يقول سيكار ، يستحيل حملها على عربات ، وذلك لأن المسافة التى تفصل تلك الجهة عن النيل طويلة جداً وقليلة الآبار ، فضلا عن أن بها كثيراً من المرتفعات والمنخفضات التى يصعب معها جر العربات

ولذلك فالتعليلان لا يرتكنان على حقيقة ثابتة ، وكل ما فى الأمر أن هذه تسميات اصطلح عليها البدو وتوارثوها ، والأغلب أن ليس لها أصل ثابت ، وإن كان لها أصل فقد ضاع من زمن بعيد ، وإلا فبماذا نعلل أسماء الأودية الكثيرة التى مررنا بها ، والتى لم نسرد أسماءها خوف الملل والسآمة ؟

(1) Vansleb, Egypt. p. 181

(2) Miss. dans le Levant V p 160

وهناك على مقربة من هذا الوادى يوجد آخر يدعى وادى اصخر يسكنه كثير من البدو، لأنهم يجدون به مرعى لابلهم ومواشيهم لم نستطع رؤية هذا الوادى الأخير، لا فى ذهابنا ولا فى عودتنا، لبعده عن طريقنا

ويقول المسيو جرانجر إن بهذا الوادى « انقاض لثلاثة أديرة قديمة تدعى دير بردع ودير بخيت ودير حنا »[١]

أما عن الدير الأول، فلقد أخبرنا الرهبان بوجوده، فهم يرونه فى ذهابهم سنويا إلى عين بردع لاحتطاب ما يحتاجون اليه من النباتات الجافة

ودير بخيت يحدثنا عنه شستر[٢] أيضاً إلا أن مكانه لا يعرف بالضبط ، والأغلب أنه كان مشيداً بجوار عين بخيت الواقعة عد سفح جبال القلالة البحرية

والدير الثالث، هو دير حنا الدَرَجى لا زالت توجد بقاياه بجوار أحد العيون الطبيعية المسماة بذلك الاسم ، والواقعة بقرب شاطىء البحر الأحمر، وهو لذلك بعيد عن وادى اصخر بخلاف ما يقول جرانجر ، ولقد جاء فى كتاب الخطط التوفيقية أنه يوجد « فى جنوب مدينة السويس مما يلى الغاطس والمينا محل يقال له غب البوص فيه فنار يسمى فنار زنوبيه ، ويليه محل يقال له دير الدراج به العين النابعة فى الجبل »[٣]

ولقد بُنى بجوار مكان هذا الدير فنار يدعى فنار أبى الدرج نسبة اليه

---

(1) Granger, Voyage en Egypte. P. 106
(2) Chester: Coptic Deyrs. p. 12
(٣) الخطط التوفيقية الجزء الثانى عشر ص ٧٥

وليس معلوما وقت خراب تلك الأديرة ، ولكن المرجح انها خربت مع ديرى انطونيوس وبولا عام ١٤٨٤ م ، ولم يُعاد اصلاحها بعد ذلك لقلة الرهبان .

أخذنا بعد ذلك نجتاز وادى العربة فى رمال مبللة ليس فيها أثر لطريق القوافل ، وليس أدل على صعوبة السير فى تلك الجهة من ان العرب أنفسهم يجدون مشقة كبرى فى السير فيها ، ولولا انهم يضعون أعينهم أثناء السير على النتوء الجبلى المشيد بأسفله دير انطونيوس لضلوا الطريق .

وما زلنا فى سيرنا حتى وصلنا فى مغيب الشمس الى بقعة تدعى أبو خشيبة أمضينا بها ليلتنا ، وتلك البقعة لا تبعد عن دير انطونيوس الا بمسيرة أربع ساعات — لذلك لم نهتم بالاستيقاظ مبكرين لقربنا من الدير

ما هو شكل الأديرة وما هى محتوياتها ، وما هى حالة أولئك الرهبان الذين يعيشون فيها ، وكيف يتكبدون مشاق السفر أياماً طوالا للوصول اليها ، كل هذه كانت ملخص مناقشاتنا تلك الليله ، وما توسدنا فراشنا حتى كثرت الأحلام ، شأن من يقدم على شىء غير مألوف ، ولا غرابة فى ذلك فلقد كنا خالي الذهن من كل شىء يدل على تلك الأديرة

اليوم الرابع : بدأنا صباح اليوم الرابع الساعة السابعة والربع ميممين شطر دير انطونيوس ، فما سرنا إلا قليلا حتى بدت أمامنا اكمه سوداء — والأكمه فى صحراء العرب يدعونها عُجره ، بخلاف صحراء ليبيا فانهم يطلقون عليها اسم قارة

ظهرت لنا تلك الأكمة صغيرة فى مبدأ الأمر ، ثم تزايدت شيئاً فشيئاً حتى صارت جبلا شاهقاً ، وهـذه الأكمه السوداء تدعى قُليب الراهب ، وهى تقع على مسيرة ساعتين ونصف من الدير ، وقد أطلقوا عليها ذلك الاسم كما يقولون ، دلالة على رسوخ قلب الراهب وثباته فى إيمانه ، وبعضهم يقول على سبيل الفكاهة ، انها سميت كذلك لأنها سوداء كقلبه

تركنا هذه الأكمه خلف ظهرنا ، وأخذنا نسير فى وادٍ متعرج يدعى وادى الدير ، وقد رأينا به آثار الأمطار الغزيرة التى تساقطت مؤخراً ، وقد اختطت لنفسها طرقاً منحوتة مكتسحة الأتربة والرمال أمامها .

مررنا أخيراً بما يدعى رِجم الخواجه ، وهو عبارة عن أكوام صغيرة من الحجارة تعين النقطة التى يبدو فيها لأول مرة الدير بأكمله جلياً للعين المجردة ، وقد أخذنا من بعده فى الصعود تارة والهبوط أخرى ، والدير أمامنا يظهر ويختفى ، حتى كانت منتصف الساعة الأولى بعد الظهر ، حيث وقفنا بباب الدير

وقفنا بباب الدير صامتين كأن على رؤوسنا الطير ننظر الى تلك الأبنية الضخمة التى كان مبعثها فكرة الرهبنة والزهد ، فألفيناها أشبه بالقلاع والحصون منها بأمكنة العبادة ، فلا نوافذ ولا كُوى ، بل كل ما هنالك باب صغير ينفتح فى أسوار عالية ، تزيد فى ارتفاعها عن الاثنى عشر متراً ، ويربو سمكها عن النصف قصبة كما رأيناها بعد ذلك

وقفنا خاشعين أمام تلك العظمة التي ينبعث ظلها من ذكرى أولئك الذين تركوا عن طيب خاطر الدنيا وآمالها الحلوة ، مضحين بحياتهم على مذبح الخالق ، ضاربين للعالم أعظم مثل للارادة الحديدية والتضحية العالية — ذلك المثل الذى نسج على منواله الالوف الكثيرة ليس فى مصر فقط ولا فى الشرق ، بل فى العالم أجمع

وقفنا أمام هذا البناء الشامخ وقد اطمأنت نفوسنا لوصولنا إلى غرض قضينا للوصول إليه أياما طويلة ، ذقنا فيها بعض الآلام والاتعاب

أردنا الدخول للدير وحب الاستطلاع يملأ نفوسنا ، فتقدم أحد رفقائنا البدو ، وجذب حبلا طويلا يتدلى من منارة عالية وينتهى من أعلى بجرس كبير ، وقرعه قرعات متوالية تنبيها للرهبان من الداخل

أخذ صوت ذلك الجرس يطن صداه فى تلك المجاهل الواسعة ، ويعكر صفو ذلك السكون المخيم ، ولكن سرعان ما تضاءل ذلك الصوت واستعادت السكينة سلطانها

انتظرنا وقتا لا يزيد عن الخمس الدقائق رأينا من بعده راهبا ، وقد اعتلى السور ليرى القادمين ، فما وقع بصره على قافلتنا حتى خفّ إلى اخوانه يحمل لهم بشرى مجىء بعض الزائرين ، وما كان أسرعهم بعد ذلك فى ارتداء ملابسهم ، إذ لم تمضِ خمس دقائق أخرى حتى سمعنا صوتا خشنا هو صوت افتتاح الباب

الفصل الثانى

دير انطونيوس

نظرة عامة :

موقع الدير : يقع دير انطونيوس فى سفح جبل القلزم أحد سلسلة جبال القلاله القبلية ، فى أسفل رابية عالية تطل على البحر الأحمر وعلى جبال سيناء ، عند خط عرض ٥٥َ ٢٨ْ شمالا وخط طول ٢١َ ٣٢ْ شرقا ، على مسيرة ثلاثة أيام من النيل ويوم واحد من البحر الأحمر ، وهو مشيد على العين التى كان يستقى منها القديس وعلى مقربة من المغارة التى كان يعيش فيها

المساحة : يُعَدّ هذا الدير أكبر الأديرة العامرة الآن للاقباط الارثوذكس ، اذ بينما نجد ان مساحة أكبر الاديرة فى وادى النطرون لا يزيد عن الفدانين والنصف ، وان مساحة دير بولا نحو الخمسة أفدنة ، نرى ان هذا الدير يزيد فى مساحته عن الثمانية عشر فدانًا

ولكنه لم يكن بهذا الاتساع قديمًا ، فان مساحته لم تتعدَّ أربعة أفدنة قبل أيام يستنيان فى منتصف القرن السادس ، كما انها لم تبلغ السبعة أفدنة قبل الاصلاح الاخير فى منتصف القرن التاسع عشر

وقد ذكر بتلر فى كتابه ، الذى كتبه بعد سنة ١٨٨٠ عن الكنائس القبطية ، أن مساحة هذا الدير ستة أفدنة فقط[1] وقد نقل هذا عن ڤانسليب

(1) Butler, Coptic Churches vol II p 344

الذى زار الدير فى القرن السابع عشر ، وظاهر ان هذا كان صحيحاً فى أيام الثانى حيث لم يكن قد بنى السور الاخير ، أما فى أيام بتلر فهو خطأ من غير شك

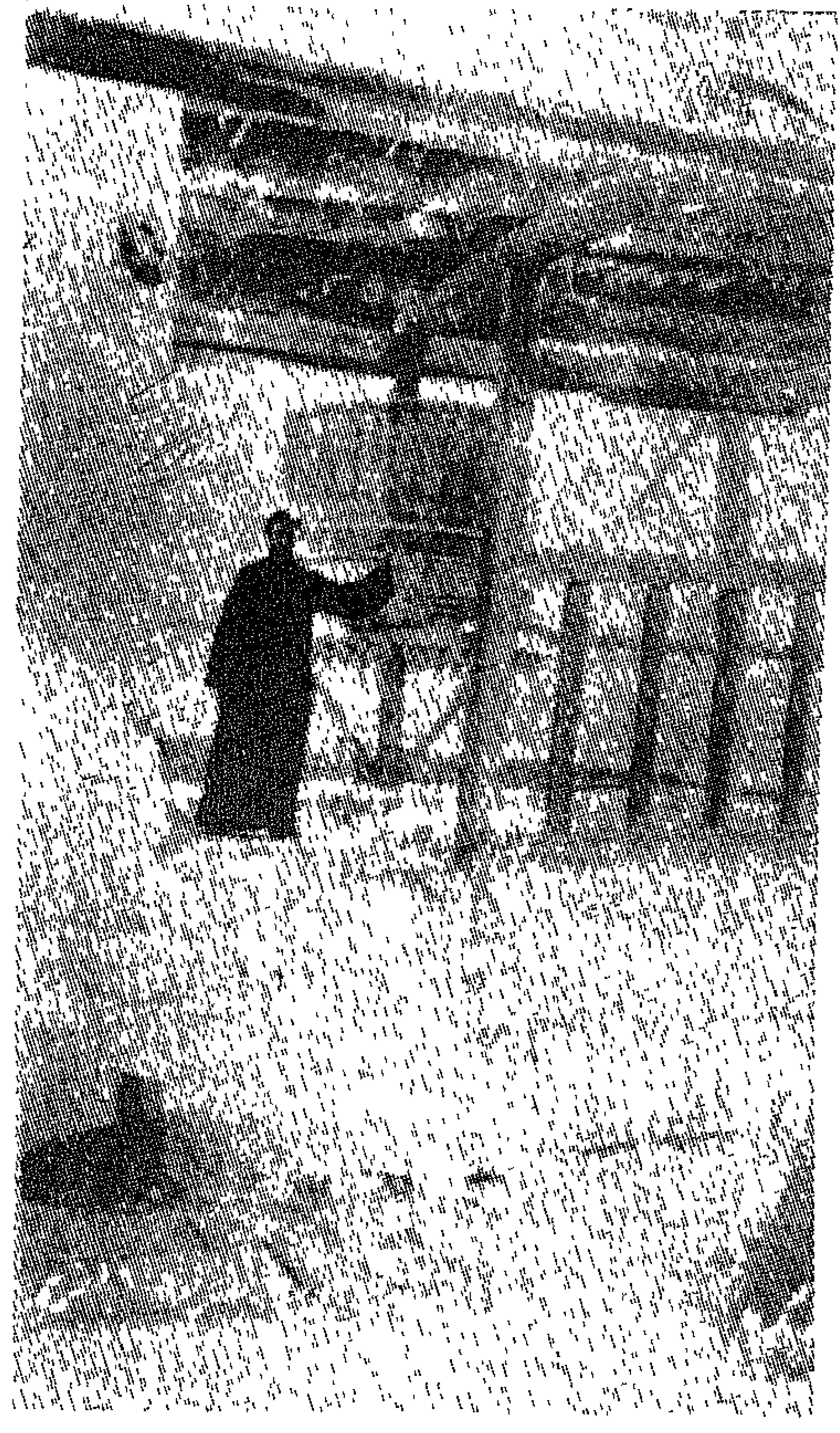
طريقة الدخول : ليس الدخول الى الاديرة بقرع الابواب ، فان الصوت لا يسمع فى داخل الدير لاتساعه ولضياع الصدى فى الفضاء المتسع الذى يحيط به ، ولكنه بواسطة قرع الاجراس ، كما فعلنا وكما يفعل كل من يرغب الدخول الى الدير ، وطريقة قرع الأجراس هذه متبعة فى كل الأديرة التى رأيناها ، فدير بولا وأديرة وادى النطرون قد عمل فيها مثل هذا الترتيب تماما



(منظر المطعمة والساقية والجرس والباب بدير انطونيوس)

ولكن يظهر ان هذه الأجراس لم تكن موجودة قديماً ، بدليل ما ورد فى رحلة الأب سيكار ، من انه اتبع طريقة غريبة فى اعلان رهبان

دير انطونيوس بحضوره ، « اذ أخذ هو والعرب يلتقطون أحجاراً ويقذفونها الى الحديقة ، وكانوا يصرخون فى الوقت ذاته صرخات عاليات حتى يعلنوا الرهبان بحضورهم »[1]



(صورة الساقية من الداخل)

ولم يكن هناك باب لدير انطونيوس قبل أيام كيرلس الرابع اللهم الا باب صغير ، يقال أنه كان فى الجهة الخلفية من السور القديم ، أهمل استعماله بعد أن عمل السور الثانى فى أيام الامبراطور يستنيان ، إذ أصبح الدخول بعدئذ بواسطة آلة تدعى الساقية

وتتركب هذه الآلة من اسطوانة خشبية تتحرك حول محور رأسى ، ومثبت بها ثلاثة أذرع أفقية ، ومربوط بها حبل من أحد طرفيه ، ويمتد طرفه الثانى فيمر على بكرة حديدية معلقة فى السقف ، ويتدلى بعد ذلك لمسافة طويلة بشكل حبل مزدوج

(1) Miss, dans le Levant V. p. 139

ولرفع الأشخاص يُمدّ الحبل إلى أن يصل أسفل السور ، ثم يقف الشخص ممسكا الحبل بكلتا يديه واضعاً قدميه عند نهايته ، وبعدئذ يدفع شخصان أو ثلاثة أذرع الاسطوانة لادارتها فيلتف الحبل ويُرفَع الشخص إلى أعلى البناء

ولقد كابدت هذه الطريقة غريبة وشاقة للأوروبيين خاصة ، واليك ما قاله كوبان فى هذا الصدد «لم يكن رعبنا من رؤية جماعة العرب الذين قابلونا فى الطريق ، بأكثر من هلعنا من رؤية الحائط التى كان علينا أن نتسلقها بواسطة حبل ليست به سلةً أو على الأقل عصا يستطيع الانسان أن يستند عليها ، ولقد أراد الرهبان أن يشرفونى بتقديمى على زملائى ، فرفضت معتذراً بأنى لا أعرف كيف استخدم هذا الحبل ، ولما عُرِض نفس الامر على الباقين أجابوا بنفس القول ، وأذ أبى كل إلا أن يتقدمه آخر فى الصعود ليرى ما يجب عمله ، تقدم أحدنا وهو الأب بطرس ليكون أول الصاعدين وبذلك وضع حداً لهذا النزاع ، فربط أمين الدير فى فخذيه الحبل وازوج الباقى منه ، ثم أمره أن يمسك جيداً بكلتا يديه وأن يحرك رجليه بكل خفة على الحائط كما لو كان يمشى ، وألا يضرب الحائط بشدة لئلا يدور الحبل والجسم معاً ويكون فى خطر الاغماء ، ولكن هذه التعليمات كلها لم تمنع الأب من أن يدور حول نفسه مرتين أو ثلاث قبل أن يصل إلى أعلى ، حتى أننا خشينا أن يتملكه الخوف فيسقط على أنه وصل أخيرا بدون حصول حادث ما ، وقد تبعته بعد ذلك مسترشدا بأوامر الرئيس»(1)

(1) Coppin, Guerre Ste p. 306

من هذا الوصف يتضح لنا كيف بدت هذه الطريقة متعبة وشاذة



(أحد الرهبان صاعدا بطريق البكره)

لدى الأوربيين ، إذ انه لايوجد بين أديرتهم ماعمل فيه مثل هذا الترتيب

ويظهر أن أصل تسمية تلك الآلة بالساقية يرجع إلى التشابه القائم بينها وبين الساقية المستعملة فى الرى ، فكما أن الأخيرة ترفع الماء ، هكذا الساقية هنا فانها ترفع الأشخاص والأشياء إلى أعلى

بقى الدير بدون باب إلى أن جاء الأنبا كيرلس الرابع المعروف بأبى الاصلاح ، فبنى للدير سنة ١٨٥٩ م سوراً ضخماً عمل به إلى جانب الساقية باباً كبيرا ، الا أن هذا الباب لم يكن ليفتح لكل قادم فى بادىء الأمر ، بل كان « يفتح للبطريرك فقط ومرة فى كل سنة عند ادخال الوقود للدير »(١)

فلقد ذهب إلى الدير كثير من الأوروبيين بعد عمل الباب أمثال

(1) Jullien. Souvenirs Chretiens p 44.

چوليان سنة ١٨٨٤ وشستر سنة ١٨٨٧ ولكن لم يسمح لهما بالدخول إلا عن طريق الساقية « إذ أن الباب كان مسدودا بالحجارة »[1] وكان عند قدوم البطريرك وعند ادخال الحطب تهدم هذه الحجارة ثم يُعاد بناؤها بعد ذلك

وأول من دخل من هذا الباب هو المسيو كوجردان ورفقاؤه سنة ١٩٠١ ولكنه يذكر أن « كل الرحالة ذوى الحيثيات الذين أتوا بعد ڤانسليب دخلوا من الباب أيضاً »[2] ولكن هذا غير صحيح إذ أن هذا الباب لم يعمل إلا فى منتصف القرن التاسع عشر، ولم يفتح لعموم الناس إلا فى أواخره

ورغم وجود الباب الآن ، فان الساقية لا زالت مستعملة فى رفع مؤونة الدير من حبوب وبقول ، فمخازن الغلال واقعة تحت الساقية تماماً بحيث أنه بعد رفع الغلال تُلقَى فى الغرف السفلى من فتحات فى السقف معمولة لهذا الغرض

وقبل أن نبدأ بوصف محتويات الدير نرى أن نأتى أولا على مُجملٍ لتاريخه

لمحة تاريخية عن الدير : لم نجد بين المؤرخين من كتب تاريخاً شاملا لهذا الدير ، بل جلّ ما عثرنا عليه شذرات متفرقة سطرها بعض الرحالة والمؤرخين فى العصور المختلفة ، وروايات متفككة توارثها الرهبان عن بعضهم البعض نلخصها فيما يلى :

(1) Jullien. Souvenirs Chretiens p. 44

(2) Couvent de St Antoine p 119

ذكر الانبا اثناسيوس لرسولى معاصر الأنبا أنطونيوس فى كتابه المسمى «حياة أنطونيوس»[1] أن القديس «لما رأى أناسا كثيرين تجمعوا حوله، وان المتاعب التى يجابهاعليه الرجال والنساء قد اشتدت وازدادت، خاف على نفسه لئلا تزهو بما كان يأتيه الله على يديه من عجائب، وعلى الناس لئلا يقدروه فوق ما يستحق، فصمم أن يبتعد من هناك، وأن يتعمق فى صحراء العرب، وبينما هو يفكر، إذ مر به جماعة من العرب، قد أعدوا العده للذهاب الى هذه الجهة فطلب اليهم أن يسمحوا له بمرافقتهم فأجابوه إلى طلبه بسرور أذ كان الله يريد ذلك»[2]

«وبعد أن سافر معهم ثلاثة أيام وثلاث ليال وصل إلى جبل عال، حيث وجد فى الأمكنة المنخفضة ماء صافياً عذبا وبعض النخيل»[3]

وفى مغاره من ذلك الجبل عاش بقية حياته، إلا أن تنحيه عن سكنى المدن وابتعاده عن العالم، ما كان ليمنع الناس من زيارته، فلقد تبعه كثيرون بعضهم يريد الشفاء من أمراضه، والبعض الآخر يرغب أن يصير تلميذا له، ومن هذا القسم الأخير تكونت جماعة كبيرة كان القديس يجتمع بها للتعليم وللاشتراك فى الصلوات الاجتماعية

طاب لهؤلاء المقام بجوار القديس، فسكن بعضهم مغارات طبيعية فى وسط الجبل وعند سفحه، وفضل الكثيرون أن يبنوا قلاياتهم بجوار عين الماء حتى لا ينالهم كبير عناء فى جلب ما يريدون من الماء، وحتى يستطيعوا أن يغرسوا بعض الأشجار بجوارها ليستظلوا بظلالها

---

(1) Vita Antonii
(2) Paradise of Palladius vol I p 59
(3) « « « « I p 60

ثم خضعوا بعد زمن معين لسنة الارتقاء ، فكونوا جماعات تقوم كل جماعة منها بتبادل المنافع ، وإذ ذاك أصبح لازما أن يقوموا بتشييد سور يجمع شتات مساكنهم ، ويحميهم من غارات البدو ومن نوازل الطبيعية ، ومن ثَمَّ نشأ الدير .

ولسنا ندرى بالتحقيق فى أى الأوقات كان بناء هذا السور ، أفى حياة القديس أم بعد مماته بقليل ، على أن ما نحن واثقون منه انه لم ينتهِ القرن الرابع للميلاد إلا وكان فى تلك الجهة دير للرهبان على اسم ذلك القديس ، يدلنا على ذلك ما ورد فى كتاب لسلْبيتُس سفيرس عن رجل يدعى پُستِميان ، قد زار مصر حوالى سنة ٤٠٠ م ، أنه قال « لقد زرت ديرى انبا انطونيوس حيث يسكن تلاميذه فى الوقت الحاضر ، وقد ذهبت أيضا إلى ذلك المكان الذى كان يعيش فيه المطوب الانبا بولا أول المتوحدين ، ومن هناك رأيت البحر الاحمر وقمم جبال سيناء » [1]

وليس من شك أن هذا الرجل صادق فيما قاله ، وانه زار حقا تلك الأديرة بدليل أنه قال برؤيته البحر الاحمر وقمم جبال سيناء من مكان الدير ، وهذه حقائق لم تكن معروفة فى ذلك الزمن البعيد الا لكل من زار تلك الأماكن

واحد الديرين اللذين ينسبهما ذلك الرجل للانبا انطونيوس هو دير الميمون الذى لا يزال قائما لليوم على ضفاف النيل ، أما الآخر فانه

---

(1) Lausiac His vol 1 p 231 - 232

يقصد به ولا شك الدير المشيد فى سفح جبل القلزم ، والذى نحن بصدده الآن .

اتضح لنا اذن أن هذا الدير قد أنشىء قبل سنة ٤٠٠ م ، ولكن ليس معنى هذا انه كان بالشكل والمساحة الحالية ، فان مساحته اذذاك لم تتعد الثلاثة الافدنة ، ولم يكن ليحتوى الا على قلايات الرهبان وكنيسة واحدة ، وقليل من الابنية الاخرى

فاذا تذكرنا أيضا انه كان به باب صغير عند كنيسة القديس انطونيوس لادركنا أن هناك شبها كبيراً بين الدير فى شكله الاول ، وبين أديرة وادى النطرون ، فالمساحة متقاربة ، والأسوار متشابهة ، والمحتويات تكاد تكون متماثلة

جاء الدور الثانى فى تطور الدير وكان ذلك فى أيام حكم الامبراطور يستنيان عام ٥٣٧ م ، فاقد خسر هذا الامبراطور إحدى القلاع المهمة فى بلاد العرب ، وكان يحمى بها حدود مصر ، فأراد بعد ذلك أن يقيم قلاعا على حدود القطر نفسه ، حتى تقوم مقام القلعة التى فقدها ، فبنى لذلك حصنا فى شبه جزيرة سيناء ، لايزال قائماً لليوم يسكنه رهبان الروم الارثوذكس ، ويدعى دير سانت كاترين ، وفى الوقت نفسه عمّر ديرى أنطونيوس وبولا وزاد فى مساحتهما وأضاف كثيرا إلى أبنيتهما[1]

وكان السور الذى أقامه هو السور الثانى للدير ، والذى استمر قائماً حتى أيام الانبا كيرلس الرابع ، وهذا السور كما يُرى من البقايا الكثيرة

(1) Butcher Church. of Egypt vol 1 p 327

التى لا زالت موجودة ، كان أشبه بمربع فى شكله وهو على ما رآه ساڤارى « سور عالٍ وعريض يبلغ ربع الفرسخ فى محيطه »[1] ولم يكن به باب بل ساقية تستعمل لرفع مايراد ادخاله الى الدير ، والمرجح ان الحصن أو القصر الموجود الآن فى هذا الدير قد بنى فى ذلك الوقت مع السور حتى يستطيع الذين بداخل الدير أن يدافعوا عن أنفسهم بواسطته ، وحتى يكون لهم بمثابة الملجأ الأخير عند اقتحام الأسوار

وإذا قلنا ان هذا الامبراطور قد قام بهذا كله ، فليس معناه أنه عمله من ماله الخاص ، إذ أنه كان أكبر عدوٍ للأقباط ، ولكنه كان قد أقام بطريركا دعاه بطريرك الملكيين ، ووضع تحت تصرفه كل أوقاف الكنائس والأديرة التى كانت تقدر إيراداتها بنحو ثمانين ألف جنيه سنويا[٢] ، ومن تلك بنى ديرسينا وعمر هذين الديرين

وقد كان يقصد من وراء تعمير هذين الديرين حماية الحدود المصرية ، فوضع بهما بعض الرهبان الملكيين لهذا الغرض ، على اننا لا ندرى هل طرد رهبان الاقباط أم تركهم يعيشون معهم ، كما أننا لا نعرف إلى أى الاوقات استقر بالملكيين المقام

والاغلب أن الرهبان الملكيين أقاموا هناك مدداً طويلة بدليل ماورد فى رحلة برناردى بريدينباخ الذى زار مصر عام ١٤٨٣ إذ قال

(1) Savary, Egypt vol I p 532

(2) Butcher, Churches of Egy. vol I p. 326

«عند ما يتعمق الانسان فى وادى النيل يصل إلى صحراء آران فساران فاسقيط حيث كان يسكن الآباء انطونيوس ومقار وبولا أول المتوحدين وكثيرون غيرهم ، والذين كانوا يحضرون للقاهرة لبيع السلال المجدولة ، ولشراء ما يقتاتون به ، وفى تلك الصحراوات كان يوجد بالاديرة بعض الرهبان اليونانيين المدعوين كاليجورى ، ولكن انتشار الرذيلة أخيراً كان سبباً فى انعدام هذا البعض » (١)

ولو ان ما قاله هذا الرجل مشحون بالخطأ مشوه بالخرافات ، الا أن به بعض النقط التى يجب ملاحظتها ، أهمها قوله بوجود عدد من رهبان اليونان مؤخراً بالديرين ، ثم بانعدام هذا العدد بعدئذ

ولقد تبع وقت يستنيان وتوسيعه للديرين عصر طويل مظلم لا يعرف عنهما فيه شىء ، نظراً لأن كل المؤلفات والتواريخ التى كانت تدل عليه فُقِدت وأحرقت فى سنة ١٤٨٤ م عند ما هجم عرب البادية على الديرين ، وقتلوا أكثر الرهبان ولم ينجُ منهم إلا القليل (٢)

ويحدثنا شستر الذى زار ديرأنطونيوس سنة ١٨٨٧ ، ان الرهبان فى ذلك الوقت ذكروا له رواية غريبة عن كيفية اقتحام العرب للديرين ، وقد سألنا كثيراً من الرهبان عنها فأمّنوا عليها — وتتلخص تلك الرواية فى انه حدث من نحو أربعمائة سنة من تاريخ زيارته ، ان اغتنى الرهبان فى الديرين ، فاتخذ كل منهم خادما له من البدو ليقوم عنه فى تنسيق

---

(1) Bernard de Breydenbach : Pregnations Saintes

(٢) خلاصة تاريخ المسيحية ص ١٥٥

الحدائق وبقية أعمال الدير ، ولقد أظهر هؤلاء اعتناقهم المسيحية ، الا أنهم فى الوقت نفسه كانوا يكيدون للرهبان ، ويدبرون مؤامرة ضدهم

ففى منتصف ليلةٍ انفقوا عليها ، انقض البدو فى كلا الديرين على أسيادهم الرهبان فقتلوهم ولم ينجُ منهم إلا النزر اليسير ، استبقى العرب بعضهم ، واتخذوهم خدما لهم [1]

وسواء أخرب هذان الديران بتلك الطريقة ، أم بطريقة أخرى ، فلقد أصبحا بعد ذلك التاريخ ماجأ للسارين من البدو ، ومحطًا للغادين والرائحين ، نحواً من ثمانين سنة ، ومن المرجح انهم اعتدوا على النقوشات الثمينة هناك ، وانهم أحرقوا كل المخطوطات التى وقعت تحت أنظارهم

وقد بقى الديران خربين خاليين من الرهبان ، الى ان جاء الانبا غبريال السابع ، الخامس والتسعين من بطاركة الاسكندرية (١٥١٨ — ١٥٦١) فرمم الديرين وعمرهما برهبان من الأديرة الأخرى [2]

وينسب المسيو كوجردان تعمير دير انطونيوس وترميمه الى الانبا غبريال السادس ، الحادى والتسعين من البطاركة [3] ، ولكن هذا خطأ ، إذ أن هذا البطريرك استمر فى كرسيه مدة قصيرة لم يذكر التاريخ عنها شيئاً

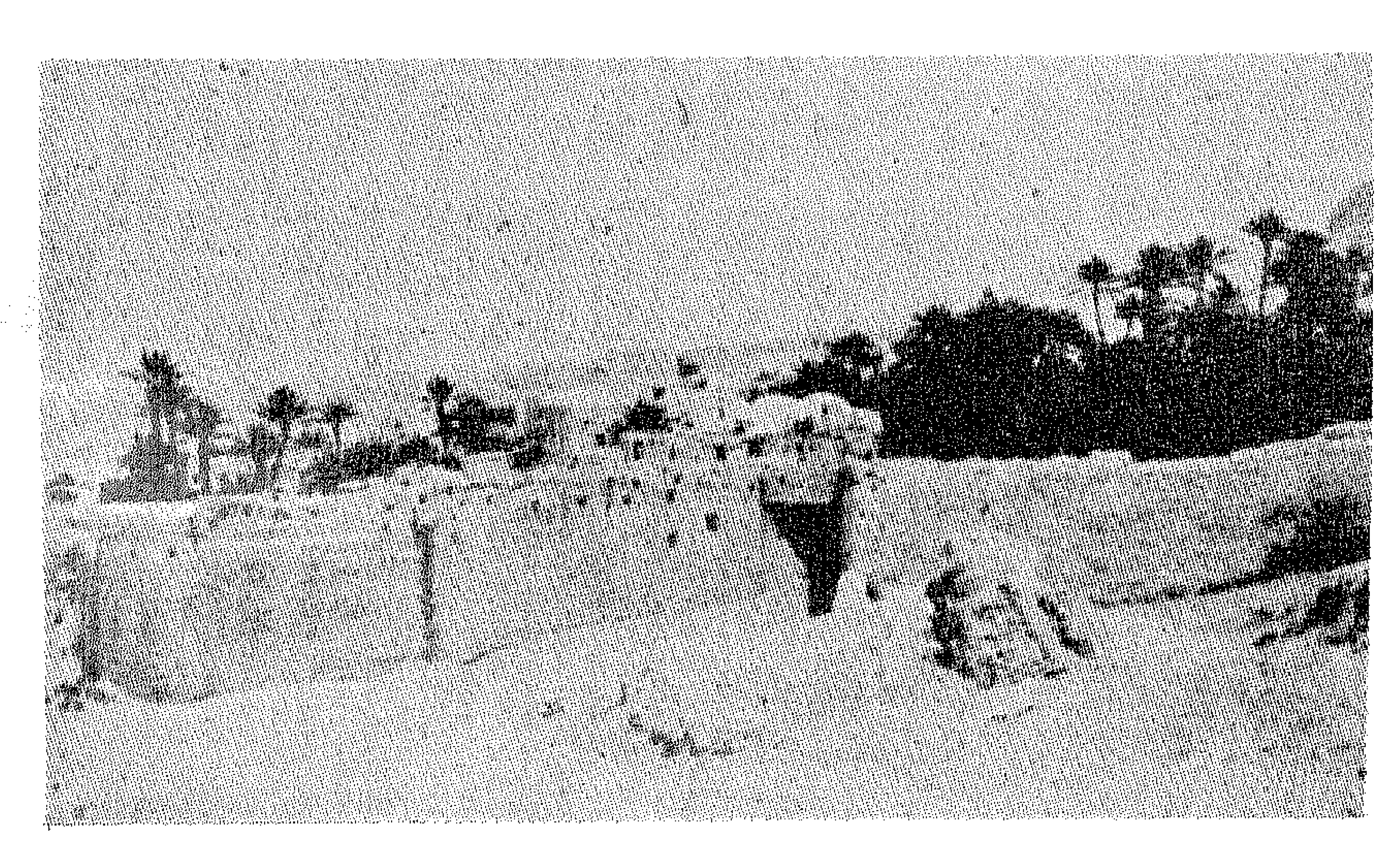
---

(1) Chester: Coptic Deyrs p 9

(٢) الخريدة النفيسة جزء ٢ ص ٤٥٥

(3) Couvent de St Antoine. p 74

بقى دير انطونيوس على هذه الحال الى ان جاء المعلم ابراهيم الجوهرى فى أواخر القرن الثامن عشر ، فوجد أجزاء كثيرة من أسوار الدير مهددة بالسقوط ، وأخرى قد سقطت من زمن ، فقام بعمل الاصلاحات والترميمات اللازمة ، وبنى السور الأمامى للدير القديم ، المعروف للآن بسور الجوهري



(سور الجوهرى وخلفه الحديقة وبعض أبنية الدير)

وقد قيَّض الله للدير على يد الانبا كيرلس الرابع فى منتصف القرن التاسع عشر اصلاحات واسعة النطاق ، لم يحظَ بمثلها منذ بنائه للمرة الأولى ، فلقد كان هذا البطريرك مغرماً بالاصلاح فى كل ناحية من النواحى ، فليس بغريب اذن أن يوجه اهتماما أعظم لذلك الدير الذى قضى فيه أيام رهبنته

قام هذا البطريرك بعمل سور ضخم واسع النطاق أحاط بالأسوار القديمة ، ثم ضمَّ إلى المساحة الأصلية مساحات واسعة ، منها الجزء

الأمامى ، وبه شونة الوقود والكنيسة الجديدة وصفان من القلايات والمطعمة ، ثم الجزء الخلفى ويشمل القسم المعروف ببين الأسوار وشونة المعيز

وتقدر نفقات السور وحده إذا كان مبنيا فى المدن بنحو خمسين الف جنيه ، فكيف بنفقاته وهو مبنى فى مكان يبعد عن الحضر بثلاثة أيام ، وإذا كان هذا عن السور فقط ، فكم كلفته أيضاً الأبنية الأخرى ؟

وفى الواقع أن تلك الأموال التى صُرِفت لم يكن ليسعها دخل البطريركية — ولقد سمعنا من بعض الرهبان رواية تتعلق بهذا الموضوع نرى ايرادها ، خصوصاً واننَّا نعتقد أنها ليست بعيدة الوقوع

«ذلك أنه لما كان الأنبا كيرلس الرابع يقوم ببعض الاصلاحات فى الدير ، نشأ نزاع بين الحكومتين المصرية والحبشية على تحديد التخوم ، وكان من المحتمل نشوب الحرب بين المملكتين ، فأشار ساسة الدولة على الخديوى سعيد باشا ، حاكم مصر فى ذلك الوقت ، أن يعهد إلى الأنبا كيرلس أن يتوسط فى الصلح ، ولما طلب منه ذلك اعتذر بأن لديه بعض أبنية الدير التى تستلزم وجوده ، فتعهد له الخديوى بالقيام بعملها وفقاً للرسم الذى يُقدَّم له ، وقد حدث بعدئذ أن سافر الأنبا كيرلس إلى الحبشة وتولّت الحكومة بناء الجزء الباقى من الدير »

ويقول البعض الآخر من الرهبان أن الأنبا كيرلس عندما سيم بطريركا وجد فى دار البطريركية ما كدَّسه بعض من سبقه من البطاركة

ومقداره نصف مليون جنيه[1] ، فأتمّ به ما كان يريده من الاصلاحات فى الدير وفى غيره

بعد ذلك البناء الأخير لم يحدث بالدير أى تغيير أو اصلاح ، الا اذا استثنينا جزءاً لا يكاد يزيد عن المتر سقط من السور ، فأُصلح بما يُقدّر بخمسين جنيهاً

المصادر التاريخية للأديرة : الآن وقد أتينا على تاريخ الدير ، يحسن بنا أن نعيّن المصادر التى استقينا منها الحوادث التاريخية ، وأن نشير الى الطريقة التى توخيناها والتى سنتوخاها فى كتابتنا عن الأديرة

لقد كنا نظن عند زيارتنا للدير أن به سجلات خاصة يدوّن بها ما أُدخل على الدير من اصلاح ، وما وقع بين جدرانه من حوادث فى العصور المختلفة ، على اننا بعد البحث الطويل لم نعثر على شئ من هذا

وحاولنا بعد ذلك أن نجد فصلا أو باباً كتبه أحد الرهبان أو الزائرين عن الدير وحالته فى عصر من العصور ، فلم يكن نصيبنا فى ذلك بأحسن من نصيبنا فى بحثنا عن سجلات الدير

وكان ان وجهنا همنا بعد ذلك الى كتب رحالة الافرنج ، فوجدنا منها لحسن الحظ الشئ الكثير الذى يرجع الى عصور مختلفة بدأت من منتصف القرن السابع عشر حتى أوائل القرن العشرين

فكان أول من كتب من الرحالة ، بعد پستميان حوالى سنة ٤٠٠ م ،

---

(١) الخريدة النفيسة جزء ٢ ص ٥٠٧

هو كوپان الذى زار الدير مع فرقة كبيرة من اخوانه سنة ١٦٤٠ م ، وقد ترك وصفاً لطرق القوافل، ولبعض أجزاء الدير (١)

تبعه ڤانسليب الذى زارالدير سنة ١٦٧٠ ، فأتى على وصف العرب وأخلاقهم ، ثم عرج على الدير فأشار الى محتوياته وأبنيته (٢)

وجاء القرن الثامن عشر ، فكان أول زائر كتب عن الأديرة هو سيكار الذى حضر الى الدير مع السمعانى سنة ١٧١٦ ، وقدوصف الرهبان بشكل مزرٍ ، وذلك لعقيدته الكاثوليكية ، الا أنه كان أميناً فى وصفه للدير (٣)

تبعه جرانچر ، وقد اختصر فى وصفه كل الاختصار (٤)

وجاء ساڤارى بعد ذلك حوالى سنة ١٧٨٥ ، فوصف رحلته بشكل خطاب لم يُعنِ فيه كثيراً بالحقائق التاريخية والجغرافية (٥)

وما بزغ القرن التاسع عشر ، عصر النور والعرفان ، حتى طلع علينا بعض الزائرين بمؤلفات فنية علمية ، كان أولها لكاترمير سنة ١٨١١ الذى عُنى فى كتابه بالنقط الجغرافية وضبط مواقعها ، إلا أنه لم يكتب شيئاً يذكر عن تاريخ الدير (٦)

وفى سنة ١٨٧٦ زار الدير العالم الألمانى شوينفرت مؤسس الجمعية الجغرافية الملكية وصاحب الابحاث القيمة فى القطر المصرى ، وقد كتب وصفاً

(1) Coppin. Guerre Ste.
(2) Vansleb : Egypt
(3) Miss. dans le Levant V
(4) Granger : Voyage en Egypte
(5) Savary : Egypt
(6) Mem. His. & Geog.

دقيقاً للدير يُعدّ بحق أتم ما كتب عنه[١]

تلاه چوليان سنة ١٨٨٤ فجاء بوصف دقيق للدير ، وبتاريخ موجز لبعض أجزائه[٢]

ثم أتى شستر سنة ١٨٨٧ ، فاقتضب كثيراً فى وصفه[٣]

وفى القرن العشرين كان الزائر الوحيد الذى كتب عن الدير هو كوجردان سنة ١٩٠١ ، فقد خصص مجلداً ضخما لزيارته استرسل فيه فى وصف الطريق استرسالا ملأ أكثر صفحات كتابه ، فلم يُبْقِ لوصف الدير إلا النزر اليسير[٤]

هؤلاء هم الرحالة الذين كتبوا عن رحلاتهم والذين استطعنا أن نتصفح كتبهم ، وسنشير إلى مؤلفاتهم كلما عرضنا لبعض النقط التى يلزم فيها الاشارة

وإلى جانب الشذرات التى كتبها الرحالة الأفرنج روايات متوارثة للرهبان يقصونها عن تاريخ ديرهم وعن الحوادث الهامة التى مرت به

والروايات على وجه العموم غير موثوق بصحتها ، وأكثرها مشوه تشويهاً يكاد يمسخها فلا يبقى لها إلا قليلا من الجوهر ، على أن هنالك بعض القواعد التى تعين مبلغ الروايات من الصحة ، فكلما صغر المكان الذى تنتقل فيه الرواية كلما كانت أولى بالتصديق والعكس بالعكس ، وكلما قلّ عدد الأشخاص الذين يتناقلوها كانت أقرب إلى الحقيقة أيضاً

---

(1) Schweinfurth :Umbretretenen
(2) Jullien. Souvenirs Chretiens
(3) Chester : Coptic Deyrs
(4) Couvent de St Antoine

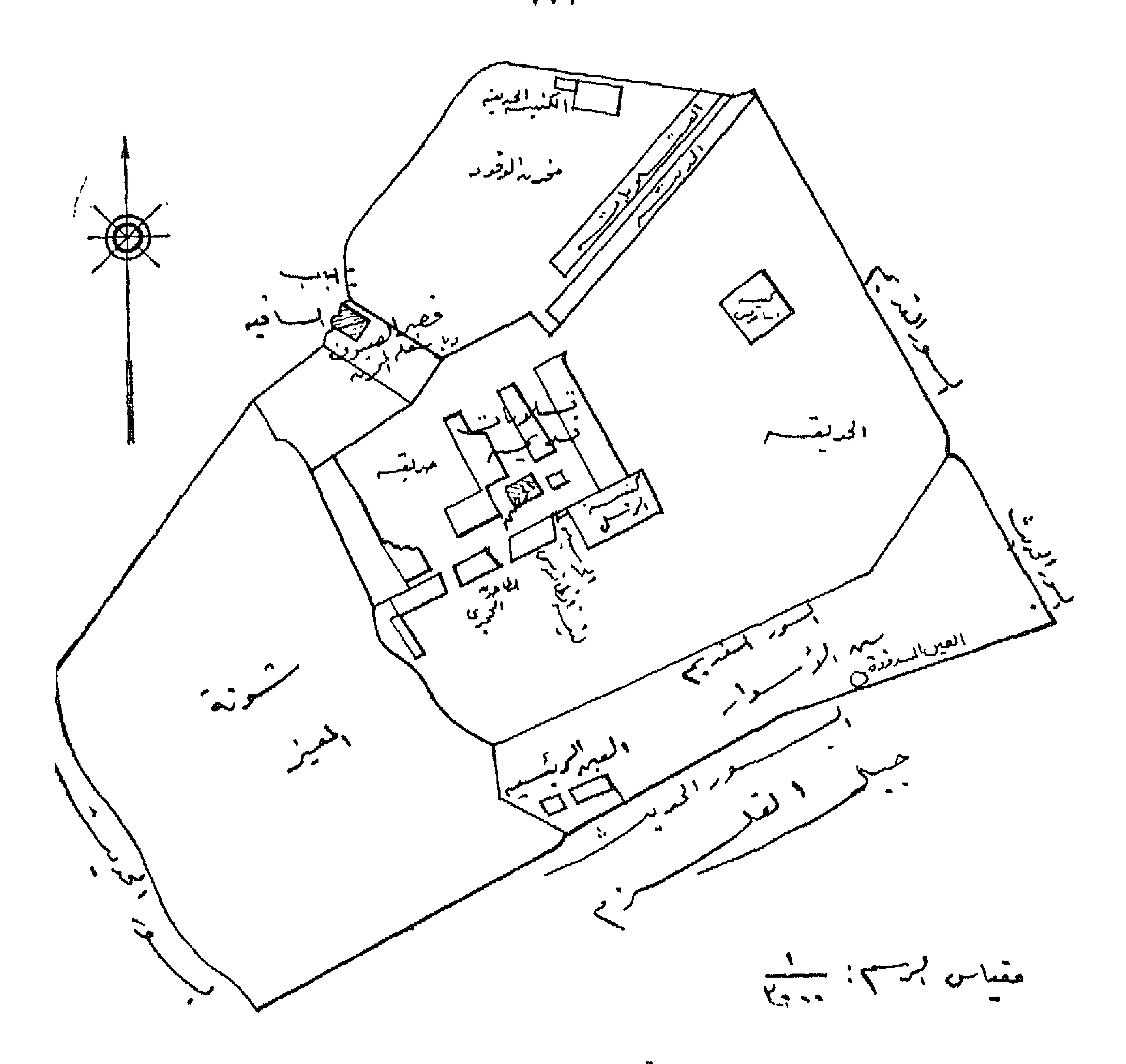
وإذا طبقنا ذلك على روايات الدير نرى أنها تنتقل بين جدران أربعة، هابطة من جيل إلى آخر، فضلا عن أن للرهبان وقتاً طويلاً يجتمع فيه صغارهم بكبارهم، حيث يقص أحد الشيوخ الأخبار القديمة على حديثي السن منهم — فبهذه الاجتماعات وبوجودهم فى مكان الدير المحدود لا يجعلون مجالا لخطأ أو تشويه

تنحدر بذلك الرواية من عصر إلى آخر، حافظة ليس لجوهرها فحسب، بل ولشكلها أيضاً، وأعظم دليل على ذلك أن كثيراً من الرهبان كانوا يتلون على مسامعنا فى أوقات مختلفة بعض الحوادث المعينة بصيغة متشابهة وألفاظ متقاربة

ولقد صدّق الافرنج كل الروايات التى سمعوها من الرهبان بدون أى تحقيق أو أثبات، أما نحن فقد حاولنا فى كل رواية سمعناها أن نتعقب الشواهد على صحتها، ونحسب أننا قد وُفِّقنا فى كثير من المواقف إلى إثبات صحة بعض الروايات، أما تلك التى لم نستطع إيجاد الدليل على صحتها فقد تركناها بين الشك واليقين حتى يقوم البرهان على صدقها أو اختلاقها

أجزاء الدير:

الأسوار: ان السور الضخم الذى يحوط الدير الآن هو السور الذى بناه الأنبا كيرلس الرابع، وهو يشبه أسوار الحصون لضخامته وارتفاعه، إذ يتراوح بين العشرة والاثنى عشر متراً فى ارتفاعه،



(رسم تخطيطى لدير انطونيوس)

ويزيد عن المترين فى سمكه ، وله سطح عريض ينتهى من الجهة الخارجية بافريز مرتفع ، وهذا السطح ليس مستوياً ، أذ أنه، وقد جعل لحماية الدير، يعلو بارتفاع ثابت عن الأرض خارج السور ، ويكوّن خطاً متماثلا مع سطح الأرض ، ولما أن كانت هذه غير مستوية فان سطح السور غير مستوٍ أيضاً — ولهذا السبب عينه نجد أن أرض الدير القريبة من السور الخلفى تعلو فى مستواها عن أعلى نقطة فى السور الأمامى

أما الأسوار القديمة فتبلغ فى ارتفاعها واتساعها مثيلاتها الحديثة، ولكن لايوجد بها افريز الآن، والمرجح إنه كان لها هذا الافريز، ثم سقط بمرور الزمن

والغريب أن أكثر الأسوار القديمة مبنى من اللبن مع أن الأحجار متوفرة هناك أكثر من الطمى اللازم لعمل الطوب، ولعل السبب فى تفضيلهم الطوب على الحجر هو تعاقب الحرارة والبرودة الشديدتين، مما يجعل الحجر يتفتت بخلاف الطوب فان الحرارة تزيده متانة، ولا يؤثر فيه اختلاف الجو

وإن نظرة واحدة إلى الأسوار الطينية القديمة التى مرت عليها القرون العديدة، وإلى الأسوار الحجرية التى لم يمض عليها بعد إلا سبعون عاماً، لما يثبت هذه الحقيقة، فالأسوار الطينية لايزال أكثرها قائماً، أما الحجرية فالقد تهدمت بعض أجزائها، ثم أعيد اصلاحها فضلا عن أن هناك جهات كثيرة فى خطر السقوط، إن لم تتناولها يد الاصلاح

كنيسة أنطونيوس : لعل أقدم أبنية الدير، وأهم ما فيه من الوجهة الأثرية هو كنيسة أنطونيوس، فلقد بنيت فى حياة القديس أو بعد موته بقليل، لكى يجتمع فيها أتباعه للصلاة والعبادة، واستمرت بذلك حافظة لشكلها [1] رغم تعاقب الأجيال، ورغم النزاع الذى قام بين رهبان الأقباط (اليعقوبيين) والرهبان الملكيين، ورغم تخرب الدير أيضاً

(1) Vansleb : Egypt p 183

بواسطة البدو ، وسكناهم إياه مدة طويلة

وربما يرجع السبب فى عدم تناول هذه الكنيسة بأى تدمير أو تخريب ، إلى العقيدة الثابتة فى قداسة ذلك الذى بنيت على إسمه ، تلك العقيدة التى لاتؤمن بها طوائف المسيحية كلها فحسب ، بل العربان أيضاً فى تلك الجهات ، حيث كانوا ولا زالوا يعتبرونه حاميهم الأعظم فى البرارى والقفار

ولقد نسب أكثر الرحالة الذين زاروا الدير عدم وضوح ما على حوائط الكنيسة من صُور ، إلى ما كان يوقده البدو من الوقود فى الكنيسة وقت اجتياحهم الدير ، وإلى ما يتصاعد من دخان المباخر ، ظناً منهم أن دخان المباخر وحدها لايكفى لتسويد الحوائط ، على أننا نستبعد أن العرب فى زمن احتلالهم للدير ، كانوا يضرمون النيران فى هذه الكنيسة ، ومانرجحه أن دخان المباخر الذى استمر يتصاعد فى تلك الكنيسة القليلة النوافذ ، من عهد بنائها إلى اليوم ، كافٍ لتكوين تلك الطبقة الشفافة من الدخان ، على جدرانها وصورها .

ولقد اعتقد الرهبان فى كل العصور بحفظ الكنيسة من أيدى العابثين ، واعتقدوا أيضا أن أسلافهم ، كانوا يدفنون كثيراً من نفائس ديرهم وكتبهم تحت الكنيسة كلما شعروا بخطر اقتحام الدير ، وقد زاد فى ذلك الاعتقاد ، وجود صورة جرس على أحد أعمدة الكنيسة حسبوها رمزاً لوجود بعض الأشياء المخبأة ، لذلك فانه لما عُيِّن الأنبا تيموثاوس

مطران القدس السابق ناظراً للدير ، أراد أن يتحقق بنفسه صحة ذلك الاعتقاد ، فقام ينقب فى الكنيسة ، إلا أنه لسوء الحظ لم يكن له المقدرة الفنية والصبر الكافى ، ففشل فى عمله ، وأصبحنا لا نستطيع أن نجزم إن كان هناك بعض الأشياء المدفونة كما يعتقدون .

ويحدثنا كوجردان أن الأنبا كيرلس الخامس ، البطريرك السابق ، لما رأى أن هذه الكنيسة قديمة وضيقة وملأى بالدخان ، أراد أن يعيد بناءها ، فظهر له القديس فى حلم ورجاه ألا يعمل شيئاً من هذا ، فأخذ البطريرك بتلك النصيحة ، وبذلك استمرت الكنيسة الى وقتنا هذا حافظة لشكلها الأصلى [1]

وهذه الرواية خطأ محض ، أذ لم يوجّه البطريرك الراحل أى اهتمام لدير أنطونيوس ولم يفكر يوماً ما فى تعمير شىء منه ، والحقيقة أن هذا العمل كان فى نية الأنبا كيرلس الرابع معمّر الدير ، إلا أنه عدل عنه وبنى الكنيسة الجديدة التى لا تزال قائمة لليوم ، وذلك حفظاً لآثار القديس فى كنيسته — وسنرى عند كلامنا عن الكنيسة الجديدة كيف أن رواية كوجردان منقوضة من أساسها

ويبلغ طول كنيسة أنطونيوس نحو العشرين متراً وعرضها نحو عشرة أمتار ، وتنقسم من الداخل الى أربعة أقسام : قسمان للمصلين وقسم للشيوخ والكهنة ، والقسم الرابع وفيه الهيا كل الثلاثة ، ويعلو كل قسم من الأقسام الثلاثة الأولى قبة واحدة ، أما القسم الرابع

(1) Couvent de St Antoine p 88 - 89

يث الهيا كل فتعلوه ثلاث قباب

وينفتح باب الكنيسة فى الجهة الشمالية من القسم الأول ، وليس
، الجهة الغربية كما هو الحال فى معظم الكنائس القبطية ، ويرجع
سبب فى ذلك الى طبيعة المكان الذى يحيط بالكنيسة ، فالواجهة الغربية
يقة جداً لا تصلح لانفتاح الباب فيها — ويشبه ذلك الحال فى
ض الكنائس الأثرية ، أمثال كنيسة مار مينا العجائبى بفم الخليج
كنيسة العذراء بدير
سريان وغيرهما —
هذا الباب صغير غير
رتفع حتى ليضطر
لانسان الى الانحناء
ند دخوله الكنيسة

والقسم الأول من
كنيسة هو أكبر
لأقسام وأكثرها
نخفاضاً ، يزينه
كثير من النقوش
دينية المرسومة على
لجدران والأقبية —

(مذبح كنيسة الحيوانات الأربعة)

يه صورة مار جرجس فى زى جندى رومانى راكباً حصاناً ولابساً
وذه وممسكا بيده حربة يطعن بها التنين ، وتحت هذه الصورة يوجد شكل

لكنيسة كبيرة بها قباب متعددة لا يعرف للآن أى الكنائس تمثل

وفى الجزء القبلى من هذا القسم يُرى مذبح صغير مكرس على اسم الأربعة الحيوانات[1] ، وتوجد به صور من أجمل الصور وأقدمها ، أهمها صورة للسيد المسيح رأينا مثيلتها فى المتحف العربى

ويفصل القسم الثانى عن الأول حائط حجرى يرتفع نحو متراً ونصف ، وليس به شىء يذكر ، ويقف فيه الرهبان عادة عند تلاوة صلوات الصباح والمساء .

ثم يأتى القسم الثالث وهو يعلو بنحو درجتين عن القسمين السابقين ، ويفصله عن القسم الثانى حاجز خشبى يعلوه قائم مثبت فى جدار الكنيسة تستند عليه صورٌ كثيرة

ويتدلى أمام الهيكل فى ذلك القسم مصابيح أثرية قديمة من الزجاج الملون وبعض من بيض النعام

ويعللون تعليق بيض النعام أمام الهيا كل أن النعام يهتم ببيضه اهتماما عظيما بأن يوجه اليه نظره من ساعة الوضع إلى وقت



(منظر داخلى لكنيسة انطونيوس)

(١) يقصد بها الحيوانات المتجسدة الواردة فى سفر الرؤيا ٤ : ٦ — ٩

الفقس ، فهو بذلك يعطى للحاضرين مثلاً محسوساً من الانتباه الواجب نحو تعاليم دينهم وواجباته[1]

وهناك تعليل آخر هو أن المشاعل كانت توقد قديماً بالزيت الذى كان يجذب الفيران اليه ، فلمنعها من الوصول إلى الزيت وُضِع فى الحبل المدلى به المصابيح بيض نعام ، فكان إذا ما نزل فأر على الحبل اعترضته البيضة ، وإذا أراد الوصول إلى المشعل انزلق وسقط إلى الأرض

والأرجح أن السبب فى تعليق بيض النعام كان فى الأول نفعياً أى لطرد الفيران ، ثم تحول بعد ذلك وصار نظرياً أى ليعطى الحاضرين مثلا من الانتباه الواجب

والمطَّلع على تاريخ الفن فى مصر ، يعرف حقيقة هامة ، وهى أن كل شىء استعمل كرمز كان فى الأصل موضوعا لفكرة نفعية

وأخيراً يأتى القسم الرابع وبه الثلاثة هيا كل ويوجد بينه وبين القسم الثالث حاجز مرتفع ، مصنوع من قطع صغيرة من الخشب ، يتوسطها صلبان من العاج

وعلى ذلك الحاجز ، توجد كتابة باللغة اللاتينية ، لرجل يدعي برناردُس من صقلية ، يقول أنه زار الأديرة ، فى أواخر سنة ١٦٢٥ ، ويدّعى أنه أول زائر كاثوليكى للدير

والهيا كل الثلاثة ، تكاد تكون مربعة ، تنتهى بفجوة فى الحائط الغربى ، ويتوسطها مذبح حجرى ، تعلوه قبة خشبية

---

(1) Butler : Coptic Churches vol I p 79

ميزات كنائس الأديرة : يحسن بنا الآن ، وقد أتينا على وصف كنيسة القديس القديمة ، أن نورد هنا بعض الاختلافات العامة ، بين كنائس الأديرة ، وكنائس المدن

١ — يوجد عادة فى كنائس المدن ، شرفات عليا ، مخصصة لجلوس السيدات وقت الصلاة ، أما فى الاديرة ، حيث لايوجد سيدات ، وحيث لايسمح لاحداهن بالدخول فيه عادةً ، فليس هناك مايدعو لبناء مثل هذه الشرفات [١]

٢ — لايوجد بأغلب الكنائس هناك أماكن للعماد [٢] ، ذلك لأن الذين يذهبون إلى الدير ، يكونون عادة فى سن كبير ، ولا بد أن يكونوا قد عُمِّدوا من قبل .

٣ — يوجد عادة فى كل كنيسة ، عدا الهياكل الثلاثة ، هياكل أخرى تضاف فى أحد أقسام الكنيسة ، مثل هيكل الأربعة الحيوانات الموجود فى القسم الأول من كنيسة انطونيوس ، وسنرى كثيرا من هذا النوع عند كلامنا عن أديرة النطرون فى كتابنا التالى ان شاء الرحمن

٤ — يلاحظ أيضاً فى كنائس الأديرة خصوصاً القديمة منها ، ان بها تقاسيما متميزة ، حيث توجد حوائط عالية قد تصل الى السقف ، تفصل الأقسام عن بعضها البعض [٣] بعكس كنائس المدن ،

(1) Butler : Coptic Churches vol I p 19
(2) « « « « « p 17
(3) « « « « « p 26

اذ لا يوجد بها الا حجاب الهيكل .

٥ — فى بعض الكنائس بالدير لا يستعمل الا الهيكل الأوسط أما الهياكل الجانبية فأكثرها مهمل ، ومنها ما يستعمل لغرض خلا الصلاة كحفظ الكتب مثلا ، كما هو حاصل فى كنيسة الملاك بدير بولا وكنيسة انبا بشوى بالدير المسمى باسمه ، ويرجع السبب فى ذلك الى وجود كنائس عدة بالدير يمكن الاستغناء بها عن بعض الهياكل الجانبية

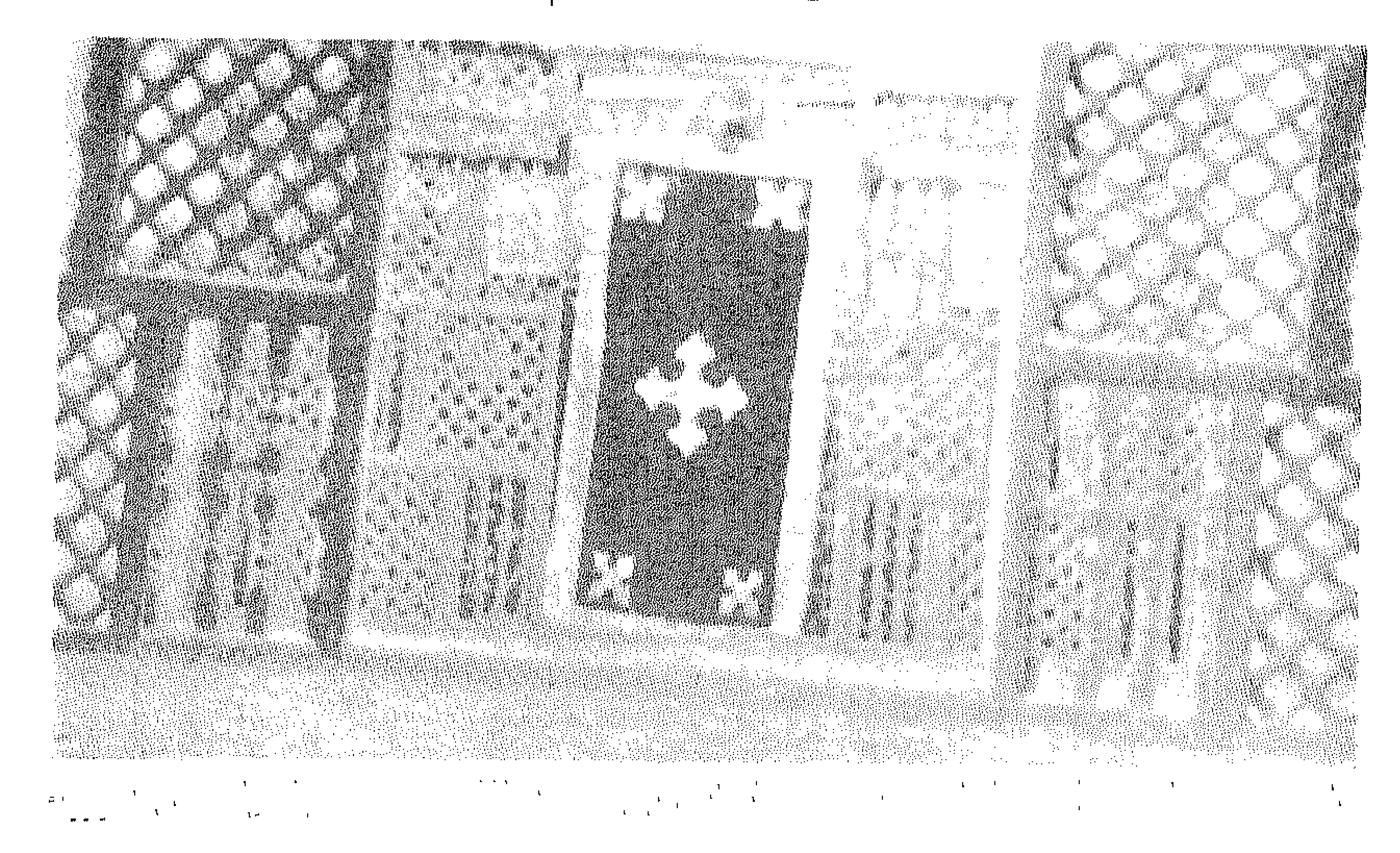
٦ — ليس هناك مقاعد بكنائس الأديرة بل يستعاض عنها بالأبسطة والحصر — فالراهب يقضى معظم وقته فى الكنيسة واقفاً ، وإذا أراد الجلوس جاس القرفصاء على الأرض — أما فى المدن فالكنيسة ملأى بالمقاعد كما نعلم

هذه هى الاختلافات التى اقتضتها حاله الأديرة — وهى تعين مبلغ التباين بين الكنائس هناك والكنائس فى المدن

كنيسة بطرس وبولس أو كنيسة الرسل : تتصل كنيسة أنطونيوس بكنيسة الرسل بدهليز طويل ، يمتد ملاصقاً لكنيسة أنطونيوس من الغرب إلى الشرق ، ويستخدمه الرهبان لقضاء مدة الصلاة فى شهر كيهك (سبعة وأربعة) وذلك لأنه محاط من كل جانب ، ولا تصل اليه الرطوبة

وكنيسة الرسل مقسمة إلى أربعة أقسام متساوية يعلو كل منها ثلاث قباب ، وتنفصل عن بعضها البعض بواسطة حاجزين من الخشب

ارتفاعهما متران ونصف ثم حجاب الهيكل وارتفاعه أربعة أمتار ،وهو من العاج المطعم،ويقال انهصنع فى بلدة اخميم



(صورة تبين الحواجز الخشبية وحجاب الهيكل بكنيسة الرسل)

وأمام الهيكل مصابيح وقناديل كثيرة ، أهمها مصباح عربى ، مصنوع من الزجاج الملون ، ومزين ببعض الكتابات العربية التى تدل على انه صُنِع فى أيام المؤيد

وهناك صور أخرى حديثة مبتاعه من القدس ، ثم صوره قديمة تمثل القديس انطونيوس ، وبجواره حيوان اشعث الشعر مشوه الخلقة — ولعله الشيطان الذى قد نال القديس على يديه كثيراً من العذاب والآلام

أما الهياكل الثلاثة فلا تختلف كثيراً عن هياكل كنيسة انطونيوس ، ويوجد بها على أرضية ذهبية صورة قديمة لسيد المسيح تحيط به الملائكة ، ومكتوب عليها بعض النقوش البديعة ، ولا يعرف

بالضبط متى بنيت هذه الكنيسة ، على ان ڤانسليب يحدثنا عنها [1] ، ولا يذكر انها جديدة مما يدل على انها بنيت قبل سنة ١٦٧٠ بمدة ما [2] ، وليست فى سنة ١٧٧٠ كما يقول شستر [3]

ويظهر انها بنيت سنة ١١٨٥ ش (سنة ١٤٧٠ م) ، وأن الذى بناها هو شخص يدعى لطف الله شاكر ، وهذا بدليل ما هو مكتوب على الكنيسة نفسها ، وبدليل آخر وهو تشابه هذه الكنيسة تشابهاً تاماً مع كنيسة الملاك بدير بولا ، وتلك الكنيسة بناها أيضاً نفس الشخص

ولقد أخطأ هنا كوجردان ، ونسب بناء هذه الكنيسة الى الانبا غبريال السادس [4]

كنيسة العذراء : كنيسة صغيرة يصلى فيها الرهبان فى القليل النادر فكل صلواتهم فى كنيسة انطونيوس أو فى كنيسة الرسل — وهذه الكنيسة بها ثلاثة تقاسيم ، وبها أيضاً حاجز خشبي يفصل القسم الأول عن الثانى ، ويعلوه بعض الصور أهمها صورة أثرية لاجتماع القديسين انطونيوس وبولا

والغريب فى هذه الكنيسة انها مبنية فى الطابق الثانى ، وهذا يخالف الكنائس الأخرى فى المدن وفى الأديرة ، ما عدا الموجود منها فى الحصون

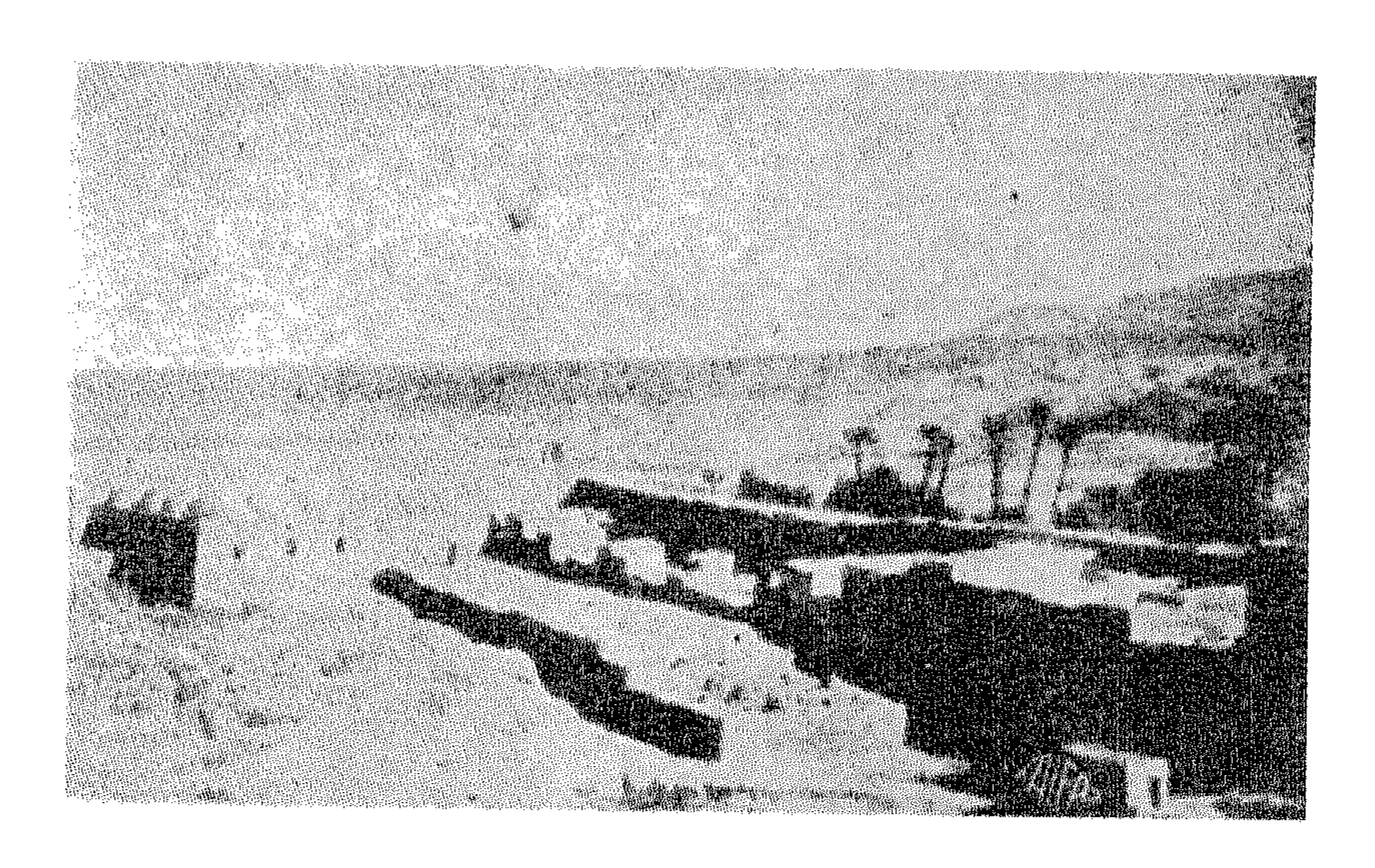
(1) Vansleb : Egypt p 183

(٢) سنة ١٦٧٠ هو وقت زيارته للدير

(3) Chester : Coptic Deyrs p 11

(4) Couvent de St Antoine p 99

الكنيسة الجديدة : يجد الانسان عن يساره عند دخوله الدير ، كنيسة مبنية بجوار السور الشمالى ، وهذه الكنيسة هى أحدث كنائس الدير ، ويقول كوجردان « إن القديس لما ظهر للبطريرك الحالى[1] فى حلم ناهياً أياه عن هدم كنيسته عدل عن ذلك وعوّل على بناء كنيسة جديده فبنى هذه الكنيسة »[2] ولكن شوينفرت ، وقد زار هذا الدير سنة ١٨٧٦ أى بعد سيامة الأنبا كيرلس الخامس بطريركا بنحو سنتين فقط ، يقول : «فى عام ١٨٥٩م ، ابتدأ الأنبا كيرلس الذى ينتسب إلى هذا الدير والذى عاش هناك سنين عديدة كراهب فى عمل عمارة جديدة»[3] منها « مكان الضيوف والمخازن والكنيسة الجديدة»[4]



(الكنيسة الجديدة والقلايات الحديثة)

---

(١) يعنى به الأنبا كيرلس الخامس حيث أنه كان بطريركا فى أيامه سنة ١٩٠١

(2) Couvent de St Antoine p 118

(3) Schweinfurth : Umbetretenen p 175

(4) « « p 175

ولما ان كان البطريرك الذى عاش سنة ١٨٥٩ هو كيرلس الرابع فانه يتضح أن بانى الكنيسة هو الأنبا كيرلس الرابع وليس الخامس كما يقول كوجردان — وذلك هو المعقول لأن الأول ، وقد أقام أبنية كثيرة فى الدير ، لا بد وأنه قد بنى من ضمنها كنيسة لتخليد ذكراه

والكنيسة كما قلنا مبنية على الطراز الحديث ، ذات اثنتى عشرة قبة [1] ، إلا أنها للآن لم تكرس ولم تستعمل ، لأنها غير متجهة إلى الشرق تماماً

المكتبة : لسنا نشك فى انه كان لدير انطونيوس مكتبة قيمة ملأى بالكتب والمخطوطات القبطية والعربيـة ، وذلك لأن قوانين الأديرة تقضى بأن كل ما يكتبه الراهب — سواء أكان نسخاً عن كتاب آخر أو من تأليفه الخاص — فهو ملك للدير بعد وفاته

ولقد كان الرهبان فيما مضى على جانب عظيم من العـلم والتفقه فى أحكام الدين ، وكان وقتهم مقضياً بين المطالعة والنسخ والتأليف ، وبذلك كانت لهم مكتبة أخذت تتزايد شيئاً فشيئاً حتى أواخر القرن الخامس عشر ، حينما أغار البدو على الدير ، فأعدموا كل المخطوطات التى وقعت بأيديهم ، ولم ينجُ من تلك المكتبة القيمة خلا النذر اليسير مما كان مخبأً أو بعيداً عن أنظارهم

واذا كان حرق مكتبة الاسكندرية يُعَدُّ خسارة علمية فادحة ، فان

---

(١) يقول كوجردان أن بهذه الكنيسة تسع قباب فقط (صفحة ١١٨) ولكن هذا خطأ كما يتضح من صورتها المثبتة هنا

اتلاف هذه المكتبة التى كانت تحوى كثيراً من المؤلفات اللاهوتية والعلمية والتاريخية ، لاشك مصيبة أخرى يقابلها العالم العلمى كله بمزيد الأسف

على ان الرهبان عند مارجعوا الى الدير ، واستقروا به ثانية فى القرن السادس عشر استطاعوا أن يكونوا مكتبة ، كانت نواتها تلك الكتب التى نجت من البدو ، فأخذوا ينسخون كثيراً من هذه الكتب القديمة ، ويؤلفون ما استطاعوا

ويقول سيكار انه كان بالدير عند زيارته له « ثلاثة صناديق ملأى بالمخطوطات[1] » وهذا عدا ما كان موجوداً فى قلايات الرهبان

بقيت المكتبة تتزايد وتكبر حتى أصبحت مكتبة عامرة ، الا أن الله ابتلاها بعد البدو برحالة الافرنج ، فلقد وَفَدَ الكثيرون منهم الى مصر ، وذهبوا الى الأديرة خصيصاً لأقتناص الكتب فوُفِقُوا الى ذلك ، واشتروا كثيراً منها ، مما لا يمكن تقديره بمال لقاء بضعة دراهم نقدوها الى بعض الرؤساء الجاهلين

فهذا كوجردان يحدثنا عن انجليزيتين زارتا الدير قبله بقليل لشراء المخطوطات منه[2]

وهذا يوسف السمعانى أمين مكتبة الفاتيكان حضر الى مصر بناء على رغبة البابا سنة ١٧١٥ « للبحث عن مخطوطات قديمة عربية أو قبطية

---

(1) Miss. dans le Levant V p. 155
(2) Couvent de St Antoine p. 20

ليشتريها بأى ثمن كان ، ويضيفها الى مكتبة الفاتيكان»[١] فبعد ان سافر الى دير أبى مقار « حيث وجد عددا كبيراً من الكتب النادرة أخذ منها ما وقع اختياره عليه»[٢] ذهب الى دير انطونيوس « فوجد به ثلاثة أو أربعة مخطوطات جديرة بالفاتيكان ، فاشتراها من أمين الدير بدون علم الرهبان الذين كانوا يعارضون رغم عدم استفادتهم بها »[٣]

وانا لنعد هؤلاء الرؤساء الذين فرّطوا فى تلك المخطوطات لصوصاً خائنين، فلقدبددوا ما سلِّم لهم من ودائع ، وتصرفوا فيما يعد ماسكا للدير لاملكهم الخاص ، ولا يفوتنا أن ننحى باللائمة على هؤلاء الافرنج، الذين بشرائهم تلك المخطوطات من أناس لا يملكونها، أصبحوا شركاءهم فى هذه الجريمة ، اذ كانوا يعلمون وهم يناولون الدراهم للرؤساء باحدى أيديهم ليتناولوا بالأخرى مخطوطات الدير انهم انما يقسمون الغنيمة فيما بينهم

واذا كانت الانجليزيتان اللتان حدثنا عنهما كوجردان ، والسمعانى الذى رافق سيكار ، قد دفعوا للرؤساء ما يظنونه ثمناً للكتب التى سرقوها ، فماذا نقول فى ذلك الرجل الفرنسى الذى يحدثنا عنه شستر بأنه بعد ما استقر بدير أبى مقار، انسلّ فى احدى الليالى الى حيث نفائس الدير من مخطوطات وغيرها ، وحملها الى أعلى الأسوار وألقاها الى البدو المرافقين له ليتسلمها منهم عند خروجه[٤]

(1) Miss.dans le Levant V p. 123
(2) » » » » » p. 124
(3) » » » » » p. 154—155
(4) Chester : Coptic Deyrs p. 2

وهل لنا أن ندلل على انهم كانوا يريدون الحصول على المخطوطات بأى طريقة كانت ، من ان كرزون فى أوائل القرن التاسع عشر يفاخر فى كتابه بأنه بعد أن اشترى بعض الكتب النفيسة ، أراد أن يساوم أمين دير السريان فى مخطوطات أنفس من الأولى فرفض ، فحاول كرزون بكل قواه أن يقنعه ويغريه فلم ينجح ، ولم يجد بعد ذلك وسيلة يستطيع بها أن يبلغ الى أمنيته الا بأن يقدم له خمراً ، فأخذ يعطيه الأمين يشرب حتى لعبت الخمرة بعقله ، واذ ذاك قاده حيث المخطوطات المنشودة التى حملها معه الى بلاد الأنجليز[1]

وليس أدعى إلى الضحك من ذلك الاعتذار الذى يقيمونه مبرراً على ما سرقوه من مخطوطات ، بأن الرهبان لم ينتفعوا بها كما يجب ، فما مثل ذلك إلا مثل السارق ينقضُّ على أحد الرجال فيسلبه ماله حتى إذا ما قُبض عليه ومَثَلَ أمام القضاء ، اعتذر بأن الرجل بخيل لا ينتفع بماله الانتفاع الواجب — فهل هذا عذر يبرر مركزه أمام ساحة القضاء ؟

وإذا كان الرهبان أيام السمعانى أو غيره غير محبين للعلم ولا ميالين له ، فلم ينتفعوا بما عندهم من كتب ، أفلا يأتى اليوم الذى يهبون فيه من غفلتهم ويصحون من رقادهم وإذ ذاك يطلبون مخطوطاتهم ليرتشفوا منها مناهل العلم فلا يجدون لها من أثر ؟

وإذا تذكرنا مع ذلك كله أنه كان من السهل على الأفرنج

(1) Curzon :Monasteries of the Levant. p. 58 – 60.

الانتفاع بالكتب داخل أسوار الدير بدون نقلها إلى بلادهم ، وذلك بدرسها فى الأديرة أو باستخراج نسخ صحيحة منها ، لادركنا أنهم ما أرادوا بأخذ الكتب خدمة العلم ، وانما أرادوا احتكارها دوننا وملء مكاتبهم بها فكان لهم ما أرادوا بأخذ الشيء الكثير — والباحث عن أصل المخطوطات القبطية التي تفيض بها مكاتب الغرب يجد أنها مأخوذة من الكنائس والاديرة المصرية

ذهبنا لرؤية المكتبة الحالية فألفيناها حجرة ضيقة ، تقع بجانب كنيسة السيدة العذراء ، بها كثير من الأرفف مرصوصاً فوقها الكتب بشكل غير منتظم ، ولم نجد بها مخطوطات قيمة تستحق الذكر ، بل كل ما بها مطبوع أو منسوخ عن نسخ لا يرجع أغلبها إلى عهد بعيد ، أما مخطوطات الدير ، التي تبقّت بعد ما أتافه البدو وأخذه الأفرنج ، فبعضها موجود فى صناديق بالحصن « والبعض الآخر نقله أحد البطاركة إلى القاهرة »[1] حتى لا يكون تحت رحمة الرؤساء

ويربو عدد المجلدات الموجودة بالدير عن الألف ، ما بين أناجيل وتفاسير للأناجيل ، وتعاليم دينية ، وقواعد اللغة القبطية ، وكتب تاريخية تشمل تاريخ الآباء القديسين وغيرهم

ويوجد دائما فى أوائل الكتب الموجودة بالدير أو فى أواخرها صيغه متقاربة نثبت هنا أكثرها وروداً حتى يستطيع القارىء أن يتفهم منها قوانين الدير فيما يتعلق بملكية الكتب :

---

(1) Schweinfurth : Umbetretenen p 172.

« وقفاً مؤبداً ، وحبساً مخلداً ، على دير أبينا القديس العظيم انطونيوس فلا أحد معه حل ولا اجازه أن ينزله من الدير ، ولا يقطع هذه الوقفيةولا يمسحها ، ولا يتملك عليه فى قلايته، لكن يقرأفيه وعند نزوله من الدير يعطيه الى القصر ، ومن يخالف ذلك تكون عليه الحروم ، وعلى بنى الطاعة تحل البركة والشكر لله دائما »

القلايات : تسمى صومعة الراهب قلاية ، وهذه الكلمة دخيلة فى اللغة العربية ، وقد انتقلت اليها من اللغة اليونانية Koilon ، ويرادفها بالانجليزية cell وبالفرنسية cellule ، ولكل من هذه الكلمات الأجنبية معنيان « قلاية الراهب » و « حجرة المسجون » ، وذلك لأن قلاية الراهب كحجرة المسجون كلاهما محكم القفل ، وقد يمر على الموجود فيهما الأيام والشهور لا يرى فيها وجه مخلوق

والقلاية قد تكون مغارة طبيعيه فى الجبل كمغارتى انبا انطونيوس وانبا بولا وغيرهما ، وقد تكون حجرة مبنية كقلاية بولس البسيط تلميذ القديس انطونيوس ، وكالقلايات المستعمله الآن

ولقد كانت جبال القلالة فيما مضى زاخرة بقلايات الرهبان من مغاور طبيعية ، وحجر مبنية ، ويُرَجَّح أن هذه السلاسل من الجبال سميت باسم القلاله نسبة الى القلالى التى كانت تفيض بها

والقلايات فى دير انطونيوس حديثةوقديمة ، والحديثةمنها تُكَوِّن

صفين خارج سور الجوهرى بناهما الانبا كيرلس الرابع [1] ، أما القديمة فهى داخل ذلك السور ، الا انها ليست كلها مبنية فى عصر واحد ، كما انه ليس من بينها ما يرجع الى عصر بناء الدير للمرة الأولى ، اذ أن هذه قد سقطت بمرور الزمن ، ثم قام غيرها على انقاضها

والقلايات الحديثة والقديمة مبنية على طراز واحد ، وتتكون من طابقين ، فالأسفل منهما به حجرتان أو ثلاث ، لا يكاد يتبين الانسان فيها شيئاً وسط النهار الساطع ، وذلك لعدم وجود منافذ واسعة تسمح بادخال الضوء الكافى ، ولا يوجد بأرضها خشب أو بلاط كما هو الحال فى أبنيه الفلاحين

وقلّ أن يأتي الراهب عملا أو يقضى وقتاً فى ذلك الطابق ، فكل عمله ووقته يقضيه فى الطابق العلوى الذى يصعد اليه الانسان بواسطة سلم ضيق ينتهى بفناء صغير ، وينفتح فيه حجرتان أو أكثر ، بها فراش الراهب الذى يتكون من مرتبة ملقاة على حصير فوقها غطاء صوفى ، وبقية الأثاث ، وأهمه أدوات الطهى وفناجيل القهوة والشاى وبعض الوسادات للجلوس ، يتوسطها طاولة ارتفاعها نصف متر يستعملها الراهب للكتابة وهو جالس القرفصاء

وبالجملة فان القلاية منزل مستقل لو كان مبنياً على الطرق الصحية ، مزوداً بالأثاث الضرورى لكان أصلح لراهب ينشد فى دنياه حياة فكرية سامية .

(1) Schweinfurth: Umbetretenen p 175

الحصن : لقد كان وجود الأديرة بعيداً عن المدن ، فى وسط تلك المجاهل الواسعة سبباً فى تكييف بنائها بشكل الحصون الضخمة التى يرتد الطرف أزاءها حسيراً ، وليس ذلك فقط ، بل كان سببا فى تشييد حصن منيع فى قلب كل دير ياجأ إليه الرهبان ، إذا ما اكتسح الأعداء أسوار ديرهم .

وتركيب الحصن أو القصر كما يسميه بعضهم ، يدعو الى الاعجاب فاذا نظرت إليه عندما يكون مقفلا لا ترى له باباً بالمرة ، ولا يبدو لك إلا كبناء مرتفع كالطابية مثلا ، والواقع أن بابه الذى يدخل منه الانسان لا يفتح فى الطابق الأول شأن الابنية العادية بل يفتح فى الطابق الثانى إذ يوضع أمام الباب عارضة خشبية تتحرك على مفصلات ضخمة فى مستوى رأسى ، وترتكز على عتبة الباب ، فاذا نزلت العارضة كونت قنطرة متحركة واتصلت ببناء عالٍ يُقام تجاه الحصن .

منظر الحصن والقنطرة المتحركة

ولدخول الحصن يصعد الانسان إلى البناء المواجه له بواسطة سلم أُقيم لهذا الغرض ، ثم يسير على القنطرة المتحركة، ويمر بالباب فيجد نفسه بالدور الثاني — والحصون رغم عدم استعمالها الآن فى شىء، لاتزال قائمة للبوم دليلا ساطعاً على ما كان يحيط الرهبان من مخاطر ، وما كانوا يقاسونه من عذاب

وكان إذا حصل هجوم على الدير ، يدخل الرهبان هذا الحصن بعد أن يجمعوا إليه كل ثمين ، ويأخذوا معهم كل مايستطيعون حمله من أكل وشموع ووقود وغيرها ، حتى إذا ما دخلوه ، رفعوا القنطرة بواسطة جنزير مربوط فى نهايتها ، يدور حول بكرة مثبتة فى الدور الثالث ، وإذ ذاك يقفل الباب قفلا محكما ، ويصبح الحصن قلعة منيعة تصعب مهاجمتها

ولقد يتساءل المرء كيف يمكنهم جلب الماء حال اقامتهم فى هذا الحصن، حيث لا يمكنهم الدنو من عيون الماء، وحيث لاتوجد آبار ارتوازية كما هو الحال فى أديرة وادى النطرون ، فنقول أن الرهبان كانوا قد احتاطوا لذلك بأن مدوا أنابيب فخارية تحت الأرض تصل عين الماء بصهريج فى الحصن ، وبذلك كان يمكنهم الحصول على حاجتهم من الماء آمنين أعين الرقباء

وكان فى امكانهم البقاء فى الحصن مدة طويلة لا يشعرون فيها بعوز لشىء ما ، فالماء متوفر والأكل مخزون والكنيسة هناك موجودة يستطيعون فيها أن يقيموا الشعائر الدينية، وأن يبتهلوا إلى الله أن يزيح عنهم كابوس المحاصرين

والحصن فى دير أنطونيوس لا يزيد فى مساحته عن المائتى متر مربع وفى ارتفاعه عن الخمسة عشر متراً ، وبه ثلاث طبقات بالأعلى منها هيكل على اسم الملاك ميخائيل — وإذا استثنينا دير بولا فان الحصون فى الأديرة التى رأيناها تشتمل دائماً على كنيسة باسم ذلك الملاك ويرجع ذلك إلى الاعتقاد بأن الملاك هو حامى المعذبين من أجل الدين

وهناك بالحصن صناديق تحوى عدداً ليس بالقليل من المخطوطات والكتب القيمة كما قلنا سابقاً

ومن الآثار الهامة الموجودة به ترس حبشى مصنوع من جلد فرس البحر يقولون مبالغين فى متانته ان رصاص البنادق لا يستطيع اختراقه ، كما يوجد أيضاً مصباح قديم كبير القيمة مصنوع من البرنز يرجع تاريخ صنعه الى عهد بعيد يقارب عهد انشاء الدير ، ومنقوش عليه صور متعددة تمثل المسيح فى جميع أطوار حياته

وهناك أيضاً صليب فضى كبير يستعمل فى الاحتفالات ، ومظله كبيرة كانوا يظللون بها الانجيل عند طلوعهم الى المغارة للاحتفال بعيد القديس سنوياً [(١)]

قصر الضيوف : يوجد بالدير مكان بديع مُعَد لسكنى زوار الدير مدة اقامتهم به ، بناه الانبا كيرلس الرابع حوالى سنه ١٨٥٩ [(٢)] ، وقد زوّده بكثير من المنقولات الانبا تيموثاوس مطران القدس السابق عند

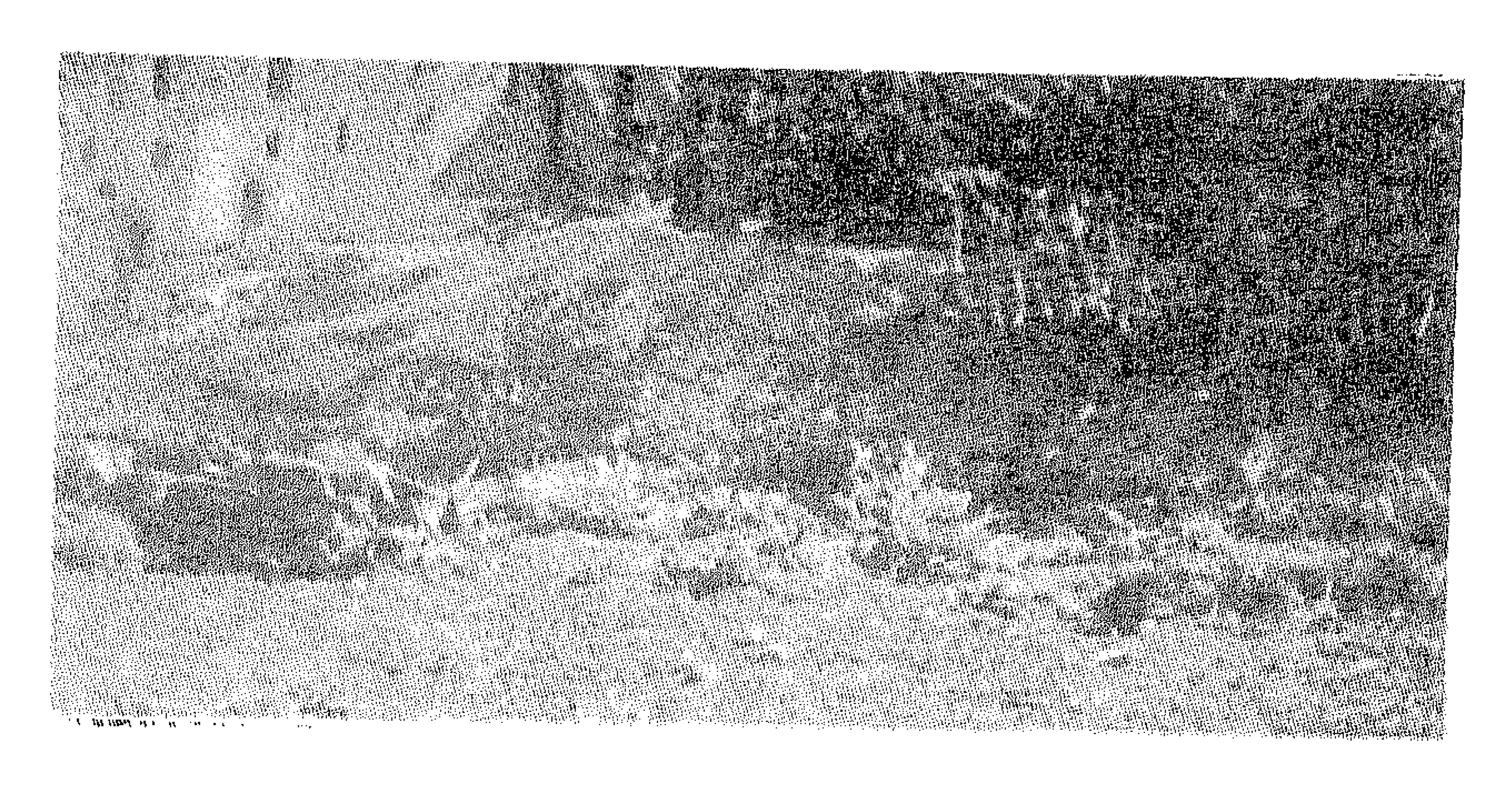
---

(1) Chester : Coptic Deyrs p 10
(2) Schweinfurth : Umbetretenen p 175

ما كان ناظراً على الدير حوالى سنة ١٩١٢ ، ويتكون القصر من أربع غرف وبهو مستطيل

ويستطيع زائر اليوم أن يجد فيه كل أسباب الراحة ، أما قديما فلم يكن بالدير سوى « حجرة واسعة للضيوف على جانبيها من الداخل مصطبتان لوضع الأشياء وبجوارها مكان مخصص لطهى الطعام »[١] وكان الضيوف « ينامون على فراش ملقى على الأرض »[٢]

مخزن الوقود : يجد الانسان الى يساره مباشرة عند دخوله الدير مخزن الوقود ، ويبلغ فى مساحته نحو الفدان ، ويقع فى أخفض جزء من الدير ،



(مخزن الوقود وخلفه القلايات)

ولتخزين الوقود يذهب الرهبان فى وقت معلوم من السنة ومعهم الجمال الى جهات بعيدة لجلب النباتات والشجيرات الجافة ، وقد يصلون فى سيرهم هذا إلى عيون بردع البعيدة ، وقديماً كانوا يزيلون البناء المشيد أمام الباب مرة واحدة كل سنة خصيصاً لادخال الوقود[٣] وذلك لأنه كان من الهين

(1) Hartmann : Geschichte p 1227
(2) Coppin : Guerre Ste p 707
(3) Jullien : Souvenirs Chretiens p 41

عليهم أن يزيلوا البناء ويعيدوا تشييده من أن يرفعوا الحطب بواسطة الساقية ثم ينقلونه إلى المخزن

الجو : بناء ضخم عالٍ به ثلاث طبقات مخصصة لحفظ ما يحتاج اليه الدير سنوياً من زيوت وشموع ومواد غذائية خلاف الحبوب ، وربما كانت تسميته بالجو راجع لكونه أعلى بناء فى الدير بعد الحصن ، ويسمى أيضاً بالروبّيتيه لأنه فى عهدة أمين الدير الذى يسمونه الروبّيته

مخزن الغلال أو الدكسار : يقع تحت الساقية تماما ، وقد بنى فى ذلك المكان حتى لا ينال الرهبان عناء فى تخزين ما يرد لهم من الحبوب والبقول ، فهم يرفعونها بالساقية ، ثم يلقونها الى الحجر السفلى

طاحون الغلال : ومتى مسّت الحاجة أتوا بالحبوب من قمح أو أذرة ، حيث يستخلصون منها المواد الغريبة ، ثم يذهبون بها الى الطاحون الحجرى الذى لا يدار بغاز أو كهرباء بل بواسطة حصان الدير

ويطحن الرهبان مقاديرا كبيرة من الحبوب تكفيهم وتكفى العرب ، الذين كثيراً ما يطرقون باب الدير طالبين بعض الدقيق

الفرن : الفرن فى الدير كالأفران العمومية فى المدن ، ولا يستخدم الرهبان أحداً من الخارج لعمل الخبز ، بل يعملونه بأنفسهم مرتين كل أسبوع

المائدة : يتناول الرهبان عادة طعامهم فى قلاياتهم منفردين الا فى أيام

الصوم الكبير ، فانهم يشتركون فى تناوله على المائدة العمومية التى تقع فى حجرة مستطيلة ضيقة تبلغ خمسة عشر متراً فى طولها ، وأربعة أمتار فى عرضها ، يعلوها سطح مُقبَّب أشبه بسطح عربات السكة الحديد ، وليس بها الا نافذتان لا تكفيان لاعطاء الضوء اللازم



(المائدة الحجرية)

وتقع المائدة وسط الحجرة ، وترتفع عن الأرض بمقدار متر واحد ، وتمتد بامتداد الغرفة ، ويقع على كل من جانبيها مقعد حجرى طويل يرتفع نحو نصف متر ، يجلس عليه الرهبان وقت تناول الطعام

هذا هو الجزء الأمامى للدير ، وأكثره مشغول بالمبانى ، أما الجزء الخلفى فبعضه مزروع ، والآخر بلا نبات أصلا ، وليس به من المبانى سوى كنيسة واحدة متوسطة الحجم ، وقبر للموتى

كنيسة الانبا مرقس : تقع هذه الكنيسة وسط الحديقة بعيدة عن

المبانى ، وهى مكرسة على اسم الانبا مرقس ، وهو راهب من رهبان الدير لايزال قبره موجوداً فى الكنيسة ، ولا يعلم فى أى الأوقات عاش كما انه لا يعرف إن كان قد بنى الكنيسة بنفسه ، أم بنيت بعد مماته ، على ان ڤانسليب يذكرها فى كتابه ، مما يدل على انها أُنشئت قبل زيارته للدير سنة ١٦٧٠ [1] ، وليس فى أواخر القرن الثامن عشر كما يقول شستر [2] .



(كنيسة الانبا مرقس وسط الحديقة)

ويقارب شكلها شكل كنيسة الرسل الموجودة بنفس الدير ، فلها تقاسيم أربعة يعلوها اثنتا عشرة قبة ، كذلك تفاصيلهما الباقية متقاربة مما يدل على تقارب عهد بناء الاثنتين

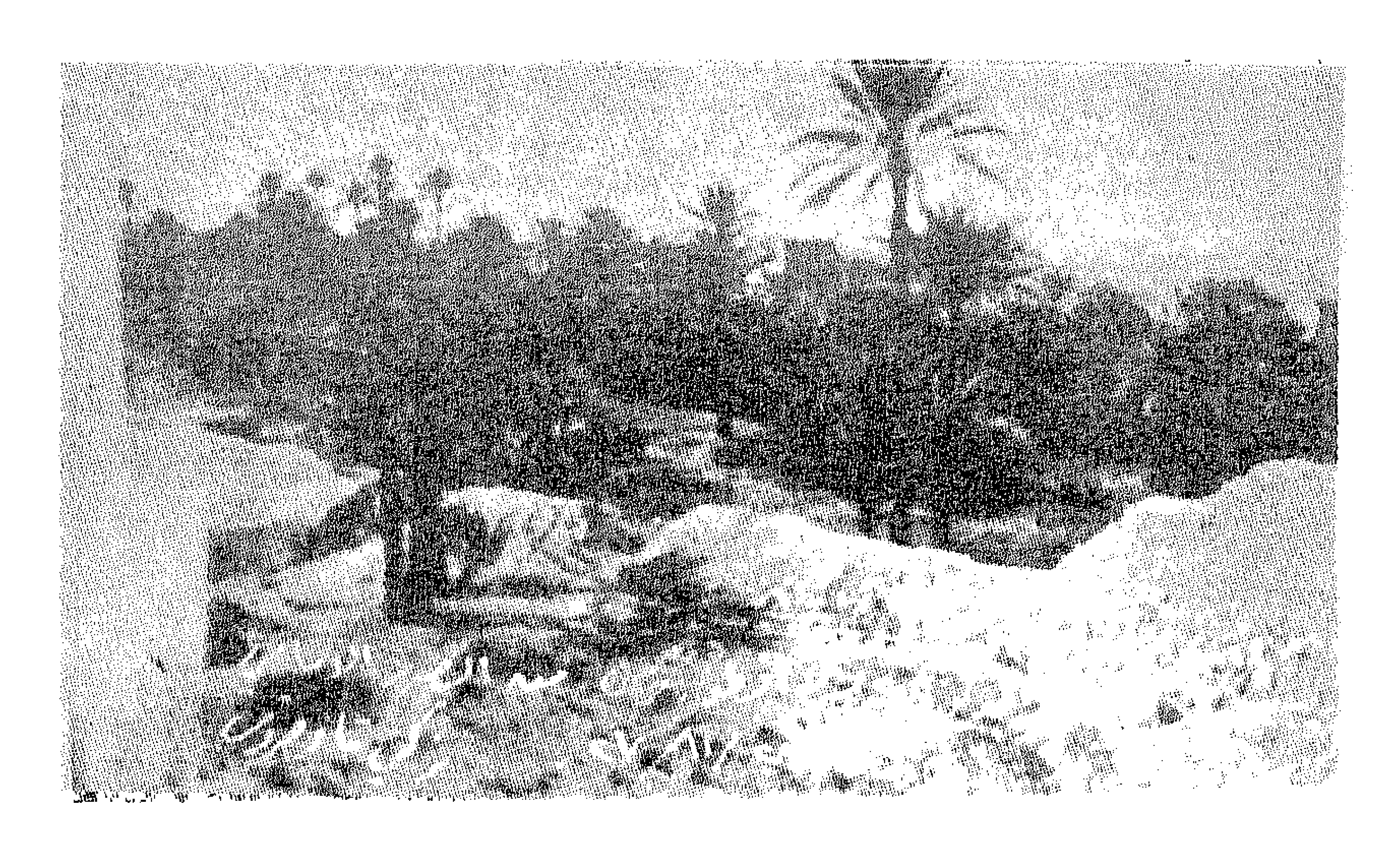
التافوس : كلمة يونانية معناها قبر ، وقد أخذها الأقباط كما أخذوا

(1) Vansleb : Egypt p . 184

(2) Chester : Coptic Deyrs p 11

كلمات أخرى كثيرة فاستعملوها فى لغتهم ، ويقع تافوس دير أنطونيوس فى الجزء الغربى منه ، ويضم بين جوانبه مئات الرهبان الذين قضوا نحبهم فى الدير

الحديقة : تضم أسوار الدير حديقة مزدانة بالأشجار والكروم ، كانت وما زالت موضع اعجاب الوافدين على الدير ، وذلك لوجودها فى تلك المجاهل الواسعة بين الصخور والرمال الجافة ، محتوية فى الوقت نفسه على مختلف أنواع الفواكه المهمة ، كالخوخ والبرتقال والكمثرى والليمون والزيتون وكروم العنب وأشجار الخروب النادرة الوجود ، وأشجار النخيل الباسقة المرتفعة فوق أسوار الدير ، والمنتشرة فى كل ناحية



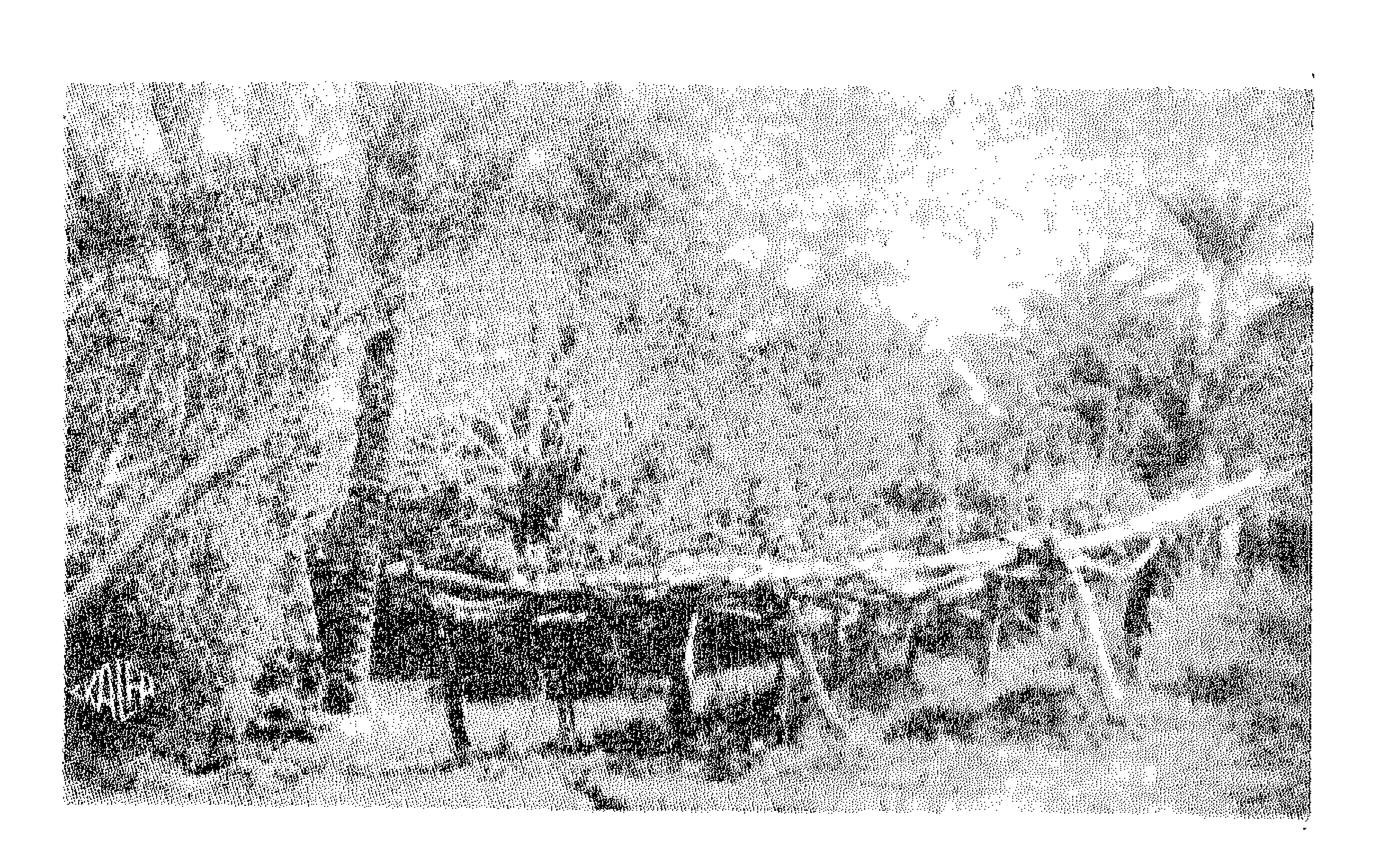
(منظر للحديقة)

منه ، حتى لقد قدّرها بعض الرحالة بألف شجرة[1] ، ثم إلى جانب هذا كله ، فى أحواض مقسمة تقسيما هندسياً ، تجد كل أنواع الخضروات

(1) Mem. His & Geog. p 154

ولقد يكون لمثل هذه الحديقة شأن حقير فى المدن ، أما فى تلك الأماكن النائية فلها قيمة عظمى لا تُقَدَّر ، إذ لولاها لما قُدِّر للرهبان فى الدير أكل الخضروات أو رؤية الفواكه ، وكيف يستطيعون ذلك والقافلة تستغرق فى الوصول اليهم أياماً طويلة تكفى لاتلاف مثل هذه الأشياء ؟

وهم لا ينتفعون بالأثمار فى غذائهم فحسب ، بل يأتون بما يتبقى من العنب ، فيعصرونه ويستخلصون منه النبيذ الجيد المعروف بالاباركة لاقامة الشعائر الدينية



(كروم العنب وأشجار النخيل)

ولكثرة ما عندهم من شجيرات الزيتون فهم يجففونه ويطحنونه بمطحنة الجبس ، ثم يقومون بعصيره ليستخلصوا منه الزيت الذى يستعملونه فى ايقاد المشاعل ، ومن الغريب أن هذا الزيت مر المذاق لا يصلح للطعام ، ولعل ذلك راجع إلى خطئهم فى طريقة عصره

وتروى الحديقة بسهولة بدون احتياج إلى مضخات رافعة ، نظراً لأن سطحها ليس مستوياً بل ينحدر من السور الخلفى حتى الأبنية ، ولأن العين أيضاً موجودة بأعلى نقطة بالحديقة

عيون الماء : عيون الماء ولا شك ، هى التى عيّنت موقع الدير ، فلولاها لما أمكن لأنبا أنطونيوس قديماً أن يسكن تلك المغارة التى عاش فيها معظم أيام حياته ، ولولاها لما استطاع الرهبان أن يقيموا فى تلك الأماكن يوماً واحداً .

وإذا نظرنا إلى أديرة الصحراء الشرقية ، المهجورة منها والمأهولة ، لوجدنا أنه ما من واحد منها إلا وهو مشيد بقرب عين من العيون — فهذا دير بولا مبنى على عينين تجريان من سفح الجبل ، وهذا دير حنا الدرجى كان مبنياً على بئر أبى الدرج ، ثم دير بخيت على العين المسماة باسمه ، وأخيراً دير بردع على عيون بردع العذبة

فما حدث فى هذه الأديرة كلها ، هو ما حدث بالضبط فى دير أنطونيوس ، إذ استقر أكثر الرهبان بجوار العين ، ثم أرادوا التعاون فيما بينهم ، فأقاموا السور حول قلاياتهم

ويوجد بدير انطونيوس الآن عين رئيسية تنبع من الجبل من مغارة طويلة ، كانت قبلا « خارج الدير تدخل فى شكل قناة من تحت السور » (١) فلما جاء الأنبا كيرلس الرابع ، أدخلها ضمن حدود الدير ، حتى لا يكون للعرب أى سيطرة عليها

(1) Coppin : Guerre Ste p 310

وقديماً كان الدير يُسْقى من ثلاث عيون كلها خارجة[1] ، تقع إحداها الآن داخل حوائط الدير فى الجزء الخلفى ، ولكنها سُدَّت لأن اندفاع المياه فى العين الرئيسية قد ازداد بسدها ، مما يدل على أن منبعهما واحد ، والثانية تقع وسط شونة المعيز بجوار بعض أشجار النخيل ، أما الثالثة فهى العين الرئيسية بالدير ، منها يستقون ويسقون الحديقة .

وهم لا ينقلون ماء الشرب فى قلل أو دوارق ، بل فى أوانى فخارية كبيرة الحجم يظهر على جدرانها بعد قليل من الوقت رواسب ملحية ، مما يدل على تشرب هذه المياه بالأملاح شأن المياه المعدنية

ولقد يكون طعمها غريباً لا يستعذبه سكان المدن ، أما هناك فطعمها مقبول خصوصاً للزائر الذى قضى ثلاثة أيام فى الصحراء يشرب ماء القِرَب الآسن

(عين الماء الرئيسية)

وتروى الحديقة بواسطة قنايات تمتد من العين ، وتمر بجميع أجزاء

(1) Mem. His & Geog p 154 & Hartmann Geschichte p 1128

الحديقة ، وتنتهى بالجزء الأمامى من الدير، حيث تمر من تحت السور لتصب فى المنخفض الواقع أمامه

وماء العين يزيد عن حاجة الدير، إلا أنهم لاينتفعون بهذه الزيادة نظراً لوجو دجهات حجرية كثيرة لاتصلح للزراعة، أهمها الجزء المعروف بين الأسوار وشونة المعز

وبين الأسوار يقع بين الأسوار القديمة والحديثة ، ولم يضمه الأنبا كيرلس الرابع للدير لغرض توسيع الأراضى المنزرعة فيه ، وإنما أضافه بقصد إدخال العين الرئيسية والعين الأخرى ضمن محتويات الدير

أما شونة المعز فلها حكاية غريبة يقصها الرهبان، نرويها هنا مرجحين صحتها .

« لما ذهب الانبا كيرلس فى مأموريته لبلاد الحبشة بناءً على طلب الخديوى سعيد باشا ، عهد الى القمص بولس أمين الدير وقتئذ أن ينوب عنه حال غيابه فى الأشراف على الدير ، وعمل التصميم اللازم للبناء ليُعمل على نفقة الحكومة كما ذكرنا ، فانتهز القمص هذه الفرصة ، وأراد أن يدمج ضمن البناء صخرة مرتفعة، كان يعتليها العرب فى بعض الأوقات لتهديد الرهبان ، فبنى لذلك سوراً ضم هذه الصخرة ، وضم معها مساحة واسعة كونت الجزء المعروف بشونة المعيز

وقد كان هذا عملا طائشاً ، اذ صُرفت مبالغ طائلة لدرء خطر قليل الوقوع ، فما حضر الانبا كيرلس من الحبشة ، ورأى مافعله القمص حتى همّ بالبطش به لولا انه هرب من وجهه

وقد روى لنا العرب ونحن بالطريق حكاية أرادوا بها الافتخار بشجاعة أسلافهم وباستماتتهم فى سبيل حماية من ركن اليهم ، نثبتها هنا نظراً لعلاقتها بذلك الموضوع ، قالوا « كان الانبا كيرلس مرة فى الدير يشرف على بعض الأعمال هناك ، فتصادف أن قام راهب يدعى القمص بولس بعمل أثار غضبه ، فلما شعر القمص بهذا ذهب لعرب القافلة ، وطلب اليهم أن يسمحوا له بمرافقتهم الى المدن فوعدوه بذلك ، وفى صباح اليوم التالى بدأوا السفر بدون أن يُشعِروا أحداً بذلك ، فلما أحسَّ البطريرك بما فعلوا ، أمر الفعلة وبعض البدو بجوار الدير بالالحاق بهم ، وأخذ القمص منهم والرجوع به ، فتبعهم هؤلاء حتى لحقوا بهم ، ولما طلبوا اليهم تسليمه ، أبوا قائلين انهم لا يستطيعون التخلى عمن ركن اليهم واحتمى بهم ، ولو أفضى ذلك الى موتهم عن آخرهم ، فلما رأوا تصميمهم هذا رجعوا للبطريرك خائبين »

وهذه الرواية تؤيد تمام التأييد تلك التى سردها لنا الرهبان

وفى الوقت الحاضر لا تستخدم تلك المساحة الكبيرة التى قد تبلغ الستة الافدنة فى شىء الا فى حفظ المواشى واغلبها من المعيز ، ومن هذا كان اسمها المعروف

القديس انطونيوس

مغارته : لم يسكن القديس فى المكان الذى يشغله الدير الآن ، نظرا لتعرضه لانظار المارة من عرب وغيرهم ، بل عمد الى مغارة منزوية من مغارات الجبل الطبيعية فعاش فيها بعيداً عن صخب العالم وضوضائه

رغبنا فى زيارة تلك المغارة فخرجنا من الدير فى الساعة التاسعة من يوم الاربعاء ١٦ نوفمبر، وقد اتجهنا الى ناحية الجنوب الشرقى ، واخذنا فى الصعود فى طرق غير ممهده تبعثرت فيها الحجارة، فما سرنا ثلث ساعة حتى بلغ منا الاعياء مبلغاً عظيماً ، فانتهزنا وجود أرض مستوية وجلسنا عليها لنستريح قليلاً

وقد لفت أنظارنا فى تلك البقعة وجود قطع كثيرة من الحجارة مستندة على صخرة عالية ، ومرصوصة رصاً هندسياً مما لا يجعل مجالاً للشك فى أنها من صنع الانسان وليس للطبيعة يد فى عملها ، وتدل بقاياها أنها كانت مسكناً مكوّناً من حجرتين طولهما نحو سبعة أمتار، وقد كان يسكنهما ، كما علمنا من الرهبان وكما يذكر كثير من الرحالة[1] ، تلميذ القديس أنطونيوس يُدعى بولس البسيط[2]

وبولس البسيط هـذا كان ذا نفس وديعـة وقلب طيب برىء ، وكان متزوجاً بأمرأة سليطة استغلّت طيبة قلبه ووداعة نفسه استغلالاً سيئاً ، فتصادف مرة أن دخل منزله فوجدها مع رجل لا يعرفه ، فداخله الشك فى أمرها ، وترك لها المنزل ، وذهب لساعته ووجهته الصحراء حيث يسكن القديس أنطونيوس ، وهنالك عاش على مقربة منه متنسكا عابداً شديد التقشف والزهد حتى أنه كان يقضى ثلاثة أيام ممتنعاً عن الطعام وفى بعض الأحيان كان يقضى الأسبوع كله صائماً

---

(1) Miss. dans le Levant. V p. 187
(2) Paradise of Palladius vol I p 183-89

وليس هذا من الغرائب فان الثرابيوته كما يحدثنا الفيلسوف اليهودى فيلون ، كانوا لا يأكلون إلا أكلة واحدة يومياً عند غروب الشمس ، وكثير منهم كانوا يمتنعون عن الأكل لمدة ثلاثة أيام وبعضهم لمدة ستة أيام (١)

ويقول پالاديوس — وهو راهب زار مصر حوالى سنة ٤٠٠ للميلاد وكتب تاريخاً شاملاً للنساك — عن بولس البسيط « أن القديس أنطونيوس أخذ يجربه حتى رأى بعد أشهر قليلة أن روحه كاملة أمام الله ، وانه كان متناهياً فى البساطة وأن القوة العلوية تساعده » (٢)

وأحسن دليل على تناهى بساطته ما كان يتذرع به من الوسائل فى استجابة طلباته ، ويُروَى أنه أمر مرة شيطاناً بالخروج من انسان أتاه لهذا الغرض ، فلما لم يذعن الشيطان لأمره وقف على حجر ، وأقسم أنه لن ينزل من فوقه رغم الحرارة والبرودة التى تناله ما لم يترك الشيطان ذلك الرجل ، فما كان منه بعد ذلك إلا أن تركه (٣)

ولبساطته هذه كانت القوة العلوية تساعده بأن تجعله واسطة فى شفاء الكثيرين ، ولذلك فقد كان القديس أنطونيوس يرسل اليه بعض الذين يفدون اليه من المرضى لكى يشفيهم

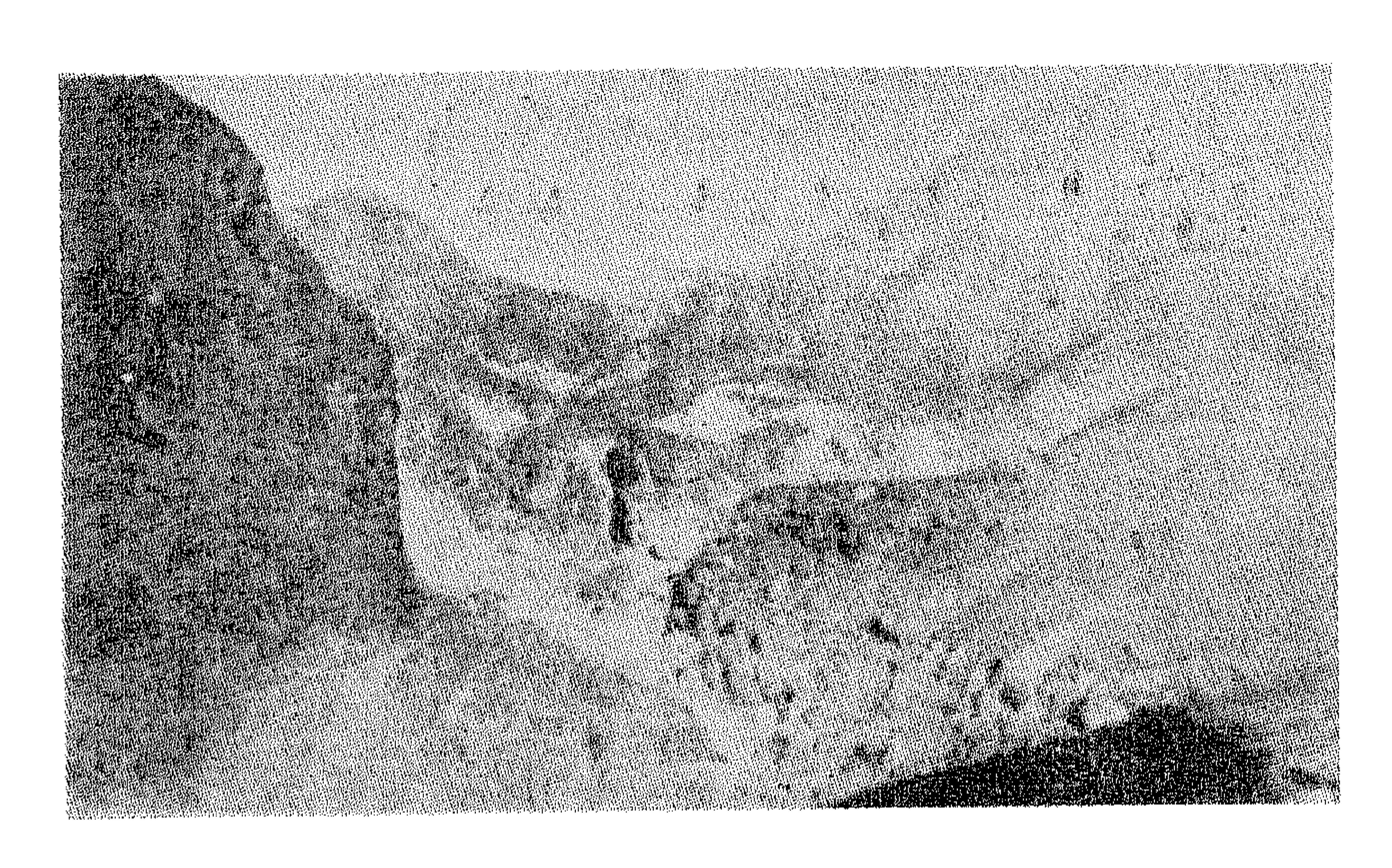
تركنا أخيراً هذه القلاية التى مثّلت لنا بوجه التقريب تلك القلايات التى كان يبنيها النساك فى العصور الأولى ، واستأنفنا سيرنا يتقدمنا أحد الرهبان صاعداً بخفة الغزلان ونحن نتبعه نجرر أرجلنا بصعوبة ، والمغارة

---

(1) Lausiac History vol I p 188
(2) Paradise of Palladius Vol. I p 187
(3) « « « vol I p XLVI-XLVII

أمامنا ، تختفى تارة وتظهر أخرى حتى كانت الساعة العاشرة والنصف فمكثنا أمامها مستلقين على ظهورنا من شدة التعب والاعياء .

والحق يقال اننا ما رأينا فى حياتنا طريقاً أشق ولا أخطر من هذا ، فهو غير ممهد لا يتميز فى شيء عن بقية سطح الجبل حتى ليسهل ضلال الانسان فيه، كما حدث لأحدنا حال نزوله إذ تأخر عن بقية زملائه، وسار فى طريق غير الطريق المعروف ،فاعترضته صخرة كبيرة كاد يسقط من فوقها لولا أن رآه أحد الرهبان فأشار عليه بالوقوف ودلَّه على الطريق



(الطريق الى المغارة)

وكان من الواجب أن يكون طريق تلك المغارة ممهداً ليتمكن الزائر من الصعود اليها دون تعب أو عناء ، وليس هذا بالأمر العسير على من بيدهم مقاليد الأمور ، فقد شاهدنا أثناء زيارتنا لمدينة اريحا بفلسطين ديراً يدعى ديركورنثون مشيداً على جبل عالٍ فى نفس المكان

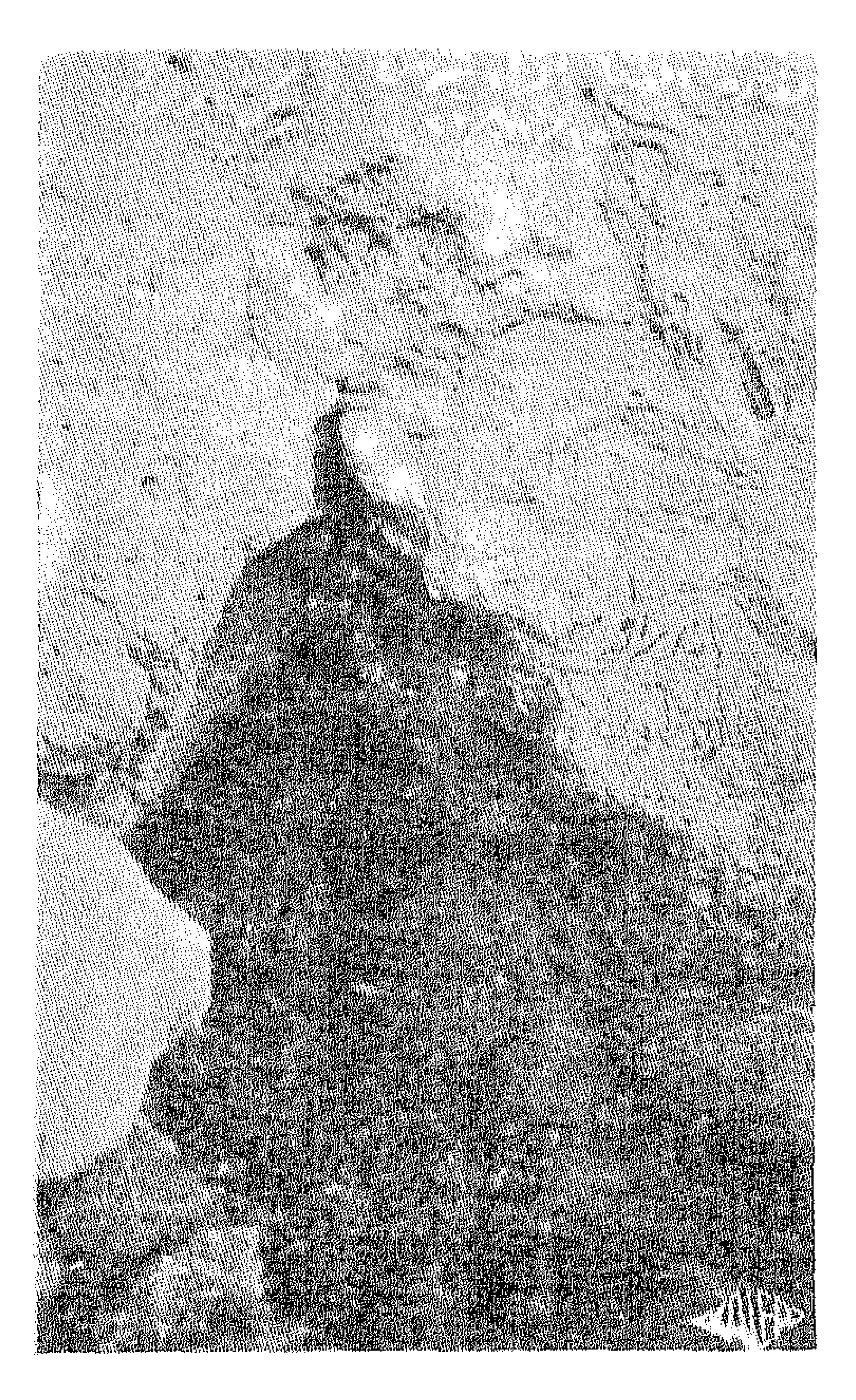
الذى صام فيه السيد المسيح الأربعين يوماً ، ومع أن الجبل الذى يقع عليه الدير أشد انحداراً من الجبل الذى توجد به مغارة القديس انطونيوس ، الا أن الصعود اليه أصبح فى غاية السهولة بفضل الطريق الممهد الذى أنشأته طائفة الروم هناك ، وجعلوه معرجاً بحيث يسير الزائر لليمين تارة ولليسار تارة أخرى حتى يصل الى أعلى الجبل ، بدون أن يناله جزء من التعب الذى قاسيناه فى سبيل الوصول الى المغارة

ولكن هى الفوضى التى استحكمت حلقاتها علينا ، والخمول الذى جعلنا لا نهتم بمثل هذه الآثار المقدسة التى تفوق غيرها فى الأهمية ، وفى نظرنا ان هذه المغارة لو كانت تابعة لطائفة أخرى خلاف الطائفة القبطية ، لكان لها شأن غير شأنها الحاضر ، ولأصبحت مزاراً هاماً يقصده كثير من السائحين والزائرين

بعد أن استرحنا قليلا قمنا والخشوع يتملكنا ، والرهبة تملأ نفسينا لندخل تلك المغارة التى سلخ فيها القديس زهاء نصف قرن من الزمان

وما وقعت أبصارنا عليها حتى رجعت بنا الذكرى الى ستة عشر قرناً خلت ، الى الأيام التى كان يعيش فيها ذلك القديس أبو الرهبنه ، ثم سبح بنا الخيال فتصورنا أمامنا ذلك القديس ، وقد أضناه التعب وأقعدته الشيخوخة صاعداً الى تلك المغارة ، نازلا منها يتصبب جسمه عرقاً ، حاملا على كتفه جرة الماء بعد أن ملأها ليستقى منها

والمغارة كما رأيناها ، عبارة عن تجويف فى قلب الجبل كونته الطبيعة ، وليس للانسان يد فى تكوينه أو هندسته ، ويبلغ ارتفاعه نحو



(مدخل مغارة انطونيوس)

متر ونصف يدخله المرء مطاطئاً رأسه وعرضه لا يزيد عن ثلاثة ارباع المتر، ويبلغ طول هذا التجويف نحو العشرة الامتار، وهو ينتهى بحفرة كروية الشكل تقريباً لا يزيد حجمها عن العشرين متراً مكعبا وهى التى كانت مأوى ذلك القديس العظيم.

وقد وجدنا فيها مذبحاً خشبياً لاقامة الشعائر الدينية فى اليوم الثانى والعشرين من شهر طوبة (٣٠ يناير) من كل سنة حيث يحضر الرهبان لاحياء ذكرى القديس

وأرض المغارة تكاد تكون مستوية، أما سقفها فغير منتظم وبه فتحة ضيقة تمدها بضوء ضئيل خافت

وقديماً كانوا يتعمدون فى بناء المعابد أن يقل النور فى اجزائها كلما ابتعدت عن الباب حتى يكون النور فى هيكل الآله ضئيلاً للغاية، وذلك لكى يُدخلوا الرهبة فى النفوس، إما هنا فلقد كان النور بطبيعته ضئيلاً مما جعلنا نشعر برهبة عظيمة زادتها ذكريات كثيرة ازدحمت فى مخيلتنا،

عند وقوع أنظارنا على تلك المغارة التى اصطفاها لنفسه ذلك الجبار العظيم

فأى جبار كانت له ارادة انطونيوس وعفته ، فلقد هجر العالم تاركا المال وقد كان لديه منه الشيء الكثير ، والأخت وقد كانت له الوحيدة بعد وفاة والديه ، ضاربا فى قلب الصحراء حيث لا زاد ولا ماء ، ساكنا فى مغارة ضيقة اشبه بقبور الموتى منها بمساكن الاحياء ، واى عظيم كان له تأثير انطونيوس فى حياته وبعد مماته ، فلقد اختط لنفسه حياة تبعها الكثيرون فى مصر والشرق وفى جميع انحاء العالم ، ولم يكن تأثيره براجع الى شيء سوى اخلاقه العظيمة فلقد كان متحليا بتواضع الاطفال وبالبساطة المحبوبة وبالارادة القويه وبالحب نحو الله ، ذلك الحب الذى استمر محافظا عليه رغم ابتعاده عن راحة الحياة العادية ومسراتها ، والذى انتصر به على تجارب الجسد — بتلك التقوى الشديدة التى اشتهر بها القديس استطاع ان يكون من أعظم الرجال أثراً فى تاريخ الكنيسة

ترجمة حياته : وُلد القديس انطونيوس عام ٢٥١ م فى بلدة كوما[١] وكان والداه موسرين يخافان الله ، فربياه أحسن تربيه وهذباه بالمبادىء الدينية ، وكانا يحافظان عليه من الانسياب فى تيار هذا العالم ، فشب القديس محبا للدين ، ميالا للعزلة والانفراد ، فلما مات والده وهو فى سن العشرين ، قام بتدبير أملاكه الواسعة وبتربية أخته خير قيام ، وكان يذهب الى الكنيسة حيث كان يفكر دائما فى حياة الرسل فى القرون الاولى ، وفى أولئك الذين كانوا يبيعون املاكهم ويأتون بثمنها فيضعونه تحت أقدامهم لتوزيعه

(١) يظهر ان كوما هى قمن العروس الموجودة الآن بمركز الواسطى

على الارامل والمعوزين، واتفق أنه سمع مرة حال دخوله الكنيسة قارئ الانجيل يرتل الآية الذهبية « إن اردت أن تكون كاملاً فامضِ وبع كل أملاكك واعطِ للفقراء فيكون لك كنز فى السماء وتعال اتبعنى » (١)

فاعتبر القديس أن هذا القول موجه لشخصه، وللوقت خرج وباع كل ماله، ووزعه على الفقراء كنص الآية تماماً، ثم وضع أخته مع جماعة من الفتيات المتبتلات، وذهب خارج المدينة ليتعبد لله بمفرده لأنه كما يقول أثناسيوس البطريرك، «لم يكن حتى تلك اللحظة أديرة للمتوحدين فى مصر ولم يكن بين الرهبان من يعرف شيئاً عن داخل الصحراء» (٢)

وسكن قريباً فى مكان يغلب الظن أنه نفس البقعة المشيد عليها دير الميمون الآن، إذ أن هذا الدير عُرِف منذ انشائه بدير أنطونيوس

فى تلك البقعة عاش أنطونيوس مدة طويلة، إلا أنه لما رأى كثرة تردد الناس عليه أراد أن يتركه، ويقال أيضاً أن السبب فى تركه أن القديس رأى ذات مرة سيدة اعرابية تستحم هى وجواريها، فقال للسيدة أما تخجلين منى وأنا راهب فأجابته قائلة لو كنت راهباً لسكنت داخل البرية، لأن هذا المكان ليس مسكناً للرهبان، فاعتبر القديس أن هذا القول ليس من تلك المرأة بل هو صوت ملاك الرب، وللوقت هرب إلى قبر مهجور بقى فيه مدة طويلة يقاوم تجارب الجسد بقوة صلاته وبقوة صومه

ولما بلغ الخامسة والثلاثين من عمره أراد أن يبتعد عن العالم ابتعاداً

---

(١) متى ١٩ : ٢١

(2) Pardise of Palladius Vol. I p 9

كلياً فذهب إلى جبال القلالة، حيث سكن فى مكان منعزل يأتيه فيه الخبز مرتين فى كل سنة

ولكن ما لبث أن تبعه الى ذلك المكان كثيرون ، بين مريض يطلب الشفاء من أسقامه ، وزائر يريد التبرك منه ، ومتنسك يرغب أن يعيش بجواره ويتسمَّع الى تعاليمه ، وكان لا يدع أحداً من أولئك يدخل مغارته بل كان يبقيهم خارجاً ، وينيلهم ما جاءوا من أجله

وأول ما يخطر على البال ان مثل ذلك القديس ، الذى هجر العالم وابتعد عنه ليس له أن يفكر فى نزوله للمدن مهما اضطرته الظروف ، ولكنه فى الحقيقة قد ترك عزلته وقصد المدن مرتين حيث أمضى فى كل منهما مدة طويلة

ففى عام ٣١١ م ابان اضطهاد الامبراطور مكسيمينوس للمسيحيين انحدر الى المدن ، يتبعه رهط من رهبانه حيث كانوا يشجعون المضطهدين ويعزون الحزانى والمتألمين ، ولقد بلغت به الشجاعة أن يقف يوماً من الأيام خطيباً فى أحد الميادين الهامة بالاسكندرية عند ما كان الوالى ماراً به ، ولولا رحمة الله التى أدركته فى ذلك اليوم لمات مع الشهداء الذين كانت تُراق دماؤهم يومياً

ولما بلغ المائة من عمره ، لم يمنعه تقدم سنه من ان يُلَبِّى دعوة الأساقفة الذين طلبوا اليه الحضور للمدن لدحض مفتريات الاريوسيين الذين ادعوا بأن القديس موافق على تعاليمهم ، فنزل الى هناك حيث فنَّد أضاليلهم

ونظرياتهم البعيدة عن روح الدين الصحيح ، وبذلك كان أكبر عون للبطريرك اثناسيوس ضد اريوس وأتباعه

وعلاوة على هاتين المرتين فقد كان يترك عزلته ، ويذهب من حين لآخر الى جهة الميمون، حيث كان يزوّد تلاميذه بالتعاليم الدينية

من ذلك نرى ان ذلك القديس لم يعش لنفسه بل عاش للآخرين، فلقد عمل على تقوية الضعفاء، وتشجيع المتألمين، وارشاد الخطاه طول حياته

ولما شعر بقرب منيته أعلم بعض تلاميذه بذلك ، ورجاهم أن يواروه التراب فى مكان لا يعلمه أحد غيرهم ، لأنه كان يعلم « أن المصريين من عادتهم أن يأخذوا أجساد القديسين ، وخصوصاً الشهداء منهم ويحنطوها ولا يواروها التراب بل يضعوها على نقالات فى منازلهم ظانين انهم بذلك يمجدونهم »[1] وقد اشتهر انطونيوس بكراهيته لهذه العادة ولغيرها من العادات الوثنية التى حافظ عليها المصريون بعد اعتناقهم المسيحية ، وكثيراً ما طاب الى الأساقفة أن يعظوا الشعب ، ناهين اياهم عن أمثال هذه العادات الذميمة ، ولطالما وعظ بنفسه الشعب عن ذلك[2]

ولهذا السبب دفن تلاميذه جثته بمجرد موته عام ٣٥٥ م ، وبقى مكان الجثة من ذلك الوقت الى الآن مجهولا لا يعلمه أحد ، الا أنه من الغريب أن الأوربيين يعتقدون أن رفاته موجودة الآن فى مقاطعة دوفينيه بفرنسا ، ويروون قصة غريبة عن ذلك نوردها هنا نقلا عن كوجردان، قال :

(1) Paradise of Palladius Vol· I p 103
(2) « « Vol . I p. 104

«حدث فى سنة ٥٦٠ م انه كان للأمبراطور كونستانس بالقسطنطينية ابنة تدعى صوفى بها تسعة أرواح نجسة ، وكانت هذه الأرواح لا تفتأ تذكر انها لن تفارقها الا اذا أُحضر اليها جسد القديس انطونيوس ، لأنها كانت تعرف جيداً انه من المستحيل العثور على قبر القديس وجثته ، الا أن الملك اعتزم أن يعمل ما فى وسعه للعثور عليها ، فأرسل أحد الأساقفة مزوداً بالمال للبحث عنها ، فأخذ هذا ينقب فى الصحراء وقتاً طويلا دون أن يهتدى الى شىء ، وإذ اعتزم العودة الى وطنه رأى فهدين على باب خيمته ، وقد أخذا ينبشان الأرض حتى انتهيا الى جثة تفرّسها فاذا هى جثة القديس ، فحملها معه وتبعه الفهدان حتى كان فى منتصف الطريق فتقابل مع ثعلبين سجدا عند مرور الجثة ، ثم تبعاها الى الاسكندرية ، ومن هناك أبحر الجميع الى القسطنطينية حيث لم تجد الأرواح النجسة مناصاً من مفارقة الصبيّة ، وحيث وضعت الجثة فى كنيسة سان صوفى يحرسها الثعلبان والفهدان حتى موتهم

ولقد استمر الجسد هناك حتى مرّ بالقسطنطينية شجاع يدعى يوسلان كان عائداً من الأراضى المقدسة فى أوائل القرن الثانى عشر ، فتصادف أن أعجب به الملك الكسيس فلما سأله أى هدية يريد طلب اليه جثة القديس فأعطاها الملك له ومن ثمّ أخذها عام ١١٠٤ م إلى مقاطعة دوفينيه بفرنسا

وحدث أنه كان متفشياً فى تلك الجهات أحد الأوبئة الخبيثة ، وأن رجلاً وابنه كانا مصابين بهذا الوباء ، فلما استنجدا بالقديس شُفيا من

مرضهما ، فشيدا بجوار قبره ديراً لسكنى الرهبان ومستشفى للمرضى المصابين بنفس الداء

وقد امتلأ ذلك الدير بالرهبان ، إلا أنه حدث بعد ذلك اختلاف فيما بينهم أدّى إلى أن ذهب بعضهم إلى جهة بعيدة ، وبنى قبراً ادّعى أنه نقل جثة القديس اليه ، وهكذا بقى الناس لا يدرون أى الفريقين يملك الجثة الحقيقية »[1]

ولو أن الأرجح أن تلك القصة مختلقة إلا أنها أحدثت بعض الأثر فى فرنسا وفى غيرها من البلدان إذ ساعدت على اقامة كثير من الأديرة على اسم ذلك القديس .

المصادر التاريخية لحياته : وصلتنا ترجمة حياة القديس التى أجملناها فيما سبق فى كتاب يدعى « حياة أنطونيوس »[2] ينسب إلى الأنبا اثناسيوس البطريرك معاصر القديس وصديقه ، والذى كثيراً ما أظهر اعجابه بتعاليمه ، وان تاريخاً كهذا يكتبه شاهد عيان عاصَرَ القديس وسمع أقواله ورأى أعماله كان حرياً أن يقابل بالتصديق ، والا يطعن فى أى حادثة وردت فيه ، إلا أن كتّاب الأفرنج فى هذا العصر ، عصر النور والعرفان ، لا يريدون أن يأخذوا أى مسألة على علاتها ويأبون الا أن يدرسوا الأشياء على ضوء العلم الصحيح ، فكان لذلك أن تناولوا بالنقد كل مسألة وقعت تحت أنظارهم باحثين مدققين حتى يفرّقوا بذلك بين الغث والسمين

---

(1) Couvent de St Antoine p 80 - 86

(2) Vita Antonii

وقد كان لسيرة القديس أنطونيوس قسط وافر من النقد، فقد أخذ الشك فى تاريخ حياته دوراً كبيراً بدأه العلامة وينجارتن إذ قال «أنه لم يكن فى مصر رهبان مسيحيون قبل سنة ٣٤٠ م وأن كتاب «حياة أنطونيوس» لم يكتبه أثناسيوس، وان هو إلا أسطورة أُلِّفَت بقصد تصوير المثل الأعلى للرهبنة» وقال أيضاً ان القديس أنطونيوس عاش بلا شك ولكن بعد قرن كامل من التاريخ المنسوب اليه، وكانت عيشته لا يعرف أحد عنها شيئاً [(١)]

وسرعان ماتناول الكثيرون هذا الرأى وغالوا فيه وأهم هؤلاء دين فرّار اذ قال « انى مضطر أن أصرح بشكى فيما يتعلق بكل حادثة وردت فى حياة أنطونيوس » [(٢)] وأخيراً جاء الاستاذ جواتكن فقال عن أنطونيوس « انه الراهب العظيم الذى لم يظهر أبداً فى الوجود » [(٣)]

غريب أن يصل الشك فى حياة القديس الى هذا الحد حتى أنهم لا يشكون فقط فى بعض الحوادث التى وردت فى تاريخه، بل ينكرون وجوده انكاراً باتاً، ولو رجعنا إلى الأسباب التى أقامها أولهم وتبعه الباقون، لاصدار هذا الحكم لوجدناها تتلخص فيما يأتى :

١ — لم يذكر المؤرخ أُوزِيبُس فى مؤلفاته الضخمة التى كتبها عن مصر شيئاً عن الرهبان

٢ — لم يُشِر أنبا أثناسيوس لوجود الرهبان فى خطابه سنة ٣٣٨ م من هنا يستنتجون أنه لم يكن هناك رهبان قبل سنة ٣٤٠ م، وأن حياة

---

(1) Weingarten : Upsprung des Monchtums
(2) D. Farrar : Lives of the Fathers Vol. I p 451
(3) Gwatkin : Arian Controversy p, 48

القديس أنطونيوس ان هى الا قصة مختلقة لمجهول، وان راهباً يدعى على أنطونيوس عاش حقاً ولكن بعد قرن من تاريخ مولده المعروف ويستدلون ذلك بما ورد فى كتاب «حياة المتوحدين» [1] من وجود دير باسمه حوالى عام ٣٧٥ م

أما عن السبب الأول فلقد اثبت زوكلر وغيره من العلماء بأن هناك فى كتب أوزيبس ما يشير الى وجود الرهبان ، اما عن السبب الثانى فنرى ان عدم ذكر الرهبان فى كتاب أحد المؤرخين لا يستفاد منه على الاطلاق عدم وجودهم التاريخى، لأن المؤرخ قد لا يعلم عن الرهبان شيئاً وقد يعلم ولا يريد التحدث عنهم لسبب من الأسباب

وبغض النظر عن ذلك فهناك أدلة كثيرة لا تقبل الشك تثبت وجود الرهبان قبل عام ٣٤٠م نقتصر منها على الدليلين الآتيين :

(١) ادخل الرهبنه فى جهة بين النهرين راهب يدعى أوچن، وتدل الكتابات السريانية التى وجدت حديثا انه عاش قبل ذهابه الى تلك الجهات فى دير للانبا باخوميوس حوالى سنة ٣٢٠ م

(٢) مات انبا باخوميوس سنة ٣٤٠ م كما اتفق كل الأساتذة المشتغلين بالآثار، بناءً على ما عثروا عليه من مؤلفاته فى الرهبنه، ومعروف عنه انه بنى ديره فى طبنيسه قبل موته بنحو أربعين عاماً .

فكيف اذن لم يكن هناك رهبان قبل سنة ٣٤٠م

نترك اذن هذه النقطة وقد اتضح خطؤهم فيها ، ونتطرق الى اثبات وجود الانبا انطونيوس بغير ماجاء فى كتاب «حياة انطونيوس» فنقول :

---

(1) Historia Monachorum

(١) ورد فى كتاب پالاديوس المسمى « حياة الآباء » أن ديديمُسْ الراهب أخبره بأن الانبا انطونيوس حضر لقلايته ثلاث مرات لرؤيته

(٢) فى سيره الانبا باخوميوس أبو الشركة ، يُروى عن كثيرين انهم زاروا القديس انطونيوس بعد موت رئيسهم

(٣) بشهادة روفينس وپستميان كانت هناك أديره على اسم ذلك القديس

(٤) كان القديس أبو مقار يُعرف دائماً بتلميذ انطونيوس ، والأول منهما ثبت وجوده تاريخيا

(٥) أينما قلَّبت فى الكتب التى تخص الرهبنة تجد أشارة واضحة الى أن ذلك القديس هو المؤسس الحقيقى لحياة الرهبنة المسيحية ، وبعيدٌ جدا ، أن يعزى نظام كهذا ثابت الاركان لشخص وهمى

من هذا كله وغيره من الأدلة يتضح لنا خطأ الدكتور وينجارتن ومن تبعه من العلماء فيما ذهبوا اليه ، ولم يبق بعد أمامنا الا نقطة واحدة هى نسبة تأليف كتاب «حياة انطونيوس» الى الانبا اثناسيوس الرسولى

ولكن الآن وقد ظهر من الأدلة السابقة صحة وجود الانبا انطونيوس ووجود علاقة وثيقة بينه وبين الانبا اثناسيوس فليس هناك من شك فى نسبة هذا الكتاب الى البطريرك ما دام لم يقم أى برهان على اثبات العكس

الفصل الثالث

من دير أنطونيوس الى دير بولا

كان همنا مذ وطئت أقدامنا دير أنطونيوس أن نعد العدة لذهابنا إلى دير بولا ، وكان علينا لذلك أن نبحث عن جمالٍ تقلنا إلى هناك ، لان العرب كانوا قد تركونا عائدين بجمالهم الى نجع العلما لحمل بعض الأشياء إلى الدير ، والرجوع لمرافقتنا فى العودة إلى بوش

ولم يكن هناك من البدو من حضر بجوار الدير من مدة طويلة ، نظراً لعدم تساقط الأمطار ولقلة وجود النباتات الجبلية ، إلا أن حسن الحظ أرسل لنا اثنين من البدو فى اليوم التالى لوصولنا فاتفقنا معهما على أن يصحبانا بجمالهما إلى دير بولا

الطرق المختلفة : وللوصول إلى دير بولا ثلاثة طرق تتميزعن بعضها بالصعوبة والسهولة فى السير ، وبالقصر والطول فى الزمن الذى تستلزمه

فالطريق الأول يتميزعن الطريقين الآخرين بكونه غير مستوٍ فى مجموعه،فالسائرفيه لا يزال متسلقاً جبلاًأو منحدراً إلى وادٍ ،وهكذا يستمر مجتازاً سلاسل الجبال التى تفصل الديرين حتى يصل للدير الثانى،فلا يمكن بطبيعة الحال الاستعانة بالابل فى هذا الطريق بتاتاً

والعرب هناك يعرفون هذا الطريق،ولكنهم يحرصون ألا يعلموا

أحداً به، وذلك لئلا يستغنى الرهبان عنهم فى القيام بحمل الرسائل بين الديرين

وقد حدثنا أحد الرهبان أنه اتفق مرة مع اعرابى على سلوك هذا الطريق، إلا أنه فى الوقت الذى تواعدا فيه على السفر، رفض الاعرابى معتذراً بأن اخوانه العرب ان علموا بذلك فهم لا محالة قاتلوه

وسيظل هذا الطريق مجهولاً للرهبان حتى يقوم أحدهم برحلة لاستكشافه، وإذ ذاك تصبح المسافة قصيرة تقطع فى نحو ست ساعات ويكثر التزاور بين رهبان الديرين

ومن الناس من يعتقد أن ديرى أنطونيوس وبولا لا يفصلهما إلا جبل واحد، بحيث يقع أحدهما عند سفحه من الجهة الشرقية والثانى عند سفحه من الجهة الغربية، ولكن الحقيقة هو أن هناك جبالاً كثيرة بينهما، وأن المسافة التى تفصلهما إذا قيست فى خط مستقيم تبلغ عشرين كيلو متراً .

الطريق الثانى : يبتدىء من الدير محاذياً للجبل الى وادى الرجبة، ثم يتجه مع الوادى حتى يبدأ طريق الجبل الذى يقع فى نهايته دير بولا، ولا يمكن الاستعانة بالابل إلا فى الجزء الأول من هذا الطريق، أما فى الجزء الأخير فلا بد من الترجل، إذ أن الطريق فوق الجبل ضيق جداً يحده من أحد جانبيه ارتفاع الجبل ومن الجانب الآخر هوة سحيقة تتعدى الف متر

ولقد انفرد المسيو كوپان من بين رحالة الأفرنج باجتيازه المسافة بين الديرين فى هذا الطريق وترك وصفاً فريداً لسيره نورده هنا بنصه،

قال: « سرنا حتى المساء بحذاء الجبل فى طريق متعب لجمالنا حتى نأمن أعين الرقباء، وأخيراً انتهينا بوادٍ كان من الضرورى أن نترك به الجمال حتى نستطيع المضىّ فى طريقنا ، فنزلنا فى تلك الجهة، وبعد أن أكلنا واسترحنا الى نحو الساعة الحادية عشرة مساءً بدأ القمر يظهر جلياً، فانتهزنا فرصة ظهوره وابتدأنا السير على الأقدام لاجتياز الجبال التى تفصلنا عن الجهة التى نقصدها ، هذا بعد ان ملأ كل منا جيوبه بالخبز، وبعد أن عهدنا الى البدو الذين كانوا معنا بحمل الأشياء التى كانت تلزمنا لاقامة الشعائر الدينية فى مغارة القديس بولا وأهمها زجاجتان من النبيذ، وقد أشار علينا قائدنا بأن لا نحدث أى جلبه، وأن نسير الواحد تلو الآخر بدون أن نبتعد عن بعضنا كثيرا لئلا نضل الطريق، وأمرنا أيضا بأنه اذا توقف أحدنا عن المسير فيجب عليه أن يعلن أقرب شخص له حتى ينتظره ، كما عرفنا أن نرص بعض الحجارة حتى نهتدى لموضع جمالنا عند العودة ، وكان أن نفذنا تلك النصائح بحذافيرها فسرنا بقية الليل فى أماكن غير ممهدة ولم نسترح الا دفعة واحدة ، وما لاح وجه الصباح حتى وجدنا أنفسنا فوق قمة جبل عالٍ استطعنا أن نشاهد منه جليا مياه البحر الأحمر، وبعد أن تركنا القمة ابتدأنا نرمق فى نزولنا سوراً كان على يمين الجبل بما يتراوح بين خمسمائة وستمائة خطوة، وكان هذا هو سور الدير المنشود المبنى على نفس البقعة التى كان يسكن فيها القديس بولا »[1]

---

(1) Coppin : Guerre Ste. p 313-14

ويقطع هذا الطريق فى نحو تسع ساعات ولكنه خطر ومتعب كما رأينا من الوصف السابق

أما الطريق الأخير فيتجه نحو الشمال الشرقى حتى تنتهى جبال القلالة القبلية ثم ينحدر الى الجهة الجنوبية من الدير، ويتميز هذا الطريق باستوائه بحيث تستطيع القوافل أن تسير فيه بدون عناء

وقد قررنا السفر فى هذا الطريق الأخير رغم طوله التماسا لراحتنا، وخوفاً من اخطار الطريق الثانى

اليوم الرابع : ففى صباح يوم الجمعة ١٨ نوفمبر خرجنا من دير انطونيوس وبصحبتنا القمص سوريال أمين الدير الذى أبت مكارم أخلاقه الا مرافقتنا فى هذه الرحلة

وكان بانتظارنا على الباب ثلاثة من البدو ومعهم ثلاثة جمال وكلب صيد ، فبعد أن ودّعنا الرهبان بدأنا السير ولم تكتمل بعد الساعة السابعة

وما ابتعدنا قليلا عن الدير حتى لاحت لنا أعالى بعض أشجار النخيل، وأخذنا نمر على بعض الحفر والآبار ، وقد سألنا عن منشئها فقيل لنا أن شركات كثيرة أجنبية كانت تأتى من وقت لآخر للبحث عن المعادن وآبار البترول ، وقد استكشفت احداها بعض طبقات الفحم ، ولكنها وجدتها غير ناضجة بعد، لا تصلح لشىء

وأخيراً بعد عشر دقائق وقفنا بعين ماء تدعى عين السمار ، وهى عين طبيعية شبيهة بعين العريضة ، الا انها تقل عنها أهمية نظراً لعدم وجودها فى طريق القوافل ، ومع ذلك فان العرب بجوار الدير يستقون

منها ويستظلون بأشجارها ، خصوصاً بعد أن أُدخلت العيون الثلاث داخل أسوار الدير

ويرجع أصل تسمية هـذه العين فى الغالب الى ما ينبت بجوارها من شجيرات السمار

تركنا هـذه العين خلف ظهورنا ثم أخذنا نسير فى طرق متعرجـة ، ونحن نستقبل وادياً ونودع آخر ، وأسوار الدير تظهر أمامنا ، ثم تختفى حتى كانت الساعـة

(عين السمار)

الثامنة والنصف عند ما غاب شبح الدير عن أعيننا ، واذ ذاك أخـذنا نتمتع بمنظر الجبال الشاهقة التى تكاد ترتفع بقممها عن مستوى السحاب ، وبالأودية السحيقة التى تكاد تبدو بشجيراتها وببعض النباتات التى ظهرت بعد سقوط المطر كأنها الحقول الخضراء ، وما زلنا كذلك حتى انتهينا بوادٍ متسع يمتـد على مدى البصر بين سلاسل الجبال المرتفعة ، ويدعى وادى الرجْبَه ، وهذا الوادى كما قلنا يسير به كل من يريد قطع المسافة بالطريق الثانى حتى ينتهى بالجبل الذى يقع عند سفحه الآخر

دير بولا ، ومن المرجح أن القديس انطونيوس فى زيارته للقديس بولا قد سار فى ذلك الوادى

فلقد قيل أن القديس انطونيوس لما اعتزم السفر لم يعرف كيف يوجه خطواته ، ولكن فجأة رأى أمامه كائنا غريب الهيئة شوهته الخطية فأصبح يحاكى العبيد شكلا وله قرنان فى رأسه ، الا أن صلاة القديس ابدلت شكله وأرجعته الى حالته الطبيعية فأشار على القديس بالطريق الذى يسلكه [1] ويقال أن أنثى ضبع بمقتضى بعض الأساطير ، سارت أمام القديس وقادته طول الطريق حتى أوصلته الى مغارة القديس بولا [2]

بعد أن أكلنا ما استطعنا واسترحنا فى ذلك الوادى بقدر ما سمح الوقت ، استأنفنا سيرنا متجهين الى ناحية الشمال الشرقى ، فأخذنا نسير بحذاء الجبال العالية ونحن نصعد ونهبط شأن طبيعة تلك الارض مجتازين أودية كثيرة أشهرها وادى قزوح ووادى القرف

وطريقنا من دير انطونيوس الى البحر الأحمر لا يختلف كثيرا عن الطريق من نجع العلما الى ذلك الدير ، لأن طبيعة الارض تكاد تكون واحدة فى تلك الأماكن ، وتتلخص مناظرها فى الأودية التى تحدها من الجانبين آكام تختلف فى ارتفاعها وطبيعتها

وصلنا فى نحو الساعة الرابعة نهاية سلسلة جبال القلاله القبليه ، وكان علينا أن نغير اتجاهنا ، فاخذنا نسير جهة الجنوب نحو ساعة ونصف الى أن ضربنا عصا الترحال بعد سفر دام ثمان ساعات كاملة فى بقعة بدت لنا لاول وهلة

(1) Amelineau : His. des Monastéres p· 6
(2) Couvent de St Antoine p. 145

قريبة جداً من البحر الاحمر فاردنا أن نصل اليه لنجلس قليلا على شاطئه الا أن العرب أبوا علينا ذلك قائلين أن البحر بعيد جداً، وكانت هى الحقيقة فقد كان البحر منخفضاً بالنسبة لنا وهذا كان من دواعى خداعنا .

بتنا ليلتنا هناك ، وكانت ليلة من أجمل الليالى يختلط فيها نسيم البحر العليل بهواء الصحراء الجاف، وقد استيقظنا فى الصباح على صوت النيران التى كان يضرمها العرب لتدفئتنا، لان البرد كان قارساً فشربنا الشاى والقهوة، ولما لم نشعر بالدفء تماماً فكرنا فى طريقة أخرى للتدفئة بدلاً من النار الملتهبة والمشروبات الساخنة، فاخذنا نجرى مسافةً طويلة، وقد نجحنا بذلك فى ابعاد البرودة عنا

اليوم الثامن : بدأنا السير فى اليوم الثانى لخروجنا من دير انطونيوس فى الساعة الخامسة والنصف صباحاً ميممين شطر دير بولا ونحن نسير جنوباً ، فاخذنا نجتاز ودياناً وجبالاً وآكاماً حتى وصلنا الى وادٍ متسع يدعى روض الخواجه فى الساعة التاسعة وعشر دقائق وهناك استرحنا وتناولنا طعام الافطار ، ثم أخذنا نستطلع هذه الجهة فاذا بها مغاور طويلة، الاغلب انها من صنع الانسان وربما كانت فيما مضى قلايات للرهبان، وقد حاولنا أن نجد فيها أى كتابة تدل على كنهها فلم نوفق ، فتركناها وذهبنا تحت بعض أشجار السنط لنستظل بظلالها من هجير الشمس المحرقة .

وقبل أن نترك هـذا الوادى طلب الينا العرب أن نترك امتعتنا قائلين أننا لسنا بحاجة اليها مادمنا سنصل الى دير بولا بعد مدة وجيزة، فعارضنا خوفاً على أمتعتنا من الضياع ، ولكنهم اعلمونا أن لاشىء بالمرة

يضيع فى الصحراء لقلة من يمر بها ، حتى ولو تصادف مرور أحد فانه لا يتعرض لها فاضطررنا أن نوافقهم معجبين بتلك الامانة النادره

استأنفنا سيرنا فى منتصف الساعة الحادية عشرة ، وأخذنا نيمم جهة الدير ، فامتطينا جمالنا التى أخذت تسير بنا وئيداً لصعوبة الطريق

سرنا قليلا ونحن نصعد بعض الآكام ثم أخذنا ننحدر رويداً رويداً حتى انتهينا بوادٍ متسع يدعى وادى الدير ، فأخذنا نسير فيه والآكام على جانبيه تحدد سيرنا حتى وصلنا فى منتصف النهار تماماً الى أكمة صغيرة تدعى قليب الراهب تعترض ذلك الوادى

وأكمه قليب الراهب القريبة من دير بولا لا تعادل فى حجمها ولا فى ارتفاعها نظيرتها القريبة من دير انطونيوس ، بل هى أصغر حجماً وأقل ارتفاعا

أخذ الوادى بعد الأكمة يضيق شيئاً فشيئاً ، والجبال تعلو على الجانبين حتى أصبح لا يزيد فى اتساعه عن الخمسين متراً بعد أن كان نحو الكيلو متر ثم أخذ يتعرج ويتلوى ، ونحن ننعطف بانعطافه وندور بدورانه وكان منظره الضيق مع الجبال العالية التى تحده من الجانبين ، يبعث الانقباض فى النفوس ، وكان شعورنا ، ونحن نتعمق فى ذلك الطريق شعور من يساق الى سجن مظلم ليقضى فيه عمره ، أو يلاقى فيه حتفه

حاولنا رؤية الدير فلم نفلح مع اننا كنا على مقربة منه ، ومع اننا كنا قد شاهدنا دير انطونيوس على مسافة أربع ساعات بالعين

المجرده ، وكان من الممكن رؤيته بالمنظارات المكبرة من عين العريضة نفسها ، أى على مسافة تسع ساعات تقريباً ، إلا أن الحال هنا كان بعكس ذلك ، لأن دير بولا يقع فى منعطف ضيق ، ولا يمكنك رؤيته الا اذا وقفت بأسفله تماماً ، ولذلك فلم يقع نظرنا عليه الا قبل وصولنا إليه بخمس دقائق .

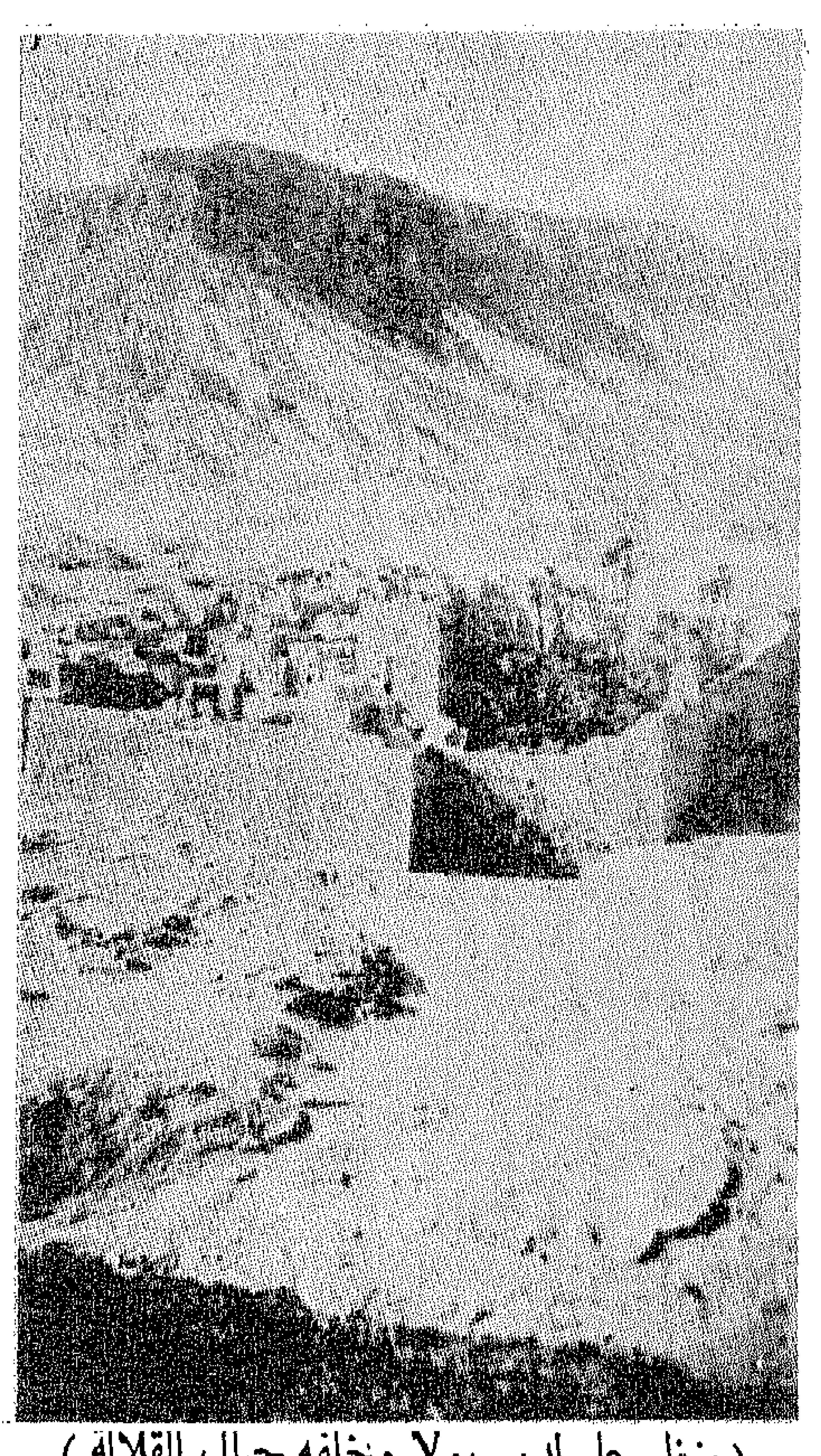


الفصل الرابع

دير بولا

نظرة عامة :

موقع الدير : يحد دير بولا من الغرب أحد جبال القلالة القبلية العالية ، وتحيطه من الجهات الأخرى هضاب مرتفعة ، وهو يقع على خط طول ٣٤َ ٣٢ْ شرقا وخط عرض ٥١َ ٢٨ْ شمالا ، وعلى مسيرة يومين من دير انطونيوس، وستة أيام من شاطئ النيل، وثلاث ساعات فقط من شاطىء البحر الأحمر



(منظر عام لدير بولا وخلفه جبال القلالة)

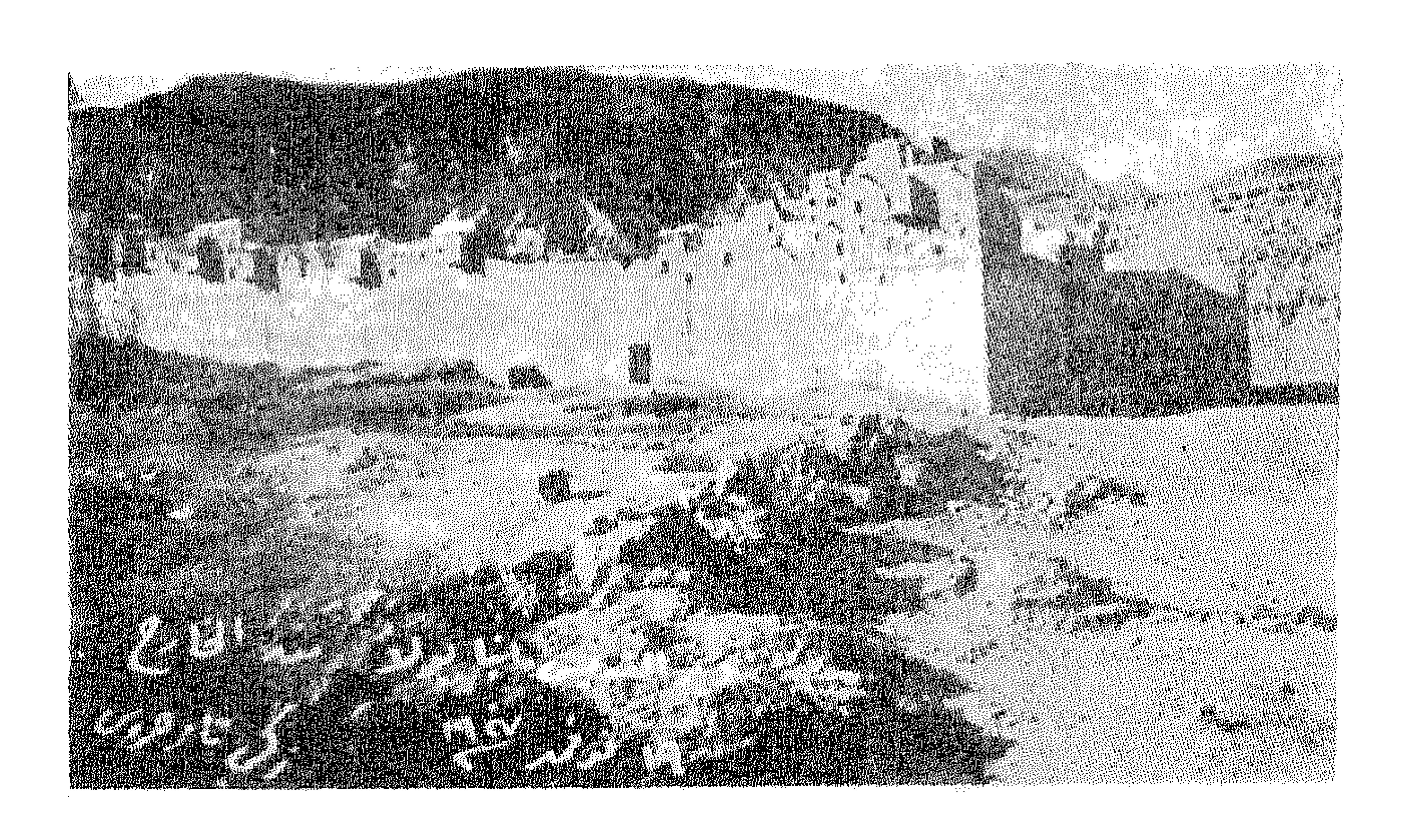
والدير مشيد على هضبة مرتفعة ، ويقولون عنه انه هو البقعة التي عبر منها الاسرائيليون الى البحر الأحمر حال خروجهم من مصر الى بريه سيناء(١)

(1) Coppin : Guerre Ste p. 317

ودير بولا أبعد أديرة الأقباط عن المدن ، والطريق اليه من أصعب الطرق وأخطرها ، ومنظره وسط الجبال القائمة على جوانبه يبعث الانقباض والرهبة فى النفوس

وفى الحقيقة ليس هناك مكان يتمثل فيه الانقطاع عن العالم مثل هذا الدير ، فهو فضلا عن بعده عن المدن فهو محصور من كل الجهات بجبال عالية تكاد تحجب عنه تيار الهواء وضوء الشمس

المساحة : لا يزيد الدير فى مساحته الآن عن خمسة أفدنة ، وهو

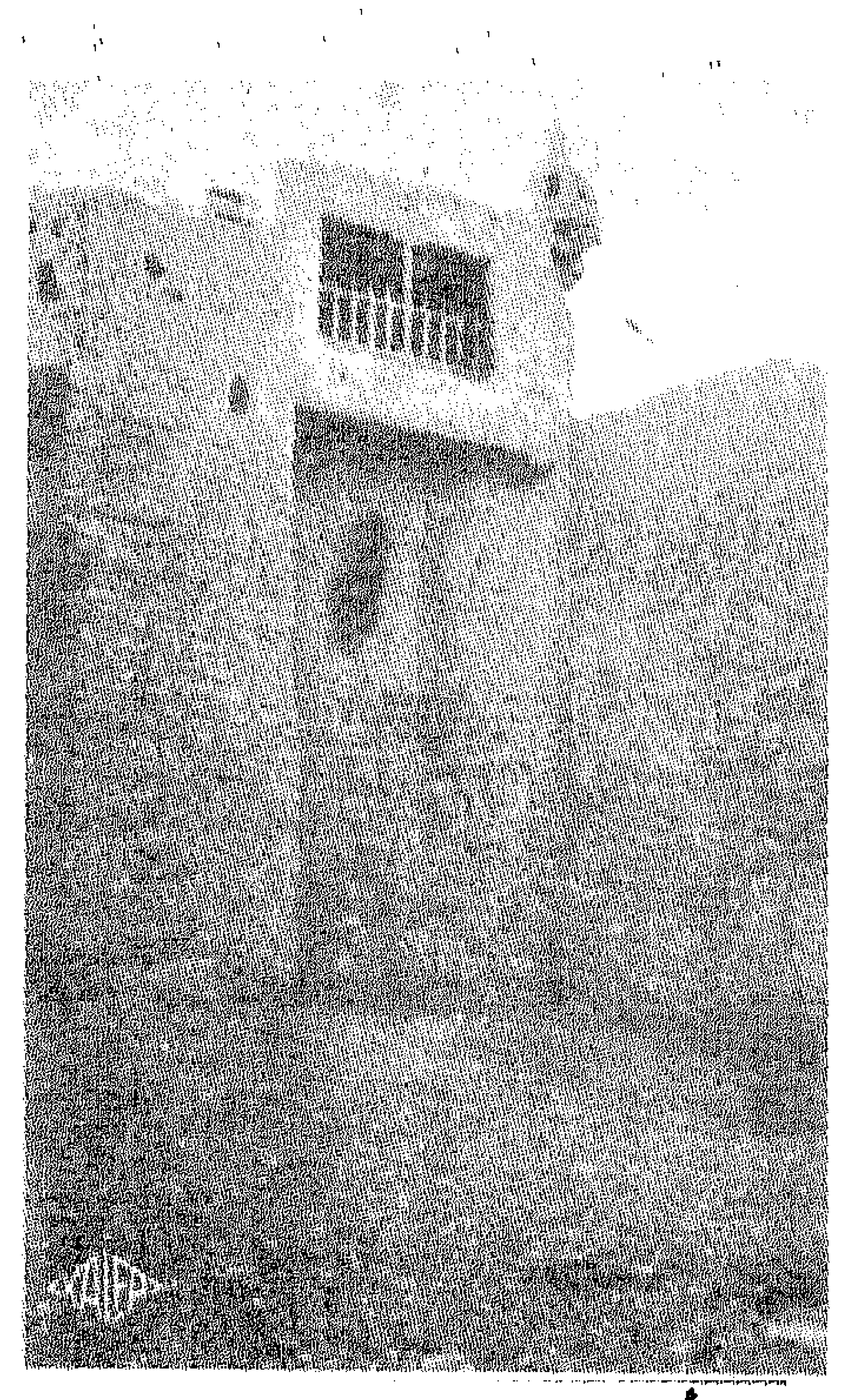


(منظر خارجى لدير بولا)

مستطيل الشكل تقريباً ، فعرضه نحو المائة متر ، أما طوله فيبلغ الآن مائتى متراً ، وكان قبل مجىء الانبا خريسطوذولس وتوسيعه للدير أقل من ذلك بكثير اذ لم يتعدّ مائة متر ، وكانت المساحة اذ ذاك لا تتجاوز ثلاثة أفدنة

طريقة الدخول لا تختلف فى شئ عن طريقة الدخول فى بقية الأديرة ، اذ يتحتم على القادم قرع الجرس لتنبيه الرهبان بوجوده ، فيتسلقون السور للتثبت من شخصيته قبل ايذانه بالدخول

وباب الدير صغير جداً ويقع فى الجهة القبلية ، وهو أحدث أبواب الأديرة جميعها ، اذ أنه لم يفتح الا فى شهر مايو سنة ١٩٢٧



(أحد الرهبان نازلا بطريق الساقية)

وكان الدخول الى الدير والخروج منه قبل ذلك التاريخ بواسطة الساقية التى تقع فى الواجهة الشرقية، والتى لا تختلف فى شيء عن مثيلتها فى دير انطونيوس

وهاك موجز للأدوار التى مرت بالدير

لمحة تاريخية : خرج الانبا بولا من المدن ولم يبلغ بعد سن الرشد ، ووجهته الصحراء الشرقية حتى انتهى الى مكان منزوٍ بين جبال القلالة ، حيث سكن فى مغارة من مغارات الجبل الطبيعية بجوار عين ماءٍ صافية عذبة ، وهناك عاش بطهارة ثمانين عاماً لم يرَ فيها وجه انسان ، فلما حانت منيته عزَّ على القوة العلوية أن يُطوى هذا

القديس الى رمسه ، وتطوى معه حياةالبر والتقوى التى عاشها ، فدبرت ارسال القديس انطونيوس اليه ، فلما وصل اليه واجتمع به سمع من أقواله ورأى من أعماله ما جعل نفسه تصغر أمامه ،وما جعله يلهج بالثناء عليه بين جماعات المتوحدين

وما انتشرت تلك الاخبار بين المتنسكين فى الصحراء الشرقية وفى المدن وبقية الصحراوات حتى هرع كثير منهم الى تعرف المكان الذى كان يسكنه القديس ، واختاروه مسكناً لهم يعيشون فيه على النمط الذى اختطه ذلك القديس لنفسه فى حياته

وما حدث فى دير القديس انطونيوس حدث هنا تماماً، اذ تكونت من هؤلاء جماعة ما لبثت أن اضطرت الى التعاون فيما بينها ، فأقامت سوراً لحمايتها ، وبذلك نشأ الدير

ولا يعرف بالضبط الوقت الذى بُنى فيه الدير على أن پستميان قد رآه حوالى سنة ٤٠٠ م، مما يدل على انه بنى قبل ذلك التاريخ بزمن ما(١)

ولما جاء الامبراطور يستنيان استحل لنفسه أموال الأوقاف كلها، ومن هذه الأموال عمر دير بولا وزاد فى أبنيته ، وشيد كثيراً من أسواره ، وقد وضع به رهباناً من الماسكيين بقصد حماية الحدود المصرية(٢)

مرّ بعد ذلك بالدير عصر غامض فان التواريخ التى كانت تدل عليه قد أعدمها البدو سنة ١٤٨٤ م عند اقتحامهم أسوار الدير

---

(١) انظر صفحة ٧١

(٢) « « ٧٢ — ٧٣

والرواية التى يحدثنا عنها شستر عن قتل الرهبان بواسطة البدو الذين كانوا فى خدمة الدير مشكوك فى صحتها[1] وكل ما نعلمه أن ذلك الدير أصبح خرباً خاوياً من الرهبان بعد ذلك التاريخ ، واستمر كذلك ثمانين سنة يرتع فيه العربان ، ويحرقون من مخطوطاته ، ويشوهون من نقوشه ، ويهدمون من أبنيته ، ويحطمون من أثاثاته ما يريدون ، حتى قيّض الله له على يد الانبا غبريال السابع ، البطريرك الخامس والتسعين ، اصلاحاً كبيراً أعاده الى سابق حاله ، غير ان عربان بنى عطية الذين سكنوا الدير وقت خرابه ، لم يرق لهم تعميره فخربوه ثانية ، واضطر نفس البطريرك أن يعيد تعميره وتجديده[2]

وبقى الدير كذلك الى أن جاء المعلم ابراهيم الجوهرى ، فأصلح ما تهدم منه وبنى كنيسة أبى سيفين التى لا زالت قائمة للآن فوق مغارة القديس بولا

وقد قدّر الله لهذا الدير على يد الانبا خريستو ذولس ما قدّر لدير انطونيوس على يد أبى الاصلاح ، فلقد قضى ذلك المطران أيام رهبنته فى هذا الدير ، فلما عين مطراناً للقدس لم ينسَ ديره ، فقام بعمل عمارة كبيرة هناك ، أدخل فيها ضمن حدود الدير عين الماء الرئيسية ، وأضاف بذلك مساحة كبيرة للدير

من هذا نرى أن الأدوار التى اجتازها دير بولا تشبه فى كثير من

---

(١) انظر صفحة ٧٤ — ٧٥

(٢) الخريدة النفيسة جزء ٢ صفحة ٤٥٥

الوجوه الأدوار التى مرت بدير انطونيوس ، فلقد كان وجودهما فى تلك المجاهل الواسعة فى أمكنة متشابهة ، محاطين بعربان قبيلة واحدة سبباً فى تشابه الحوادث التاريخية التى مرت بهما ، وليس ذلك فقط ، بل انه من المرجح جداً أن ادارة الديرين كانت واحدة بعد تعميرهما فى القرن السابع عشر ، يدلنا على ذلك ما أورده سيكار من انه كان يوجد رئيس عام للديرين معاً[1] حال زيارته لهما

وقد أخبرنا الرهبان أن الديرين استمرا حتى منتصف القرن الماضى تحت ادارة واحدة ، وكان الرهبان فى الديرين ينتمون الى هيئة واحدة ، وغاية ما هنالك كان دير انطونيوس خاصاً بالرهبان الشبان ، ودير بولا بالشيوخ ، فكان الشبان الذين ينخرطون فى سلك الرهبنة يذهبون تواً الى دير بولا حيث يخدمون الشيوخ ، ويستفيدون من تعاليمهم ومواعظهم ويتلقون عنهم الحكمة والفلسفة ، فاذا ما بلغوا سناً معينة ودرجة جيدة من العلم والمعرفة بأصول الدين تركوه الى دير انطونيوس ، حيث يعيشون مع الرهبان الحديثى السن الى أن يبلغ الراهب منهم مبلغاً من الكبر يحتاج فيه الى الراحة ، فيذهب مرة ثانية الى دير بولا.

ولقد كان وجود دير بولا فى ذلك المكان السحيق بعيداً عن المدن سبباً فى أحجام الكثيرين من الرحالة الذين زاروا دير انطونيوس عن زيارته ، فلقد كان الطريق خطرا جداً كما يتضح من الوصف الذى أوردناه لكوپان ، فضلا عن أن الدير كان محاطاً ببعض الوحوش والبدو المعادين

---

(1) Miss dans le Levant p. 151

مما جعل القليلين يجرأون على زيارته ،على أن هؤلاء الزائرين لم يتركوا الوصف الذى ننشده ، فلقد شغلتهم فخامة دير انطونيوس وجمال أبنيته عن هذا الدير فلم يسطروا عنه الا وصفاً مقتضباً لايشفى غلة .

وأول هؤلاء كان كوپان الذى ترك وصفاً لمغارة القديس بولا وكنيسته ، والقارىء لوصف زيارته سنة ١٦٤٠ يرى جيداً الى أى حد كان دير بولا محاطاًبالاخطار والمخاوف

وقد حضر بعد ذلك السمعانى مع سيكار سنة ١٧١٦ لشراء بعض الكتب ورؤية الدير، الا أن وصف سيكار للدير كان موجزاً

وحوالى سنة ١٨٣٤ زارهذا الديرالدوق دى راجوس،وكان هوالوحيد بين زواره الذى لم يزر ديرانطونيوس، إذ كان ماراً بشواطىء البحرالأحمر فعرج على هذا الدير ولم يستطع الذهاب الى دير انطونيوس ، وقد ترك وصفاً لبعض أجزاء الدير ، ثم ذكر الكثير عن عادات قبيلة المعازة التى لا زالت تسكن الأماكن المجاورة [1]

وزار شوينفرت هذا الدير سنة ١٨٧٦ وترك وصفاً قيّما له

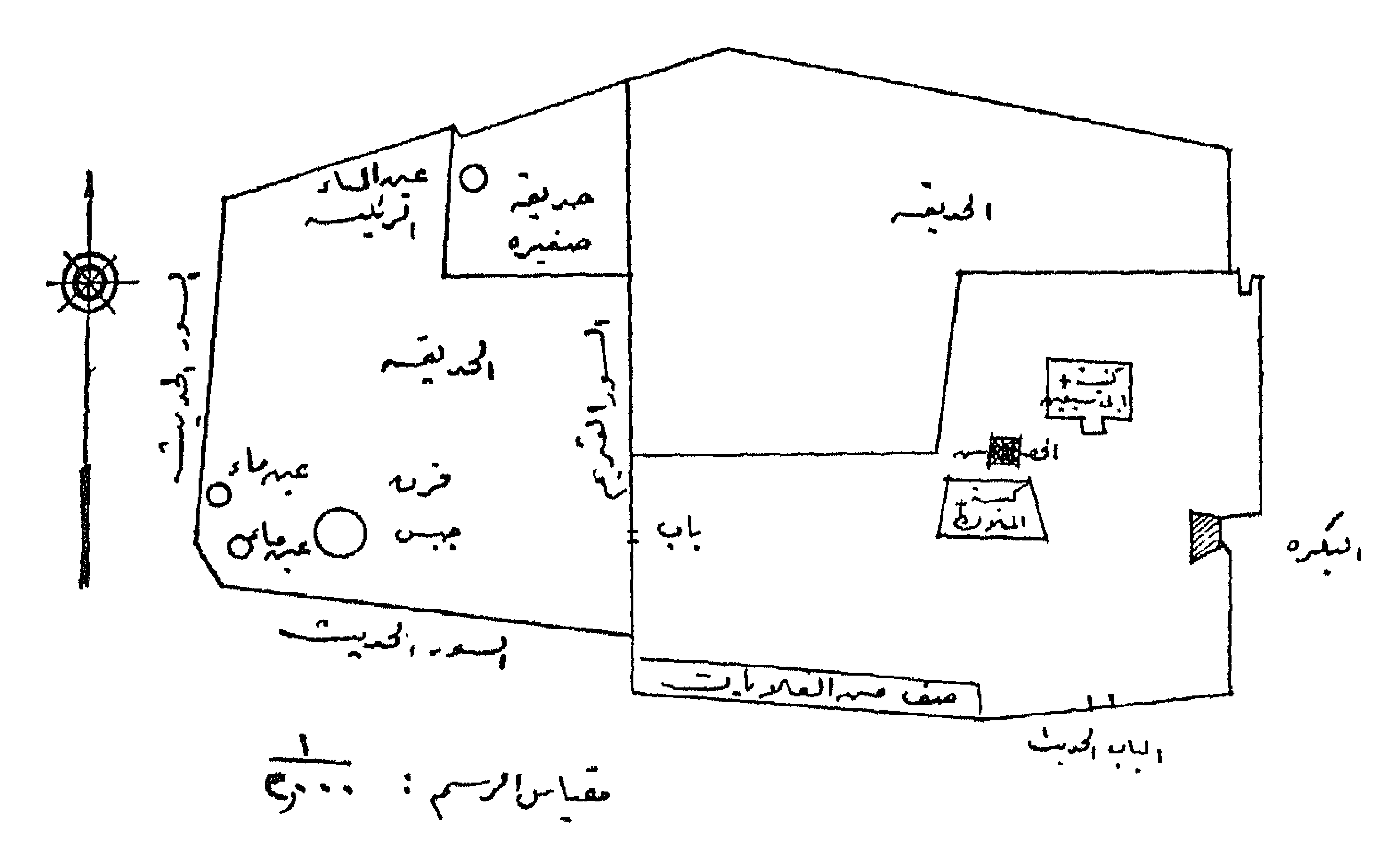
وفى سنة ١٨٨٤ زار الدير الأب چوليان مع بعض زملائه فجاء وصفه للدير أدق بكثير ممن سبقه ، وكان هذا الرحالة آخر من كتب عن دير بولا

أجزاء الدير :

الاسوار : تبلغ الاسوار فى ارتفاعها العشرة الامتار وفى عرضها نحو المترين ولها سطح مستوٍ بعكس الحال فى دير انطونيوس ، وذلك لأن

(1) Voyages de Duc de Raguse vol III

الأرض المشيد عليها الدير ليست متعرجه بل مستوية فى مجموعها



(رسم تخطيطى لدير بولا)

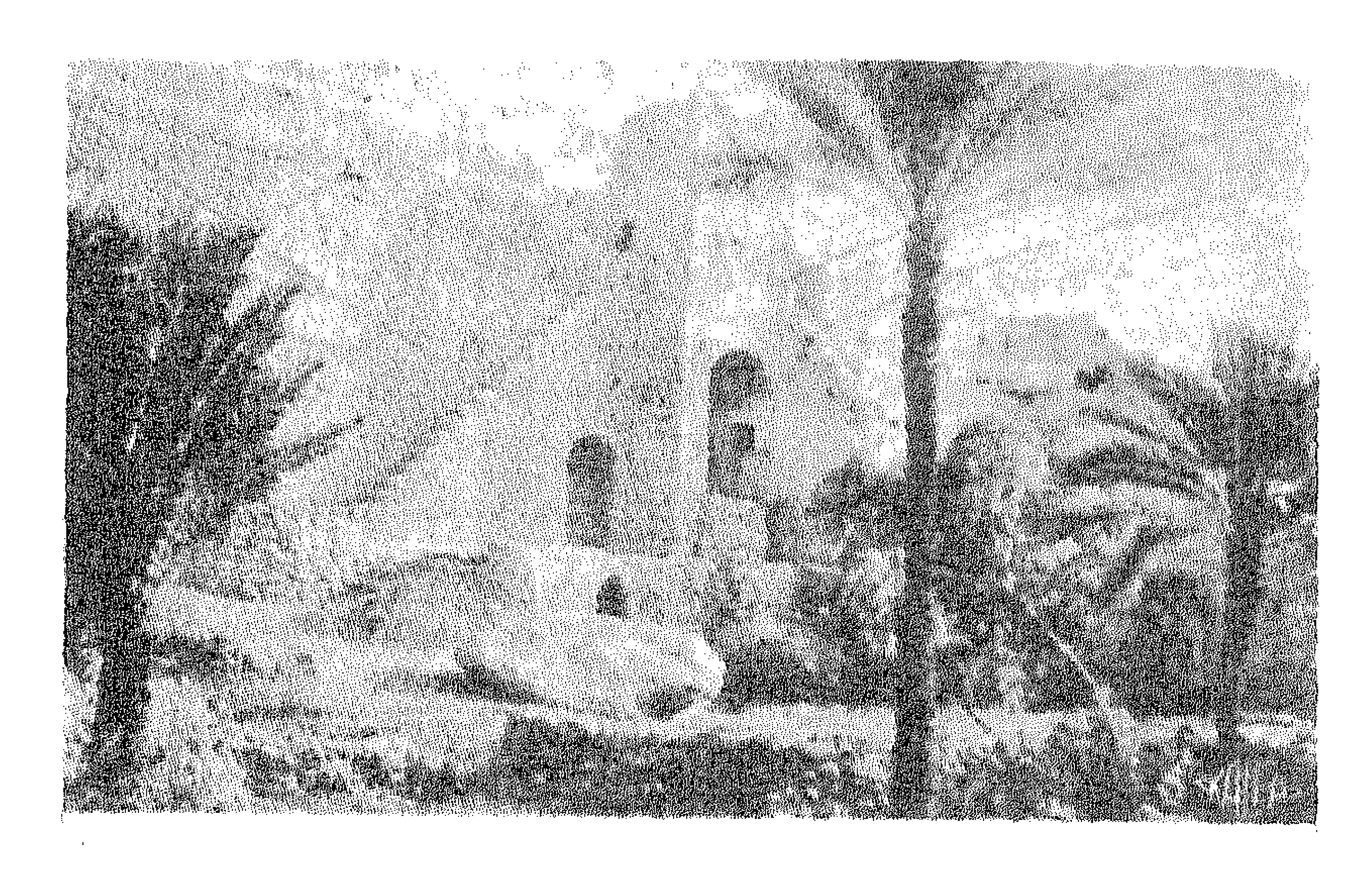
وبالدير أسوار قديمة وأخرى حديثه ، فالقديمة هى اسوار الدير الأصلى وقد تجدد أكثرها فى وقت توسيع الدير على يد الانبا خريسطو ذولس ، ولم يبق منها مالم تتناوله يد التعمير سوى السور الأوسط ، الذى يفصل الدير القديم عن الجزء الذى أضيف اليه ، وذلك لأنه لم يكن هنالك داعٍ لتجديده نظراً لوقوعه داخل الدير

والأسوار الحديثة تتفق مع القديمة فى ارتفاعها وسمكها ، ولكنها تختلف عنها فى وجود افريز على سطحها الخارجى

وينقسم الدير الى قسمين متميزين — القسم الأول وهو الدير قبل توسيعه ، والثانى وهو الجزء الذى اضافه الانبا خريسطو ذولس

ويقع فى القسم الأول فى الجهة القبلية منه المبانى جميعها ، من كنائس

وقلايات ومخازن وغيرها ، وفى الجهة البحرية منه حديقة الدير ، أما



(منظر السور من الداخل)

القسم الثانى فليس به سوى عين الماء الرئيسية ، وعين أخرى صغيرة ، وبعض النخيل وكروم العنب ، ثم تافوس للموتى بنى حديثاً

كنيسة بولا : هذه الكنيسة مشيدة على نفس المغارة التى عاش فيها القديس ، فهى منخفضة عن مستوى الأرض بنحو ثلاثة أمتار بحيث ينزل اليها الانسان بواسطة سلم ذى ثلاث عشرة درجة ، وليست الكنيسة كلها مبنية ، فان سقف الهيكل القبلى والأوسط من الصخر الطبيعى

وبهذه الكنيسة ثلاثة هياكل ، كل هيكل فيها مكرس على اسم مخصوص ، وهذا كثير الوجود فى الأديرة ، إذ ان الدير وقد جعل كمدينة للصلاة فيجب أن يكون به لكل قديس عظيم هيكل خاص ، تُقام فيه الشعائر يوم عيده

فالهيكل البحرى مكرس على اسم الأربعة وعشرين قسيساً [١] والأوسط على اسم القديس انطونيوس — وبأعلاه فتحة هى المنفذ الوحيد الذى يدخل منه النور الى الكنيسة — ثم الهيكل القبلى وهو مكرس على اسم القديس بولا ، وأمامه قبر يقولون عنه انه يضم رفاته

وهذه الكنيسة يرجع عهدها الى وقت بناء الدير أو قبله بقليل ، وذلك لأن الرهبان عند ما استقر بهم المقام هناك لابد وانهم قد بنوا كنيسة يجتمعون فيها للاشتراك فى الصلوات العامة ، ولم يكن أمامهم أنسب لذلك الغرض من مكان المغارة التى صرف فيها القديس الجزء الأعظم من حياته

كنيسة أبى سيفين : تقع هذه الكنيسة أعلى كنيسة بولا بحيث ان جدارها القبلى مشيد فوق الجدار البحرى للكنيسة الأولى

وليس بهذه الكنيسة الا هيكل واحد للصلاة ، والى يساره توجد حجرة واحدة يسمونها كلومية ، ومعناها المكتبة ، وبها بعض الكتب الدينية ، ولكنها خالية من المخطوطات القيّمة

وباب الكنيسة يفتح فى الجهة القبلية ، وبها باب يؤدى إلى كنيسة بولا ، ويظهر أن الذى بنى تلك الكنيسة هو المعلم ابراهيم الجوهرى فى أواخر القرن التاسع عشر فان على أحد أبواب هذه الكنيسة كتابة بهذا المعنى

كنيسة الملاك : هذه الكنيسة تشبه تماماً كنيسة الرسل بدير

---

(١) يقصد بهم الشيوخ المذكورين فى سفر الرؤيا ٤ : ٤

أنطونيوس من حيث مساحتهاوتفاصيلها ، فهى مقسمة إلى أربعة أقسام يعلوها اثنتا عشرة قبة ، وبها ثلاثةهيا كل أيضاً إلا أن الهيكل البحرى لا يستعمل إلا فى وضع الكتب الدينية .

والرهبان يصلون فى هذه الكنيسة فى معظم أيام السنة لأنها متسعة ودافئة ، ولا يصلون فى الكنائس الأخرى إلا فى أيام أعياد القديسين المكرسة بأسمائهم الكنائس أو الهيا كل .

ويظهر أن بانى هذه الكنيسة وكنيسة بطرس وبولس واحد لتشابهما كما ذكرنا وكما تدل الكتابة الموجودة عليهما

المكتبة : كان لهذا الدير قديماً مكتبة عامرة ، حتى جاء البدو فى أواخر القرن الخامس عشر واحتلوا الدير فأحرقوا بعض المخطوطات وبددوا البعض الآخر ، وبضياع تلك الكتب اندثرت كثير من التواريخ الهامة التى كانت تفيد العالم لو بقيت لوقتنا الحاضر

وعند اعادة تعمير الدير حاول الرهبان تعويض ما أتلفه البدو ، إلا أنهم لم يكونوا بالدرجة العلمية التى كان عليها أسلافهم نظراً للأحوال السياسية والعلمية والدينية فى مصر فى ذلك الوقت ، فلم يُوَفَّقوا إلى ذلك تمام التوفيق إذ كونوا مكتبة قليلة الأهمية

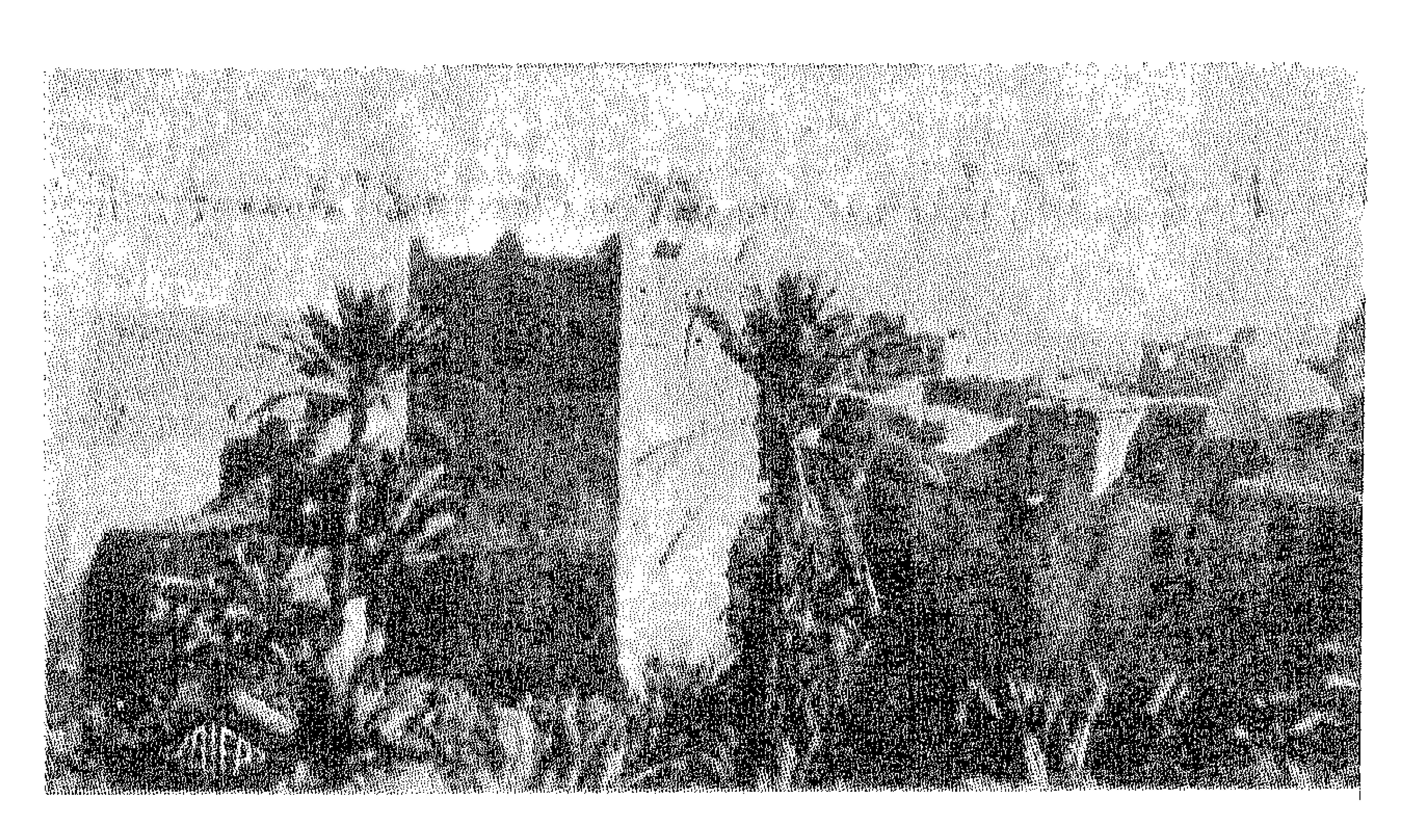
وفى سنة ١٨٣٤ لم يجد الدوق دى راجوس به سوى ثلاثة عشر مخطوطا فى القصر بخلاف ما كان موجوداً فى الأماكن الأخرى

والكتب الموجودة الآن بالدير موزعة على ثلاثة أمكنة ، فى الحصن حيث وضعت المخطوطات فى صندوقين كبيرين ، ثم فى الهيكل

البحرى لكنيسة الملاك ، ثم فى احدى الحجر الجانبية لكنيسة أبى سيفين .

والمهم فى هذه المكتبة أن بعضها اشتراه الافرنج عند زيارتهم للأديرة ، والبعض الآخر نقله أحد البطاركة الى القاهرة، والباقى وهو النذر اليسير هو الذى لا يزال باقيا بالدير

الحصن : يشبه الحصن فى دير بولا نظيره فى دير انطونيوس فى تركيبه، ويتكوّن من ثلاث طبقات ، بالطابق الأول المهملات وصهريج الماء المتصل بالعين والذى كان يشرب منه الرهبان حال احتلال الدير ،



(الحصن فى دير بولا)

أما فى الطابق الثانى فتوجد حجرة ضيقة بها صندوقان قد التى فيهما بغير انتظام كثير من المخطوطات القيمة، ومنها ما اختلطت صفحاته من أثر الاهمال ، أما فى الدور الثالث فأهم ما فيه كنيسة صغيرة ليس بها سوى مذبح تعلوه قبة خشبية وأمامه فضاء صغير لوقوف الرهبان وقت الصلاة .

وهذه الكنيسة مكرسة على اسم السيدة العذراء مريم ، وليس بالحصن كنيسة على اسم الملاك شأن الحصون الأخرى التى رأيناها فى غير هذا الدير .

وبجوار حجاب هيكلها رأينا قطعة خشبية مصنوعة على شكل غربان كثيرة متماسكة ، وقد أعلمنا الرهبان ان بعض الآباء فى الزمن الغابر قد عمل هذه القطعة كتميمه ، من تأثيرها أن تجعل زوجاً واحداً فقط من الغربان يسكن الدير ، وقد أضافوا على ذلك انهم لم يروا طول حياتهم أكثر من غرابين فى الدير فى الوقت الواحد ، وان كل زوج بعد أن يفقس بيضه ويخرج صغاره يهجر الدير ويتركه لفرخيه ، والغرض من عمل هذه التميمة هو لكى لا يأكل الغربان مزروعات الدير التى لا تكاد تكفى الرهبان ـ على اننا لا ندرى مبلغ ذلك من الصحة .

وبجوار الكنيسة حجرة أخرى حفظ فيها فى بعض الصناديق صلبان ذات أشكال جميلة وأحجام مختلفة ، وبها أيضا بعض آلات النجارة والخراطة والحدادة وغيرها مما يدل على أن الرهبان كانوا بارعين فى الصناعة فى الزمن القديم

وبالجملة ففى القصر آثار قيمة لو تناولتها أيدى الرؤساء بالاعتناء والتنسيق لأمكن تكوين متحف صغير منها فى نفس الدير

ان الأيدى قد لعبت كثيراً بالأديره ومحتوياتها ، وكم تصرف الرهبان فى كثير من الكتب والنفائس لقاء بضع دريهمات أو كلمات اطراء ومدح سمعوها من بعض الأجانب الذين يقدرون الفن القديم حق قدرة حتى

غصبت متاحفهم من آثارنا ، ولا يعلم إلا الله ما سيؤول اليه مصير تلك الأديرة ، بعد قليل من الزمان ان لم يقيّض الله لها من ينقذها من حالتها الحاضرة التى بلغت من الفوضى وسوء الادارة حداً لا يصح السكوت عنه .

قصر الضيوف : ليس فى دير بولا قصر لاستقبال الضيوف كما هو الحال فى دير انطونيوس وفى بقية الأديرة التى رأيناها ، وكل ما هنالك حجرة صغيرة معدة للجلوس ، ومفروشة بالأبسطة ومزودة ببعض الوسادات للاتكاء عليها ، وهناك حجرة فوقها أعدت للنوم بها بعض المراتب الملقاة على الأرض ، وتشبه تلك الحجرة بقية القلايات التى يسكنها الرهبان

مخزن الوقود : لتخزين الوقود يذهب الرهبان مع البدو الى شاطىء البحر الأحمر، حيث يجمعون كثيراً من الأخشاب التى يلفظها البحر على شاطئه كما يجمعون الحطب من الأودية المجاورة

أما الجو ومخزن الغلال والطاحون الحجرى والفرن والمائدة فهذه كلها تشبه نظائرها فى دير انطونيوس

التافوس : يوجد بالدير تافوس قديم يقع تحت كنيسة الملاك تماما ولا يزال مستعملا للآن لان الجديد الذى بنى حديثا بجوار العين لم يكرس بعد

الحديقة : تقع الحديقة فى الجزء البحرى من الدير القديم ومساحتها صغيرة لا تتعدى الفدان ونصف وليس بها إلا بعض الشجيرات المتفرقة

والخضراوات القليلة مما لا يكاد يذكر بجانب حديقة دير أنطونيوس

وفضلا عن صغر الحديقة فان بها كثيرا من الجهات بلا زرع مع أن أرضها صالحة للزراعة ، وذلك لعدم وجود المياه الكافية فى الدير

مطحنة الجبس: يوجد بالحديقة مطحنة للجبس تستعمل الآن لطحن الزيتون واستخراج زيته ، وكانت تستخدم قديماً للغرض الذى وضعت من أجله أى طحن الجبس واستعماله فى ترميم الدير ، وهى تشبه نظيرتها فى دير أنطونيوس

(مطحنة الجبس)

عيون الماء : يوجد بالدير عينان أهمهما العين الرئيسية وتقع فى الجزء الغربى من الدير ، ولكنها كانت قديماً خارج الدير ، الى ان جاء الأنبا خريسطوذولس فاراد ألا يكون للبدو أى نفوذ على الرهبان بتملك العين ، فبنى سوراً حولها وحول العين الأخرى

ولا ينزل من هذه العين سوى تيار ماء بسيط لا يكفى إلا

لحاجة الرهبان ولرى بعض أجزاء الحديقة

وقد ذكر المقريزى عن هذه العين أن السيدة مريم أخت موسى النبي قد اغتسلت فيها وقت خروج بنى اسرائيل من أرض مصر (١)

وهناك عين أخرى لاتدر الا ماء قليلا ، وتوجدعين ثالثة تقع خارج الدير على بعد ثلثمائة متر تقريباً من الواجهة القبلية للدير ، وبجوارها بعض النخيل والخضراوات التى يزرعها الرهبان

ويقولون عن العين الأخيرة انها هى التى التقى عندها القديسان انطونيوس وبولا حيث اقتسما رغيف الخبز الذى أرسلته لهما العناية الالهية (٢)

القديس بولا

ترجمة حياته : والآن وقد انتهينا من وصف الدير وأجزائه نتقدم الى ايراد مجمل لحياة القديس استخلصناه من نسخة خطية مكتوبة سنة ١٠٦١ ش (١٣٤٥ م) ومحفوظة بالمتحف القبطى

ولد القديس بولا فى مدينة الاسكندرية سنة ٢٢٨ م ، وكان له أخ يدعى بطرس ، فلما توفى والدهما وكان غنياً ولمّا يبلغ بولا رشده جلسا ليقتسما الميراث ، فأرادبطرس الأخ الأكبر أن يأخذ لنفسه الجزء الأعظم من الميراث ويعطى أخاه القسم الأصغر ، فتوجع قلب بولا لذلك ، وقال لأخيه لماذا لا تعطنى بقدر ما تأخذ لنفسك واشتد

---

(١) المقريزى صفحة ٥٠٢

(2) Coppin : Guerre Ste p 317

بينهما الجدل ، فمضيا الى الحاكم ليفصل بينهما ، وإذ هما سائران فى الطريق وجدا جنازة ميت ، فسأل الصبى بولا أحد الناس عنه ، فقال له هذا المتوفى كان من عظماء المدينة ، وله من الثروة الشيء الكثير ، وهو ذا قد ترك هذا كله وهو ماضٍ إلى القبر ، ولم يأخذ معه سوى الثوب الذى يلبسه ، فتنهد بولا وقال فى نفسه ، مالى ولهذا العالم الفانى الذى سأمضى وأتركه عرياناً ، ومن ثَمَّ التفت الى أخيه وقال له ، امضِ بنا يا أخى الى البيت ، فما بنا من حاجة الى قاضٍ ، ولكنه لم يرجع معه كما قال بل انزوى عنه وهرب

ويقال أيضاً ان سبب هروب الانبا بولا من العالم يرجع الى أن القديس كانت له أخت لها زوج شرير أراد امتلاك كل الميراث لنفسه دون بولا ، وأزمع ذلك الصهر لما رأى منازعة بولا له أن يبلغ الوالى الرومانى انه مسيحى لكى يقتله ، فهرب خوفاً من ذلك(١)

ولو ان الروايات تختلف فى السبب الذى حدا بالقديس الى الهروب من العالم ، الا انها تشترك فى انه ترك المدينة ولم يبلغ بعد سن الرشد ، حيث أقام فى قبر مهجور ثلاثة أيام كان يصلى فيها الى الله ، ويطلب منه أن يرشده لما يرضيه

فلما عرف الله قلبه استجاب صلاته ، وأرسل اليه ملاكا سار أمامه الى أن أتى به الى البرية الشرقية ، فأقام بها ثمانين سنة لم يعاين فى أثنائها أحداً البته ، وكان يلبس ثوباً من ألياف النخيل ، وكان الرب يُرسِل له غراباً بنصف خبزه كل يوم ليقتات بها

(1) Amelineau : His des Monastères p 2

تقابله مع القديس انطونيوس : والقصة التي تروى عن تقابل القديسين انطونيوس وبولا ، ان الله لما أراد اظهار قداسة الانبا بولا ، أرسل ملاكه الى القديس انطونيوس عند ما هجس بقلبه انه أول من سكن البرارى ، فأتاه الملاك وقال له فى رؤيا أن هناك بالقرب منك انسان لا يستحق العالم موطئ قدميه ، وبصلاته يرسل الله المطر على الأرض ، ويأتى فيضان النيل فى وقته ، فلما سمع القديس انطونيوس بذلك قام على الفور ومضى الى داخل البرية ، وأرشده الملاك الى مغارة القديس بولا ، فدخل عليه وسجدا لبعضهما ، وتحدثا بعظائم الله ، ولما كان المساء وأتى الغراب بخبزة كاملة ، قال القديس بولا له ، الآن علمت انك مرسل من عند الله لأنه لى اليوم ثمانين سنة يرسل الرب الىَّ نصف خبزه كل يوم وهوذا قد أرسل لك طعامك اليوم ، ولكن عجِّل وائتنى بالحلة التى خلعها الملاك على اثناسيوس البطريرك ، فخرج القديس انطونيوس من عنده وأتى مسرعا الى البطريرك وأخذ منه الحلة بعد أن روى له قصة مقابلته لذلك القديس ، وفيما هو عائد بالطريق أبصر روح القديس صاعدة بين زمرة الملائكة ، فلما أتى إلى المغارة ألفاه قد فارق الحياة ، فقبله وبكى ، ثم لفّه بالحلة وأخذ ثوبه المصنوع من الألياف .

ولما تحير فى دفنه دخل عليه أسدان وسجدا بوجهيهما على الجسد الطاهر ، وأخذا يشيران برأسيهما كمن يستأذن فيما يعمله ، فعلم أنهما مرسلان من قِبَل الرب ، فقاس لهما طول الجسد ، فحفرا بمخالبهما الى أن قال لهما كفى ، ثم قَبَرَ الجسد الطاهر ورجع الى البطريرك واعلمه بكل

ما حصل ، فأرسل هذا رجالا على عجل ليحملوا جسده ، فأخذوا يبحثون عنه أياماً كثيرة ولكنهم لم يجدوا له أثراً ، وأخيراً ظهر القديس للبطريرك فى حلم فأعلمه بأن الرب لا يشاء ظهور جسده فكفّ البطريرك عن البحث عنه

وقد تنيح هذا القديس عام ٣٤١ بعد ان عاش ١١٣ سنة

وفى بعض الروايات أن جسد القديس بولا نقل للقسطنطينية ، ثم الى البندقية فبود [1]

وقد اعتاد الرسامون أن يرسموا الانبا بولا ، وبجواره أسدان على جانبيه ، مع غراب يحلق فوق رأسه ، وقد أصبح واضحاً معنى هذا

وقد سمى المقريزى هذا الدير بدير النموره ، ويظهر أن العرب فى العصور السابقة أيضاً كانوا يسمونه كذلك ، كما يخبرنا الرحالة سيكار [2] . وربما كان سبب هذه التسمية الاعتقاد بأن النمورة هى التى حفرت قبر القديس [3] ، وربما كان السبب أيضاً وجود بعض النمورة قديماً بجوار الدير ، يدلنا على ذلك ما كتب فى رحلة كوپان من انه قبل مبارحته الدير أخذ يتحقق من عدم وجود أعراب أو نمورة خارجه [4]

(1) Couvent de St Antoine p 150
(2) Miss. dans le Levant V p. 170
(3) Granger : Voyage en Egypte p 117
(4) Coppin : Guerre Ste p 316

الفصل الخامس

على شواطىء البحر الأحمر

لم نقم فى دير بولا سوى يوماً واحداً وليلة واحدة وذلك لضيق وقتنا ، ولكننا استطعنا أن نستطلع فى تلك الآونة القصيرة محتويات الدير وأهم الآثار الموجودة به

اليوم التاسع : خرجنا من دير بولا فى منتصف الساعة الأولى بعد ظهر يوم الأحد قاصدين البحر الأحمر للمبيت بقرب شاطئه ، فخرج الرهبان بكامل هيئتهم لتوديعنا ، وأخذوا يسيرون معنا ويحادثوننا فى شتى الأمور الدينية والدنيوية ، ويوصوننا بايصال أخبارهم ورسائلهم الى رئيس الدير الموجود ببوش والى أقاربهم الموجودين بالقاهرة وغيرها ، وقد طال زمن توديعنا إذ قطعوا برفقتنا مسافة طويلة ، حتى اذا أوشك الدير أن يغيب عن أعيننا القينا عليه نظرة ختامية ونحن لا نظن أن الزمان سيسمح لنا برؤياه مرة أخرى

ودعنا الآباء بعد أن ألحّوا علينا وكرروا الرجاء بالبقاء معهم مدة أطول ، ولكننا لم نتمكن من اجابة طلبهم لضيق وقتنا ، وإذ اعتذرنا لهم الاعتذار الكافى قفلوا عائدين الى ديرهم وهم يرمقوننا بأنظارهم ، ويبتهلون الى الله ان يحفظنا فى رحلتنا هذه ، وربما كانوا يحدثون أنفسهم ونحن نختفى عن أنظارهم ، بعد كم من الزمن ستتاح لهم

فرصة التقابل مع غيرنا من الزائرين أو السائحين .

أخذنا نسير فى رجوعنا فى نفس الوادى الذى بلغنا به الدير، ونحن ندور بشكل حلزونى نقابل على الجانبين صخوراً سوداء وأخرى حمراء لعبت بها أيدى الزمن، ولفحتها الأهوية والعواصف وأحرقتها الشمس بحرارتها ، وقد ظلت تغالب قوى الطبيعة دهوراً طويلة تخضع لسلطان البرودة تارة ولسلطان الحرارة طوراً ، وتتعاقب عليها الأزمنة وهى قائمة تنطق بعظمة الطبيعة وقدرة الخالق جل شأنه ، وستستمر على حالها احقاباً طويلة من الدهر لا يعلم مقدارها الا مهندس الكون الأعظم

ومن ذا الذى يستطيع أن يتعرف مقدار اعمار تلك الجبال والصخور الموجودة فى تلك الجهة أو فى غيرها من الجهات ، وما هو عمر البشرية ازاءها ؟ وما هو عمر الانسان ذلك المخلوق الضعيف ازاء هذين العمرين ؟ انه ولا شك قدراً ضئيلا بالنسبة اليهما .

أخذنا نشق طريقنا فى ذلك الوادى «وادى الدير» فمررنا بأكمة قايب الراهب ، ثم بالزهور النابتة الجميلة فى قلب الوادى ثم بالفجوات المتسعة فى جوانبه. والمناظر تتعاقب علينا وتمر بنا مرور الأيام بالانسان ، حتى وصلنا الساعة الرابعة الى المكان الذى تركنا فيه أمتعتنا من فرش وغطاء وحقائب وغيرها ، فوجدناها كما تركناها تماماً فى تلك الصحراوات الواسعة حيث لا خوف عليها من سرقة أو ضياع .

وصلنا الى ذلك المكان والشمس لا تزال فى كبد السماء ، وكان البحر يظهر لنا قريباً جداً فترجلنا ورغبنا أن نسير حتى نصل اليه

لأن منظره كان قد استهوى نفسينا ، فتركنا أمين الديرمع البدو خلفنا ظناً منا أن المسافة اليه لا تستغرق أكثر من ثلث ساعة ، فأخذنا نمشى تارة ونعدو تارة أخرى والبحر طول تلك المدة يبدو لنا قريباً جداً ، وما كان أشد اندهاشنا إذ رأينا أننا استغرقنا فى وصولنا لشاطئه ساعة ونصف من الزمان

والأرض هناك يسميها العرب بالأرض المسحورة ، ويقصدون بذلك أن الأماكن التى تبدو قريبة المنال هى فى الواقع بعيدة جداً قد تستلزم أضعاف الزمن الذى يظنه المرء كافياً لبلوغها

وقد شاهدنا بأنفسنا كثيراً من تلك المناظر الخداعة هناك ، فكنا إذا ابتعدنا قليلا عن بعضنا اختفى الواحد منا عن نظر أخيه ، وذلك لأننا نكون فى ذلك الوقت فى واديين مختلفين تعلو الأرض بينهما فتحجب أنظارنا عن بعضنا البعض

وصلنا إلى البحر وقد نظرنا خلفنا لنرى أثراً للجمال أو البدو رفقائنا فلم نجد لهم أثراً ، لأن الأرض ولو أنها ممهدة فى مجموعها إلا أنها تعلو وتنخفض ، فيختفى السارى إذا تعمّق فى أحد الأودية ويظهر ان اعتلى إحدى المرتفعات ، وقد أخذنا نجول بأبصارنا فى طول الصحراء وعرضها باحثين عن هؤلاء الزملاء ، وإذ أخفقنا أخذنا نستعين بمنظار مكبر منقبين فى كل النواحى إلى أن لاحت لنا أشباح الجمال الضئيلة على بعدٍ شاسع ، فأخذنا نجرى نحوها وكانت قد اقتربت من الشاطىء

والحق يقال أن الهموم ساورتنا حال ابتعادنا عنهم ، فتخيلنا نفسينا وقد ضعنافى الصحراء ، واننا أصبحنا فى قبضة الطبيعة الجائرة التى لاترحم

وفى الواقع فان وصف الكتاب عن الضلال فى الصحراوات ليست إلا أفكارمنمقة تبين الحياة البشرية فى أقسى مراحلها ، فيمر بها القارىء متاهياً بألفاظها معجباً بمعانيها ، ولكن شعور الشخص الذى سُدَّت أمامه الطرق سيبقى سراً غامضاً يطوى مع رمسه ولا يدركه أحد سواه

كان همنا حال وصولنا للبحر أن نجمع الأصداف المتنوعة التى رأيناها بألوانها الجميلة وأشكالها الجذابة ، ولكننا ما رأينا الجمال حتى هرعنا نحوها لنلتقى برفقائنا إذ كان الليل قدأرخى سدوله

بتنا ليلتنا ونحن على بعد عشر أقصاب من الشاطىء ، وقد ابتعدنا هذه المسافة خوفاً من المد ومن مهاجمة وحش البحر المسمى الجرش ، والذى كثيراً ما يخرج من البحر فيفتك بما يجده فى طريقه من انسان أو حيوان

استدفأنا بعد أن أكلنا وشربنا ثم نمنا نوماً هادئاً عميقاً تحت تأثير نسيم البحر العليل ، ولم نُفِق فى الصباح إلا على صوت أمين الدير الذى بكَّر وطاب الينا أن نشد الرحال للسفر إلى نقطة البوليس القريبة من الشاطىء ، وهى مرسى ثَلْمِتْ .

اليوم العاشر : بدأنا السير اليها الساعة السادسة والنصف صباحاً ، ونحن نسير بحذاء الشاطىء نتلهى بجمع الأصداف وبقايا الحيوانات البحرية

لم يكن طريقنا مستوياً بل كنا نصعد ونهبط حسب طبيعة تلك الأرض ، كما أنه لم يكن مستقيما فقد ظهر لنا أن البحر هناك يعمل خليجاً صغيراً داخل الارض ، فكنا ندور حوله ونحن نترك خلفنا الأودية والآكام حتى وصلنا تلك الميناء بعد أربع ساعات لم نشعر فيها بعناء ولا تعب

ومرسى ثلمت هذه نقطة بوليس صغيرة لا تحتوى الا على عدة أكشاك خشبية فيها ضابط بوليس وعدد من الهجانة العبيد ، وأهم غرض من وجودهم بها هو القبض على المهربين حال وصولهم للشاطىء ، ومطاردتهم واقتناصهم من الجبال التى يتخذونها مكمنا لهم .



(مرسى ثلمت)

وجدنا هناك فى تلك النقطة مقصفاً صغيراً اشترينا منه لوازمنا من سردين ومربة وخبز ، وما استرحنا الا قليلا حتى يممنا جهة الشمال قاصدين فنار زعفرانة الموجود على شاطىء البحر أيضا .

أخذنا فى طريقنا إلى فنار زعفرانه ساعة ونصف فقط وكانت الأرض مستوية فلم نجد صعوبة فى ركوب الجمال أو السير على الأقدام

والفنارات القائمة على شاطىء البحر الأحمر كثيرة أُنشئت لهداية السفن البحرية فى ذهابها وايابها ابان الليل ، حتى تبتعد عن مكان الصخور البحرية التى تنمو فى وسط البحر كالأعشاب تماماً ، وتكوّن حواجز ضخمة ، تعيق سير السفن وتحطمها اذا ارتطمت بها

ومن الفنارات الموجودة على خليج السويس بخلاف فنار زعفرانه ، فنار أبى الدرج المبنى بجوار دير الدرجى المتهدم وفنار الاشرفى وفنارات أخرى عددها سبعة ، بعضها نوره أبيض والبعض الآخر أحمر .

وصلنا هناك قبل غروب الشمس بقليل وكان لنا الحظ بمشاهدة اضاءة ذلك الفنار ، إذ صعدنا اليه فى درجات ضيقة تبلغ نحو السبعين، فما وصلنا أعلاه حتى وقفنا أمام قبة عالية وجدنا فى وسطها مصباحاً كبيراً تزيد قوته عن العشرة الآلاف شمعة ،فأضاءه

(فنار زعفرانه وبه المؤلفان)

الموظف أمامنا بواسطة الكحول، فظهر ضوءه شديداً جداً

والفنار عبارة عن برج حجرى مستدير ، بأعلاه مصباح كبير ينكسر نوره على منشورات زجاجية تعكسه فى عرض البحر لمسافة أربعة عشر ميلا حينما يكون الجو صافياً

ولا يوجد بجوار الفنار الا بعض الحجر الصغيرة المعدة لسكنى الموظفين المعهود اليهم إشعال المصباح ومراقبته طول الليل ، وهناك أيضا مسكن للخفراء الذين يحرسون الفنار

وقفنا فى أعلى الفنار قليلا والهواء الرائق ينعش نفوسنا حتى ثملنا من خمرته ، فاردنا أن نستريح فنزلنا ، وهناك فى حجرة صغيرة تلاصق الفنار بتنا ليلتنا

كان جلّ اهتمامنا أثناء سيرنا على شواطىء البحر صيد الأسماك ، وقد اخذنا معنا شباكاً لهذا الغرض القيناها مراراً فى عرض البحر ولكننا لم نصطد شيئاً ، وكان ذلك غريباً لان تلك الاماكن مصايد جيده للاسماك يستخدمها رهبان ديرى انطونيوس وبولا فى الحصول على مقادير وافرة من الاسماك ، يملحونها ويأكلونها على مدار السنة

والسبب الذى من أجله لم نجد اسماكاً هو أن الامطار التى تساقطت بغزارة قبيل سفرنا وقيامنا بهذه الرحلة ، كان من اثرها ان اكتسحت أثناء سقوطها من الاتربة والرمال الشيء الكثير الذى قذفت به الى البحر ، فعكرت مياهه الرائقة ، وهربت الاسماك من الشواطىء الى أواسط البحر لتعيش فى المياه الصافية

اليوم الحادى عشر : كررنا فى اليوم التالى لذهابنا للفنار القاء الشباك لاصطياد الاسماك ، فلم يكن حظنا فى ذلك اليوم باحسن من سابقيه، فذهبنا الى البحر واغتسلنا فيه فوجدناه ضحلاً على الشاطىء ، اذ سرنا فيه نحو خمس أقصاب ولم تغمرنا المياه لاكثر من الصدر

وماء البحر مالح جداً ، وأولئك الذين يعيشون فى الفنارات وفى مرسى ثلمت وغيرها من الموانى تصلهم مياه الشرب العذبة من السويس بواسطة بواخر مصلحة الحدود ، فتخزن عندهم فى أبار صغيرة أو فى صهاريج من الزنك ، لاستعمالها للشرب ولوازم المعيشة الاخرى

والصحراء الشرقية أوصحراء العرب تختلف فى طبيعتها عن صحراء ليبيا بقرب وادى النطرون ، اذ أن الاديرة فى الصحراء الاخيرة ترتوى بواسطة السواقى ، لأن الأرض فى تلك الصحراء منخفضة ، وأما فى صحراء العرب فالأرض جبلية مرتفعة ، ومن العبث محاولة حفر الآبار هناك ، لأن الأرض تعلو عن مستوى النيل كثيراً جداً

والمنظر هناك بجوار الفنار جميل جداً ، فالجبال تلاصق سواحل البحر ، ومنظر النباتات النامية على الشواطىء ، مع الأصداف المتنوعة التى تختلط مع مياه البحر الصافية ، كل هذه تبعث السرور فى النفوس

كان الترتيب أن نسافر من فنار زعفرانه عائدين لدير انطونيوس ، ولكننا بناءً على دعوة ضابط مرسى ثلمت عرجنا على تلك الميناء ، وهناك صرفنا يوماً وليلة أخرى بصحبة ذلك الضابط النشيط ، وأتيحت لنا فرصة كبيرة للحصول على مقدار أوفر من الأصداف المتنوعة والتقاطها

من شاطىء البحر حيث أحضرنا منها شيئاً كثيراً معنا للقاهرة

يقولون أن الحرمان من اللذة شيء صعب على النفس ، ولكننا في هذا المقام يمكننا أن نثبت العكس ، فقد كان حرماننا من لذة المسكن والأسرّة والأكل المناسب ، ومن الفواكه والخضراوات شيئاً جميلا ومقبولا ، لأن ما كنا نراه من المقادير البسيطة منه كان أشهى لنفوسنا من كل شيء آخر

والمعيشة فى تلك الأماكن النائية عن المدن ، والبعيدة عن العمران ، والتى يشعر الانسان انها مهبط الوحى هى لذيذة وجميلة ، لولا ان الانسان أصبح مدنياً بطبعه يعاف الوحدة والعزلة ، ولا يهدأ له بال الا اذا كان محاطاً بغيره من الناس

جلسنا على شاطيء البحر نراقب قرص الشمس وهو ينخفض شيئاً فشيئاً فى الفضاء الى أن اختفى تماماً وأدركنا الظلام ، فاخذنا نراقب النجوم وهى تبدو بالالوف الى أن امتلأت بها صفحة السماء الواسعة ، وظهرت أمامنا جليه تلك النقط اللامعة التى يقول الفلكيون انها عوالم تحوى مخلوقات أخرى — وإذا كان قولهم حقاً الا يعدُّ الانسان شيئاً عديم الاهمية اذا قِيْسَ بتلك اللانهاية التى لم يدرك كنهها أحد ؟

قنعنا برؤية هذا المشهد بغير أن نشغل عقولنا فى تعرُّفه ، فان عقل الانسان الذى يزعم أنه واسع ليس الا شيئاً تافهاً ، فهو كالاناء الذى لا يلبث أن يمتلىء ، فاذا أُكرِه على قبول الحكمة التى تدبر الكون تحطم وتحول الى شظايا

ما أحلى تلك الليالى الصافية الحلوة الجميلة ، والقمر يسطع باشعته

الهادئة الفضية فيكسب الهدوء ثوباً فضياً يتلألأ أمام عين الناظر ، ويصور له صفحة من صفحات الخلود والنعيم الذى وعد الله به متقيه .

اليوم الثانى عشر : وفى صباح يوم الاربعاء عزمنا الرحيل الى دير انطونيوس ، فبكرنا فى القيام لولا أن تصادف أن قابلنا أحد الصيادين فى قارب صغير ومعه صيد كثير ، فاشترينا منه أسماكا متنوعة ودفعنا له الثمن خبزاً ، وكان هذا جل مطلوبه لان النقود لايجد مايشتريه بها هناك ، وكأنه عزّ على العناية الالهية ان لا ترسل لنا الاسماك التى ظللنا ننشدها طول الاربعة الايام التى قضيناها متنقلين على شواطئ البحر الاحمر ، فكان ما كان وحصلنا على السمك فى أخر لحظة لوجودنا على شاطىء البحر

يممنا شطر دير انطونيوس ، فبدأنا السفر الساعة السابعة والنصف صباحاً ، ولم نذهب من الطريق العادى ، ولكننا تسلقنا الجبال كسبا للوقت ، وتقصيراً للطريق ، فأخذنا نسير فى طرق غير مسلوكة ، وقد عزمنا أن لا نبيت فى الصحراء تلك الليلة ، فكنا نصعد ونهبط بين الآكام والجبال ، وليس هناك أثر للطريق سوى معرفة العرب به ، ولم يكن باستطاعتنا ركوب الجمال لضيق الطريق ووعورته ، فسرنا على الأقدام مسافات شاسعة نلتقط أحجاراً ذات ألوان مختلفة

وما زلنا فى سيرنا حتى وصلنا الى هضبة منخفضة تدعى أبو مُغْرَه ،

وما كان أشد اندهاشنا إذ وقعت أبصارنا على مساحيق مختلفة من الاصباغ ، فمن مساحيق حمراء الى أخرى خضراء الى ثالثة صفراء وهكذا ، وبالاختصار فقد كان ذلك الجبل معرضاً لألوان مختلفة سمحت الطبيعة

بتكوينها ووجودها فى بقعة واحدة ، وتشبه تلك الهضبة الجبل الأحمر الموجود بالعباسية ، اذ يوجد فيه مساحيق مختلفة الألوان كهذه

أخذنا عينات كثيرة من تلك الألوان الطبيعية ، ونحن نظن أن جميع الألوان التى نراها فى المدن كأنما أخذت من ذلك الجبل الطبيعى .

ودعنا تلك الهضبة كغيرها من الأماكن الطبيعية الهامة والتى قد لا تسمح لنا الأيام برؤياها مرة أخرى ، فأخذت تطل علينا كما أطلت على أناس عديدين من قبل أتوا قديماً فرأوها بحالتها الراهنة — الأزمنة تتبدل وتتغير ، وتلك عظمة خالدة ، والانسان سيد الأكوان المسيطر على قوى الطبيعة يموت ويبلى ، وتلك المناظر لا يصيبها ضرٌّ ولا وهن ، وكم مرت بها عواصف شديدة وسيول جارفة ، فما اقتطعت منها شيئاً يذكر ، ولا غيرت من حالها الا يسيراً جداً

أخذنا نَجِدُّ فى السير فوصلنا فى منتصف النهار الى وادى الرجبة ، وهناك فى ذلك الوادى استرحنا وقلينا السمك الذى أحضرناه معنا ، فأكلنا وشربنا ، ثم نمنا نوما عميقاً شأن من يتعرض للهواء الطلق ، فلم نستيقظ الا الساعة الثالثة

ثارت بنا العاصفة ولم نستأنف سيرنا بعد ، فأخذت ذرات الرمال تتطاير حتى ملأت الفضاء الواسع ، ولم تجد أشعة الشمس منفذاً لها الينا حتى خيل لنا أننا فى ظلام دامس ، ثم ما لبثت أن أخذت ذرات الرمال تتطاير فى وجوهنا

والطبيعة فى تلك الأماكن حرة طليقة ، لا تخضع لقوانين المدن ولا يَحِدُّ سلطانها انشاءات أو استحكامات ، بل اذا ثارت ثائرتها أرعدت

وأبرقت وصبّت جام غضبها ، وبطشت بكل موجود يقف فى طريقها واصلته ناراً حامية ، وأغرقته بوابل أمطارها ، وأوقعت به شر انتقامها

وكما ان للصحراء ابتسامة تستهوى القلوب ، وتمتلك الأفئدة ، فإنها غضبة مريعة ان تناولت أحداً قضت عليه لامحالة

حزمنا أمتعتنا بعد هدوء العاصفة وبدأنا المسير ، وقد قصّ العرب على مسامعنا رواية أمّن عليها أمين الدير ، كما جزم بصحتها كثير من الرهبان ، ولغرابتها نسردها هنا على سبيل الرواية فقط

وتتلخص فى انه فى وادى الرجبة توجد أديرة تسكنها أرواح السواح أو الرهبان المنفردين لا يعرف مكانها بالضبط ، ولا يمكن لأحد أن يجدها أو يراها مهما حاول البحث عنها ، ولكنها تظهر فجأة لمن يضل الطريق فى تلك الأماكن ، ثم تختفى بعد ذلك عن نظره اذ ما اهتدى الى طريقه ، وقد أراد أحد الرهبان الذين دخلوا أحدها أن يتعرف الطريق اليها ، فأخذ يضع برتقالا مما كان معه على مسافات معينة من الطريق حتى اذا ماوصل الى دير انطونيوس وأراد العودة اليه تفقّد البرتقال فلم يجد له أثراً

ويقولون أن من يأوى الى تلك الأديرة من الذين يضلون الطريق يجد فيها من المأكل والمشرب ، ومن ترحيب الرهبان به ، وعطفهم عليه الشيء الكثير وقد زادوا على ذلك انهم يسمعون فى بعض الأحايين أصوات النواقيس فى ذلك الوادى ، ولا يعرفون مصدراً لها

وليس لنا أن نحكم على مبلغ تلك الرواية من الصحة ، وماذكرناها هنا إلا لأن البدو كانوا يؤكدون لنا بكافة الطرق صدق قولهم على وجود تلك الأديرة

استأنفنا سيرنا ونحن نرغب أن نبيت تحت سقف الدير تلك الليلة، فأخذنا فى السير بين الودبان والجبال ، وجمال الطبيعة يتجلى أمام انظارنا تحت ضوء الشمس الساطعة ،حتى آذنت الشمس بالمغيب فاخذت تغالب جيوش الظلام وتنتصر تارة وتنهزم أخرى حتى وهنت قواها أمام عدوها، فتقهقرت وقد تخضب قرصها وسالت دماؤها على قمم الجبال فاصطبغت بلون أحمر وردى" ومالبثت أن هوت صريعة خلف الجبال العالية القريبة منا ، ثم انطلقت جيوش الظلام بخيلها ورجلها تتسابق فى ذلك الفضاء الواسع وتنشر الويتها فى تلك البقاع فتبدل بذلك البياض بالسواد والنور بالظلمة

سألنا العرب عن الزمن الذى فيه نصل الدير فاجابونا بأن ثلاث ساعات ليست كافيه، فربما اخذنا أكثر من ذلك، وكنا اذ ذاك فى منتصف الساعة السادسة فاخذنا نجدُّ فى السير فى تلك الظلمة القاتمة والسواد الحالك، واستعنا بمصباح ضئيل لينير لنا الطريق، ولكن أنَّى لنا ذلك والهواء شديد لايمكن للمصباح أن يستقر فيه ، فكان اعتمادنا على معرفة العرب بالطريق وحفظهم لها جيداً ، ومن المدهش انهم كانوا يسيرون فى تلك الظلمة بدون أن يحيدوا عن الطريق شيئاً يذكروهم يصعدون بنا تارة ويهبطون أخرى

وماوافت الساعة الثامنة والنصف حتى لاح لنا ضوء ابيض فى وسط تلك الظلمة القاتمة وكان سرورنا عظيما حينما علمنا أننا أصبحنا بقرب الدير، وما هى الا لحظات قليلة حتى كنا بالباب نقرع الجرس ونبغى الدخول إليه بعد تلك الرحله الطويلة .

الفصل السادس

شىء عن الرهبان

كان أهم ما قمنا به طول مدة اقامتنا بالاديرة أننا كنا نشترك مع الرهبان فى جميع صلواتهم الصباحية والمسائية ، وكان جميلا على أنفسنا اجتماعنا بهم فى أوقات مختلفه لنتذاكر واياهم نصوص الكتاب المقدس وأخبار الآباء القديسين، وكنا ننتظر قرع الجرس المؤذن بالصلاة بذاهب الصبر، لنشترك معهم فى ترتيل المزامير وتلاوة الصلوات والادعية .

والقيام بالشعائر الدينية ، والابتهال الى الله فى تلك الاماكن ليست واجبات تؤديها النفس متضجرة متزمرة ، او يساق اليها الانسان سوقاً ، وانما هى الغريزة التى تدفعه حتى تعبر النفس لخالقها عن ضعفها أمام قوى الطبيعة وأحكامها القاسية ، وتلتمس منه الرحمة والمعونة يوماً بعد يوم

ولربما كان اختيار تلك الأماكن لتشييد الأديرة عليها صورة لهذه الحقيقة وعملا بهذا المبدأ ، ولكم كُتِبَ فى الانجيل عن السيد المسيح انه كان يسير الى الجبال العالية والبرارى الشاسعة للصلاة عليها مع تلاميذه أو لتعليم الجموع الغفيرة التى كانت ترسم خطواته ، فللجبال والقفار تأثير على العقل والروح يغاير تأثير المدن الصاخبة ويخالف طابعها فى النفوس

وقليلون هم الذين يدركون لذة الحياة النسكية والتعلق بأهداب

العزلة، والتخلص من تكاليف هذه الحياة المضنية التى لا تزيد الانسان الا تعباً وشقاء ، فهناك فى تلك العزلة لا يشغل الانسان شاغل عن الصلاة والعبادة ، ودراسة الكتب المقدسة، والتبحر فى العلوم والفنون، والوصول الى درجة سامية من العلم والتقوى

تكريس الرهبان : والرهبنة كما قلنا نذر اختيارى يقضى بأن يعيش المرء بتولا مخصصا حياته للعبادة وأعمال التقوى.

والراغب فيها كان يذهب قديما الى أحد الأديرة ، ويمكث هناك مدة بين الرهبان لا تقل عن الثلاث سنين يكون فيها تحت المراقبة الشديدة ، ويعهد اليه بكل عمل شاق ، فاذا ما أظهر فى تلك المدة رغبة صادقة الى ارتشاف العلم ، وميلا الى تلقى أصول الدين ،وأظهر فى الوقت ذاته عفة واحتمالا للمشاق التى تتطلبها معيشتهم زكاه الرهبان أن يندمج فى سلكهم ، فيلتئم مجمعهم للنظر فى ذلك ،فاما أقروه أو أجلوه مدة أخرى اذا عارض البعض منهم لسبب من الأسباب

أما فى الوقت الحاضر فلقد تبدلت الأمور وتغيرت الأحوال فيدخل راغب الرهبنة الى الدير ، وربما يكون قد رغب عن حياة المدن لحاجة من الحاجات، أو لظروف طرأت عليه قد تزول سريعاً ، فما يلبث شهراً أو أكثر قليلا حتى يزكى ويرسم راهباً

وبطبيعة الحال ليست هذه المدة الوجيزة كافية لاختباره وتمحيص أخلاقه لمعرفة ما اذا كان يصلح للرهبنة أو لا يصلح، وعذر الرؤساء فى التعجيل برسامته هو خوفهم أن يؤثر عليه مؤثر من أهله أو من نفسه فيعدل عن تصميمه.

ولكن، أليس الشخص الذى يخضع لتأثير أهله ويُرهِف أذنه لسماع أقوالهم، وينقض اليوم ما بناه بالأمس، غير جدير بأن يعيش تلك العيشة السامية التى تتطلب عزماً وإرادة قوية ليست فى مقدور الكثيرين؟

ثم أليس الأفضل أن يترك مثل ذلك الضعيف العقيدة المعيشة النسكية وهو علمانى لم يرسم بعد، من أن يهجرها بعد رسامته، ويصبح حجر عثرة فى سبيل الآخرين؟

الحق أن الرؤساء بهذا التعجيل يجنون أعظم جناية على الرهبنة والرهبان

وعلى كل حال فالشخص الذى يمضى مدة الاختبار على ما يرام، ويتفق الرهبان على رسامته يصلون عليه صلاة الموتى، ويلبسونه لباسهم الخاص الذى لا يفارقه مدى حياته

وصلاة الموتى هذه تعتبر اشهاراً للناس واشعاراً للشخص نفسه بأنه قد مات عن العالم ليحيا حياة روحية بعيدة عن الماديات

وكانوا فى القرون الوسطى يعتبرون الرهبان أمواتاً من الوجهة القانونية ولو أنهم أحياء فى الواقع، بمعنى أنه كان من المحظور عليهم أن يتملكوا شيئاً أو يدخلوا فى عقود معينة — تلك الأمور التى تميز الأحياء عن غيرهم

علاقتهم بالدرجات الكهنوتية : والرهبنة نظام يُقصد به التشبه بحياة الملائكة الذين يقضون أوقاتهم فى تسبيح الخالق سبحانه وتعالى، وهو لذلك ليس له أى دخل بالدرجات الكهنوتية كما قد يتطرق إلى ذهن البعض

والذى يدلنا على ذلك أن أنطونيوس أبا الرهبنة نفسه لم تكن له

أى درجة كهنوتية، وباخوميوس أبا الشركة كان عالمانيا ولم يكن قساً أو مطرانا

وقديماً لم يكن بالدير الذى كان يجمع المئات من الرهبان سوى قسيس أو أكثر للقيام بالشعائر الدينية ، ولم يكن وسط جماعات المتوحدين أيضاً إلا القليل من القسوس ، حتى ان جبال نتريا التى كانت تحوى خمسة آلاف راهب لم يكن بها سوى ثمانية قسوس

على أنه من الغريب اليوم أن الرهبنة أصبحت مقرونة بالدرجات الكهنوتية ، حتى انك لن تجد من بين الرهبان الا القليل النادر الذى لم يرسم قسا أو قمصا ، والأغرب من ذلك ان الرؤساء يعتقدون ان هذه الدرجات تُكتسَب بمضى المدة ، فلا يشترطون فى منحها شيئا سوى بقاء الراهب مدة معينة فى ذلك السجن الاختيارى، وبهذا فقدت تلك الدرجات السامية مميزاتها ، وأصبحت رتبة الراعى تعطى لمن لا يصلح أن يكون فى صف الرعية ، ورتبة المُدَبِّر تمنح لسيء التدبير الذى يجب وضعه تحت رقابة غيره لسوء تدبيره

وتراهم اليوم يسعون بكل طريقة الى تسنم الدرجات الكهنوتية بعد أن كانوا قديما يهربون منها ولا يقبلونها الا مرغمين

آدابهم : ومن آدابهم أنه لا يصح أن يدخل الواحد منهم على أخيه بدون أن يقول وهو يقرع بابه ، جملةً باللغة القبطية معناها « اصنع محبة »، فان أجابه من الداخل وقال « محبة » دخل ، والا مضى الى حال سبيله

واذا قدم أحدهم لآخر خدمة مهما كانت طفيفة، قال له « الله يعوضك »

ومن عادتهم انهم يغسلون أرجل جميع من يزورهم بالدير ، على أن هذه العادة قد تقلص ظلها كثيراً، لأننا لم نجدها الا فى دير البرموس.

وكان محظوراً دخول السيدات بتاتاً الى الأديرة ، ولو كانت تلك السيدة من أقرباء أحد الرهبان ، الا أنه اليوم يسمح لبعض الأجنبيات اللواتى يحضرن لرؤية الآثار بالدخول فقط وليس بالاقامة

وبمجرد دخول الراهب الى دير من الأديرة واندماجه فى ساكنه ، فانه يلقب باسم ذلك الدير مضافا الى اسمه

وهم ينادون بعضهم البعض بقولهم « يا أبى » تعظيما واحتراماً

وحسب قانون الرهبنة يتساوى الرهبان فى جميع لوازم المعيشة والملبس، تشبهاً بالقديسين فى العصور الأولى للمسيحية

مقدار تدينهم : الرهبان من الوجهة الدينية مواظبون على أكثر أصول الدين ، فهم يبكرون فى الصباح لتلاوة الصلوات ، وفى المساء كذلك يذهبون الى الكنيسة ليصلون صلاة المساء، وهم يعملون قداسات كل يوم من أيام الاربعاء والجمعة والآحاد والأعياد

وهم يمارسون الصيامات التى وضعتها الكنيسة القبطية الأرثوذكسية ، ويصرفون أكثر من نصف السنة ممتنعين عن تناول الأطعمة الدسمة ، فضلا عن ان بعضهم يمتنع بتاتاً عن تناول الأطعمة لساعة متأخرة من النهار

وهناك تقليد ورثوه عن أسلافهم ، وهو انهم يشتركون فى تناول الغذاء طول مدة الصوم الكبير على مائدة واحدة، بينما يقوم أحدهم

بتلاوة فصل أو أكثر من فصول الكتاب المقدس ، واما فى غير تلك المدة ، فانهم ينفردون فى حجراتهم الخاصة ليتناولوا غذاءهم بها

وهم يمارسون سر الاعتراف الذى وضعته الكنيسة القبطية لأقصى حد ممكن ، اذ أنهم يعترفون على بعضهم البعض عما ارتكبوه من الاخطاء مرة واحدة على الأقل كل يوم

واذا حصل خلاف بين اثنين أو أكثر ، وتعسّر على اصدقائهم أن يزيلوا أسباب ذلك الخلاف ، فانهم يقرعون الجرس عدة قرعات غير منتظمة اعلاناً لذلك ، حتى اذا ما اجتمع الرهبان فى حجرة واحدة احتكم المتخاصمون الى هذا المجمع الذى يكون حكمه نهائياً واجب النفاذ

على ان هذا قليل الحدوث ، اذ أنهم ذوو قلوب طيبة ويصفحون دائماً عن بعضهم البعض

والراهب مكلف بعمل ١٥٠ مطانية كل يوم ، وعمل المطانية هو أن يسجد الانسان وهو يرسم علامة الصليب أثناء ذلك ، أما الكلمة فمعناها باليونانية والقبطية التوبة

وهناك من بين الرهبان من يقوم بعمل ٣٥٠ مطانية يومياً ، وهؤلاءهم حَمَلة الاسكيم أو اللبس الملائكى — والاسكيم عبارة عن منطقة من الجلد توضع حول الصدر والظهر ، يلبسه قليل من الرهبان زيادة فى التقشف ، بأن يضعوا أنفسهم تحت أحكام شديدة كأن يصوموا مدداً طويلة ، ويتلوا صاوات أطول من اخوانهم

مقدار تعلمهم :



(راهب يشتغل بعمل الخبز)

والرهبان اليوم ، رغم قيامهم بجميع أعمال الدير، من زرع الحديقة وتنسيقها وطحن الغلال وعمل الخبز ، فهم يصرفون معظم أوقاتهم في البطالة والكسل ، وهذا عيب في الرهبنة الآن ، إذ انه من الواجب أن تشغل أوقات هؤلاء بالتعليم والتهذيب،حتى يشبوا نافعين لأمتهم رافعين من قدرها ، وحتى لا يستطيع الملل أن يتطرق الى نفوسهم ، ولا تتمكن الأفكار الشيطانية من ان تتسلط عليهم

واذا كان هذا عيب الرهبنة اليوم فليس منشأة الرهبان، فلكم رأينا من بينهم من يتلهف لارتشاف العلوم رغم تقدم سنه

وليس أدل على ذلك من ان جماعة من دير انطونيوس قامت في سنة ١٩٢٢ برئاسة الأب الجليل القمص حنانيا رئيس الدير الحالى ، فجاهدت جهاد الأبطال ، واستعذبت الطرد والحرم والاضطهاد في سبيل فتح

مدرسة لتلقى العلوم بها

وهل هناك أيضاً أدل على ذلك من ان بعضهم يتناول باحدى يديه مرتبه الشهرى ليناوله بالأخرى لأحد المدرسين حتى يشبع نفسه بالعلم، حارماً اياها مما تستطيع التمتع به من ذلك المرتب الضئيل ؟

الحق ان الرهبان متعطشون للعلم، والعيب فى جهلهم راجع ولا شك الى رؤساء الأديرة الذين يقترون عليهم، اما ليكدسوا ايراد الأوقاف، أو ليصرفوه على ملذاتهم، أو لأنهم يخشون أن يوجدوا من التعليم طبقة من الرهبان تستطيع أن تزهوَ عليهم وتناقشهم الحساب فيما يبددونه من أموال طائلة

وإذا كان هؤلاء الرؤساء ينكرون على المجلس الملى العام حق رقابة تلك الأوقاف، لأنها وقف على الرهبان كما يدعون، وهم قُوّام على ذلك الوقف، أفلا يجدر بناظر الوقف أن يعمل ما فيه مصلحة المستحق ؟

وأين تذهب تلك الايرادات الطائلة ان لم تعمل بها مدارس للرهبان، وهل تبقى الأديرة كما هى الآن، ويحق عليها وصف القائلين، بأنها زرائب تحوى آدميين، ثم يضطر الشعب أن يختار من تلك الزرائب رؤساءه انصياعاً للتقاليد ؟

لقد طالعنا شذرات متفرقة كتبها بعض الرحالة عن الاديرة فلم نجد بين هؤلاء الكتاب من لم ينعت أماكن الرهبان بالقذارة، ومن لم يصم الرهبان بالجهل المطبق .

لقد كان الرهبان فيما مضى من الزمان قوماً تهذبوا بفروع العلم

والفلسفة ورضعوا لبان الحكمة والمعرفة ، يزينهم الورع وتجملهم التقوى ، فكانوا مهرة فى شرح نصوص الكتاب المقدس واستظهار آياته والالمام بتفاسيره المختلفة ، وكان منهم العالم والفيلسوف الذى يمكنه أن يقرع الحجة بالحجة والدليل بالدليل ، ولم يكن هذا شأنهم فى الأمور الدينية فحسب ، بل نبغ منهم عدد ليس بالقليل فى العلوم الطبيعية والمدنية ، وكانت الأديرة مدارس لاهوتية عليا تخرج منها أمثال أنبا شنوده المتوحد المشهور وأنبا باخوميوس وأبو مقار وغيرهم

وكان جلّ وقتهم مقضياً فى ارشاد الضالين واقامة الساقطين من الخطية ودحض البدع التى كانت تتسرب إلى مبادىء الكنيسة الحقة ، وكانوا لا يهتمون بذواتهم اهتمامهم بأمور غيرهم ، شأن القديس أنطونيوس الذى يعتبرونه أباً لهم والذى ترك عزلته مراراً لتبشير الناس وهداهم إلى الطريق القويم

أما اليوم فيمكننا أن نقرر أن الرهبان ، إلا النذر اليسير ، فى جهل مطبق ، بل أنه يوجد من بينهم من لا يعرف القراءة والكتابة ، حتى الكهنة منهم والقمامصة يحفظون القداس باللغة القبطية ويرددونه فى الكنيسة بدون أن يدركوا له معنى .

وفيما يلى الاصلاحات التى نرى ادخالها على حالة الرهبنة الحاضرة لاعادتها إلى سابق مجدها :

(أولا) أن يشترط فى طالب الرهبنة ألا يكون فى ماضيه ما يمنع

اندماجه فى سالكها ، وألا يكون الدافع الذى حدا به إلى دخول الأديرة أمراً وقتياً لا يلبث أن يزول

(ثانياً) أن يوضع تحت الاختبار مدة لا تقل عن الثلاث سنين بأى حال من الأحوال ، وألا يرسم راهباً إلا بعد أن يحوز شهادة علمية خاصة من مدرسة الدير

(ثالثاً) أن يعمل فى كل دير مدرسة تدرس بها أصول الدين وتاريخ الكنيسة مع ترجمة أكابر القديسين والمتوحدين ، ثم الألحان الكنسية والقداس ، ومبادىء الحساب ، واللغتين القبطية والعربية ولغة أخرى من اللغات الحديثة ، ولتكن الفرنسية مثلاً .

(رابعاً) عمل جامعة لاهوتية عليا فى القاهرة يندمج فى سلكها الرهبان الذين يتخرجون من مدارس الأديرة ، وتدرس بها العلوم اللاهوتية ، ومقارنة المذاهب المختلفة والأديان الأخرى ثم المنطق وعلم التربية والوعظ والتبشير واللغتان القبطية واليونانية بمختلف لهجاتهما ، ثم لغة أجنبية أخرى ولتكن الانجليزية

(خامساً) أن توضع كتب كل دير فى مكان واحد ، وتضاف اليها المطبوعات الحديثة التى ترقى مدارك الرهبان ، ثم ترتب ترتيباً فنياً حتى تصبح فى متناول كل فرد

(سادساً) أن تبنى قلاية الراهب على طراز حديث ، وأن تكون لوازم المعيشة متوفرة لديه ، وأن يوجد فى كل دير خادمان أو أكثر للقيام بالشؤون المنزلية التى يقوم بها الرهبان الآن ، حتى يتفرغ هؤلاء للدراسة المنتظمة .

(سابعاً) أن توجد الصناعات المختلفة فى الأديرة كالغزل والنسيج وعمل الأبسطة والسجاجيد والطباعة والنجارة والحدادة والفنون الجميلة بأنواعها ، كالرسم والنقش والتصوير — تلك المهن التى كانت موجودة فى الزمن الغابر بكثرة زائدة ، ثم زال أثرها الآن تماماً .

(ثامناً) أن لا يبقى الراهب فى المدن إلا لحاجة ماسّة بتصريح من رئيسه ، ولا يعطى هذا التصريح إلا لمن يحوز درجة علمية عالية

(تاسعاً) أن يفصل من سلك الرهبنة بلا تردد كل من يتكرر منه الاخلال بشرط من شروطها

(عاشراً) أما رؤساء الأديرة فمن الواجب عليهم أن يقدموا حساباً عما بأيديهم لهيئة مسؤولة وليكن المجلس الملى العام ، ويعنوا بالغرض الأساسى الذى تتطلبه منهم مراكزهم وهو القيام بما فيه نفع الرهبان واصلاحهم وتقويم اعوجاجهم ، كما أنه من المستحسن نشر ايرادات كل دير ومصروفاته فى الجرائد السيارة ليطلع عليها الجمهور وليبدى ما يعنّ له من أوجه الاصلاح التى يصبو اليها الجميع .

بهذه الاصلاحات وبغيرها تأخذ الرهبنة مستوى يليق بها وتستعيد بعض مجدها الذى فقدته .

وبهذا يتمكن الرهبان من شغل أوقاتهم بالتعليم النافع حتى لا يتطلعوا بفراغهم الى الضار

وبهذا يصبح الرهبان علماء فى مختلف العلوم ويفيدون العالم وينفعون الانسانية .

الفصل السابع

العودة

أخذنا بعد عودتنا الى دير انطونيوس نستطلع بعض الأبنية التى لم نكن قد رأيناها ، ونلتقط بعض المناظر التى كانت تنقصنا

حان موعد سفرنا فودعنا تلك الأماكن الأثرية التى قضينا بها أوقاتاً حلوة لا تنسى ، وليالى الصفاء قصيرة مهما كانت طويلة ، وأوقات السرور تمر مرور البرق ، وأيام السعادة والهناء ان هى الا لحظات لا تكاد تبتدىء حتى تنتهى

وقليلون هم الذين ذاقوا لذة العزلة والسكون المخيم على أمثال تلك الصحراوات الواسعة ، لأن الهدوء والسكون اللذين هما من مميزات الحياة الحقيقية قد أصبحا لا يهتم بهما أحد من الناس ، لأن المدن التى نهرع لسكناها قضت على ذلك الهدوء ، وقتلت ذلك السكون ، فهرب كلاهما الى الفيافى والقفار ، واتخذاها ملجأ لهما

هناك فى تلك الجهات النائية ، يصفو العقل ، وتحس الروح بيد الاله الحكيم ظاهرة فى مخلوقاته ، ويصبح الانسان ازاءها مستسلماً لما تأتى به الاقدار

اليوم الخامس عشر : كان منتصف يوم السبت ٢٦ نوفمبر عند ما ودعنا الآباء فى دير انطونيوس ، ونحن نشد الرحال لمغادرتهم ، وكان وداعا مؤثراً ، فلقد أحاطوا بنا احاطة الهالة بالقمر ، والسوار بالمعصم ،

وهم يطلبون منا أن نراسلهم ليطمئنوا على وصولنا وأخبارنا



(ساعة الوداع)

أخذنا نشق طريقنا فى وسط الصحراوات الواسعة حيث لا ماء إلا ما أخذناه من مياه الدير ، ولا جليس الا رفقاؤنا البدو، ولا مأوى نبيت فيه الا الفضاء المتسع

عشرة أيام قضيناها فى تلك الأماكن قصيرة فى مجموعها ، طويلة بالمشاهدات الحافلة التى وقعت تحت أبصارنا ، فلقد رأينا من الأماكن الأثرية ومن الرموز الخالدة الشىء الكثير ، وقد تكشفت لنا الطبيعة ، ووقفت أمامنا وقد القت قناعها سافرة بوجهها الفتان تستهوى نفسينا فملنا اليها بكلياتنا ، ووددنا لو مكنتنا الظروف أن نقضى مدة طويلة فى تلك الجهات ، ولا عجب فليس فى مقدور انسان بعد

أن يرى جمالها أن يفلت من قبضة حبها ، وأن يقاوم رغبته فى العودة اليها مهما طال به الهجر .

أخذ دير أنطونيوس يغيب عن أنظارنا شيئاً فشيئاً ونحن نضيع فى قلب تلك الصحراء الواسعة .

بدت أمامنا الصحراء الجرداء حال عودتنا خضراء مزدانة بالحشائش والاعشاب البرية التى أنبتتها الأمطار الغزيرة التى تساقطت قبيل سفرنا ، فرأينا الجبال والآكام والأودية ، وقد التحفت ثوباً سندسياً فتاناً أعارته اياها الطبيعة ، وأصبح سيرنا بين مروج خضراء جميلة تستهوى الألباب .

اقتربنا منا كمه قليب الراهب ، وقد كاد الدير أن يغيب عن أنظارنا فلم يبق ظاهراً لنا منه سوى أشجار البلح العالية

اقتربنا من ذلك الجبل فأخذ يرمقنا بأنظاره ويهزأ بخوفنا ومللنا من السير بالصحارى ، وكم مرت به أجيال ودهور طويلة وهو جاثم على ركبتيه يرقب الغادين والرائحين ، ولا يعرف للسآمة أو الضجر معنى

كان حديثنا تلك المدة ما رأيناه من كرم نفوس أولئك الرهبان سكان الجبال والقفار ، هذا الكرم الذى يفوق بكثير ما نراه من أهل المدن

وللطبيعة أثر بارز فى صقل نفوس الأقوام وتكييفها ، واخراجها بالشكل الذى نراه أمامنا ، فلربما كان حكم الطبيعة على أولئك الرهبان

بالعزلة والانفراد قد أثَّر فى نفوسهم وجمَّلها بالكرم واللطف والوداعة وحب الغير

ومن ذا الذى يعيش فى أحضان تلك الوحدة وذلك السكون ، ولا تتبدل طباعه وتتغير لتوافق ذلك الوسط ، وأى شخص حاد الطبع لا تزول حدَّته وتتحطم أمام قوى الطبيعة وأحكامها القاسية الجائرة

أليست الطبيعة هى التى تختار المخلوقات المتنوعة وتوجدها فى المناطق المختلفة ؟ ثم أليست هى التى تخضع جميع الكائنات للأوساط التى تعيش فيها ؟ أليست هى التى تمنح دب القطبين صوفه الأبيض ، وتعطى الحرباء قدره على التلون بألوان الأشجار التى تتسلقها ؟ ثم أليست هى بعينها التى تعطى ضخامة للأشجار الاستوائية لتغالب حرها ، وتعطى اعتدالا للأشجار التى تنمو فى الأقطار المعتدلة؟ واذا كان هذا حكم الطبيعة على الحيوانات والنباتات ، فهل يشذُّ الانسان عن هذا الحكم؟

انتهينا ببقعة تدعى أبو خشيبة ، وكانت الشمس لا تزال ترسل أشعتها الذهبية فتنير الأكوان ، وإذ كانت هناك أكمة منخفضة احتمينا بها ، وفضلنا أن نبيت بهاليلتنا ، وانتحينا مكاناً قصياً لنتأمل مشهد اليوم المحتضر وهو يجود بأنفاسه الأخيرة ، ثم أخذنا نعدد مناقب الرهبان الذين خالطناهم ، ونستعيد ذكر الأشياء التى شاهدناها

أثقل الكرى عيوننا فنمنا ملء أجفاننا ، واستيقظنا مبكرين نشد الرحال كى نقطع مسافة طويلة

اليوم السادس عشر : سرناحتى وصلنا بعد ساعتين تقريباً الى وادى

العربه ، فرأيناه أخضراً مزداناً بالحشائش والزهور الجميلة التى نبتت مؤخراً ، وقد التقطنا من الأنواع المختلفة الجذابة شيئاً كثيراً

وصلنا فى منتصف النهار الى عين العريضة ، وهنالك استرحنا وطبخنا وأكلنا ونمنا نوما عميقاً فى ظل الأشجار الباسقة

كان أمامنا بعد ذلك أن نمر فى جبل الخليل لنبيت خلفه ، فأخذنا نَجِدُّ فى السير ، والظلام يجرر أذياله حتى أدركنا قبيل اجتياز ذلك الممر ، وكان لابد من اختراقه حتى نجد مكاناً صالحاً لمبيتنا

أرخى الليل سدوله على تلك الأماكن المقفرة ، واشتد الظلام الحالك ، ولاقمر ولانور يقودنا فى ذلك المكان الذى يعد أصعب جزء فى الطريق ، فترجلنا الجمال وسرنا على أقدامنا ، وما وصلنا أوله الاوقد بدا لنا ذلك النفق غريب المنظر ، فالجبال تعلو الى ارتفاع شاهق والأرض صخرية تعلو وتنخفض بشكل مزعج

والسير فى تلك الأماكن الموحشة صعب على النفس فى ضوء الشمس الساطعة ، فكم يكون أثره فى وسط الظلمة القاتمة والليل البهيم

واذا كانت معيشة الصحراء حلوة ولذيذة ، الا أنها فى بعض الساعات تبدو متعبة ثقيلة ، حتى لينسى الانسان كل ما ذاقه فيها من أوقات السعادة والهناء

خرجنا من ذلك الممر الضيق نستنشق عبير الهواء العليل بعد أن أضنانا السير وكاد التعب أن يقضى على نفوسنا

سرنا قليلا حتى وصلنا الى بقعة مناسبة لمبيتنا تدعى أم دابات ، وما

كان أسرعنا فى توسد فراشنا بعد ما قاسيناه من تعب ذلك اليوم

اليوم السابع عشر: كان طريقنا ثالث يوم سهلا منبسطاً لم نصادف به ثمة تعب ، وقد سمعنا فى الطريق شيئاً عن وسائل معيشة البدو

والعرب سكان تلك الصحارى قوم متدينون يعتنقون الاسلامية ، وهم متمسكون بدينهم ، وربما كان تدينهم ناشئاً عن طبيعة وجودهم فى تلك الصحراوات الواسعة المقفرة

والذين يقطنون منهم بجوار الأديرة ، والذين يمرون بها أيضاً يذهبون اليها ويطلبون منها المؤونة اللازمة لهم ولأولادهم ولمواشيهم ، ولا يرد الرهبان لسائل منهم سؤلا بل يعطونهم جميع مايطلبون من خبز ودقيق وماء وبلح



(بعض البدو يتلقون الخبز من المطعمة)

وقد حدثنا الرهبان هناك أن أحد ولاة مصر فى القرون الأولى للهجرة كان سائراً فى صحراء العرب فضلّ الطريق ، وإذ وقع بصره أخيراً على الدير التجأ اليه طلباً للراحة ، فأضافه الرهبان اذ ذاك وأكرموا مثواه ، فلما شاهد بعينيه اضافتهم لكل من يقصد ديرهم مهما كانت جنسيته ودينه ، أوقف بعض الأطيان على ذلك الدير — وهذا مما يدل على ان العرب فى وفاق تام مع الرهبان ليس فى الوقت الحاضر فقط ، بل منذ زمن بعيد

وهناك بعض أراضى صالحة للزراعة يلقون بها البذار ، حتى اذا ما سقطت الأمطار أنبتتها وسقاها الندى ، فتنمو وتكبر ، وتصبح وسيلة لاقتياتهم

وقد رأينا أثناء زيارتنا للأراضى المقدسة حالة مماثلة لحالة أولئك القوم ، فان أورشليم المدينة العظيمة بل وأكثر مدن فلسطين ، تعتمد على سقوط الأمطار ، وقد يكون هذا سببا من أسباب تدين أهل تلك البلاد أيضا لأنهم يتذكرون الأمطار فى كل وقت ، ويطلبون من الله سبحانه وتعالى اسقاطها ، ويعكفون على الصلاة ليل نهار اذا طال زمن احتجابها عنهم

وأولئك البدو لا يهتمون فى الصحراوات الواسعة الا بوجود المراعى اللازمة لابلهم التى يتركونها فى قلب السهول والأودية ترعى الحشائش النابتة ، وتسير كالقطعان تحت إمرة قائد منها يهديها الى

حيث يريد ،ولا يتفقدونها الا كل شهر أو أكثر

وهم يسكنون فى تجاويف الجبال ، ويقيمون بها خياما يعيشون فيها عيشةً مطمئنة هادئة

واذا رغب شاب من شبانهم الاقتران بفتاة ما ، فانه يعدُّ العدّة لاختطافها من أهلها غير مبالٍ بصراخها واستغاثتها ، ثم يربطها على بعيره ويهرب بها ويودعها وديعة عند أحد البدو أصحابه ، حتى يفاوض أهلها الذين اذا رفضوا زواجها منه كان جزاءه أن يؤدى لهم ناقة ثمناً لعمله ، واذا قبلوا اتفقوا على عددٍ معين من الجمال مهراً لها وأزوجوها منه باحتفال فخم يشترك فيه أفراد القبيلة ، وتطلق فيه البنادق فوق الرؤوس ، ويُعَدّ حضور أفراد القبيلة شاهداً على الزيجة ، ومحضراً شرعياً بهذا القران

والعرب يقتسمون الصحراوات الواسعة ، ويعيشون فيها كقبائل تختص كل منها بقسم خاص ، لا ينازعها فيه منازع ، وتدعى القبيلة التى تعيش فى تلك الأصقاع قبيلة المعازة

وهم يحتكمون فى منازعاتهم الى رئيس القبيلة ، أو الى قاضٍ يختارونه من بينهم ويكون حكمه نهائيا لا يقبل الطعن فحسب ، بل يسارعون هم الى تنفيذه عن طيب خاطر

ولباسهم لايختلف كثيراً عن لباس سائر الفلاحين ، ويتكون من العمامة والثوب الأزرق ، ويميزهم العقال الذى يضعونه حول رووسهم فى بعض الأحايين

والبدو مهرة فى معرفة الأوقات ، والتنبؤ بحصول الزوابع والأمطار قبل حصولها

وطريقة التحية عندهم أن يضع الواحد منهم رأسه على كتف أخيه

وهم أقوياء البصر بدرجة فائقة ، وربما ساحتهم الطبيعة بحدة البصر حتى تمكنهم من ان يدفعوا عن أنفسهم هجوم الوحوش والأفاعى بأن يروها من بعيد ، ويستعدون لمقاتلتها

والبدو حتى الحديثو السن منهم يحفظون الطرق حفظاً جيداً شأننا فى المدن ، وتراهم يسيرون نهاراً وليلاً بدون أن يحيدوا عن الطريق شيئاً يذكر .

وليس أدل على ذلك من أن أحد رفقائنا البدو قد ذكر لنا انه فقد مرة فى ذهابه للدير قطعة فضية ذات خمسة قروش وسط الصحراء الواسعة ، فلما كان عائداً ذهب الى مكانها مباشرة والتقطها منه .

وهؤلاء البدو يمتون بالنسب والقرابة الى سكان بلاد العرب الاصليين وربما كانوا قد نزحوا الى صحراء العرب من برية سيناء

وهم مغرمون شأن العرب الأصليين بأخذ ثأر قتياهم ، فلا يهنأ لأهل المجنى عليه بال الا اذا اغتالوا قاتله .

وإذا نزل بساحتهم ضيف غريب فانهم لا يتأخرون عن ان ينحروا له ولو الناقة الوحيدة التى لا يملكون سواها .

ومن عادتهم انهم لا يشتركون مع ضيوفهم فى تناول الطعام بل يقف المضيف يخدم ضيفه ويعمل ما فيه راحته .

وهم مهرة جدا فى صيد الأرانب البرية والغزلان وغيرها باقتفاء الأثر وبالاستعانة بكلب الصيد الذى يسمونه «الديخ»

ورغم شظف العيش الذى يقاسيه أولئك القوم فى تلك الأماكن الموحشة فهم سعداء ودعاء القلوب ، كرماء النفوس ، لا يشعرون بتكاليف المدن كما انه لا ينتقص من حريتهم أمر من الأمور

وصلنا فى مغيب الشمس الى المكان الذى بتنا فيه أول ليلة فى الصحراء وهو التلعة فانزوينا بين تاين منخفضين وبتنا ليلتنا إذ لم يبقَ أمامنا سوى مسيرة ست ساعات على وصولنا الى شاطىء النيل .

كان من حظنا أن لاحظنا البدو فى تلك الليلة وهم يجهزون ما يأكلونه أثناء سيرهم فرأيناهم قد عجنوا الدقيق وعملوه فطيراً ، وجمعوا حطباً كثيراً . وأشعلوا ناراً والقوا الفطير فيه حتى ينضج ، وهم يسمون هذا الفطير «الحمش»

وقد اشتركنا معهم فى تناوله . وهو لذيذ الطعم جداً فى تلك الأماكن الموحشة ولكننا لا نظن الكثيرين يستطيعون أن يقبلوا عليه

اليوم الثامن عشر : بكرنا فى صباح اليوم الرابع ، وسرنا فى طريقنا نقصد المبيت فى مدينة بوش ، فأخذنا نجدُّ فى السير ، وقد وجدنا فى طريقنا عششا لبعض العرب فى قلب الجبل فسررنا لشكلها ، وقد صادفنا أيضاً قطعانا من الابل ترعى فى تلك الوديان وكان منظرها جميلاً جداً وهى تسير زرافات ووحداناً .

كان ذلك اليوم هو آخر أوقات تلك المعيشة البدوية اللذيذة فشعرنا بالشوق والحنين لاحبائنا الرهبان ولرفقائنا البدو — ومن ذا الذى

يعاشر أولئك الودعاء ولا يشعر دائماً بالحنين والشوق إلى معاودة عشرتهم ؟

وصلنا الساعة الثانية بعد الظهر تماماً إلى ضفاف النيل وقد مررنا في طريقنا بنجع العلما مسكن البدو فتخطيناه إلى الشاطىء حيث ركبنا قارباً إلى الشاطىء الآخر .

أخذت الأبنية المرتفعة والحقول المزرعة تقع تحت أبصارنا رويداً رويداً ، ورأينا مرة أخرى الأشجار والنباتات التى حرمنا من رؤيتها ثمانية عشر يوماً كاملة .

وصلنا بوش بغير عناء وكان سرورنا عظيما حينما أخذنا نعانق بعضنا بعضاً على وصولنا سالمين بعد تلك الرحلة

عدنا للقاهرة مرة ثانية بعد أن لفحتنا الشمس المحرقة بحرارتها، وبعد أن تعرضنا لأشعتها فوق البنفسجية فاسمرّ لوننا بدرجة فائقة ، حتى أن بعض أصدقائنا غابت عنهم معرفتنا حال رؤيانا

والآن وقد رجعنا من رحلتنا سالمين ولم نُمسّ بأذى ، فلقد أصبح واجباً علينا أن نقدم للعزة الالهية الشكر والحمد



محتويات الكتاب





مكتبة مدبولي

MADBOULI BOOKSHOP

٦ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ ت : ٧٥٦٤٢١

6 Talat Harb SQ. Tel. : 756421